المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

لضياء الدين بن الأثير

قدمه وعلق عليه

دكتور احمد الحوفي و دكتور بدوى طبانه

القسم الثالث

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

النوع السابع عشر

فى التكرار

قد تقدَّم الكلامُ فى صدر كتابى هذا على تكرارِ الحُروف ، وما [أشبه] ذلك مما يختلطُ بهذا النوع الذى هُو « تكريرُ المعانى والألفاظ » .

واعلم أن هذا النوعَ من مَقاتِل علمِ البيان ، وَهوَ دقيقُ المأخذ .

وحدُّه هو : دلالةُ اللفظ على المعنى مردَّدا ، وربما اشْتَبَه على أكثرِ الناس بالإطْناب مرّة وبالتَّطويل أخرى . وقد تقدمَ الكلامُ على الفَرْقِ بينَ هذه الأنواع الثلاثة فى بابِ الإطْناب(١) فلا حاجةَ إلى إعادَته هَاهُنا .

وأمّا التكريرُ فقد عرَّفتكهُ ، وهو ينقسمُ قِسْمين :

أحدُهما يوجَدُ فى اللفظ والمعنَى

والآخَرُ يوجَدُ فى المعْنى دونَ اللفظ . فأمَّا الذى يوجَدُ فى اللفظ والمعنى فكقولك لمن تستدعيه « أسْرِع أسْرِع » ومنْه قولُ أبى الطيِّب المتنبِّى(٢) :

وَلَمْ أرَ مِثْلَ جِيرَانِى وَمِثْلِى ... لِمِثْلِى عنــد مثْلِهِمُ مُقَامُ

وأمّا الذى يوجَدُ فى المعنَى دونَ اللفظ فكقولك : « أطِعْنى وَلَا تَعْصِنِي » . فإنَّ الأمرَ بالطَّاعةِ نَهْىٌ عن المَعْصِية .

---

(١) أنظر صفحة ٣٥٧ من القسم الثانى من هذه الطبعة .

(٢) ديوان المتنبي ٤/٧٩ من قصيدته فى مدح المغيث بن على العجلى ، ومطلعها :

فؤاد ما تسليه المدام ... وعمر مثل ما تهب اللئام

وكلٌّ من هذين القِسْمين ينقسِمُ إلى مُفيدٍ ، وغيرِ مُفيد :

ولا أَعْنِي بالمُفيد ها هُنا ما يَعْنِيه النُّحاة ، فإنَّه عندهُم عبارة عن اللفظِ المركب ، إمَّا مِن الاسْم مع الاسم ، بشرطِ أن يكونَ للأوّل بالثّاني علاقة مَعْنًى يَسَعُ مكلَّفاً جهلُهُ ، وإمَّا من الاسْمِ مع الفعلِ التّامِّ المتصرف على الشرطِ أيضاً ، وإما مِنْ حَرْف النِّداء مع الاسْم ، فهذا هو المُفيدُ عندَ النُّحاة .

وأنا لَمْ أَقْصِدْ ذلك هَا هُنَا، بلْ مقصُودِي من المُفيد أنْ يأْتِيَ لمعًى ، وغيرِ المفيد أنْ يأتِيَ لغيرِ معًى .

واعلَمْ أنَّ المفيد من التكرير يأتى فى الكلامِ تأكيداً له وتَشْيِيداً مِنْ أَمْرِه . وإنَّما يُفْعَلُ ذلك للدلالَة على العِنَايَةِ بالشيء الذى كرَّرتَ فيه كلامَك ، إما مُبالغةً فى مدحِهِ ، أوفِى ذمِّه أو غيرِ ذلك ، ولا يأتِى إلا فِي أحدِ طرَفَى الشيء المقصُودِ الذِّكر ، والوسَطُ عارٍ مِنْه ، لأنَّ أحدَ الطَّرفَيْنْ هو المقصُود بالمبالَغة ، إمَّا بمدحٍ أو ذمٍّ أو غيرِها ، والوسطُ ليسَ من شرطِ المُبالَغة ، وغيرُ المفِيد لا يأْتِى فى الكلام إلاَّ عِيّاً وخَطَلا من غير حاجة إليه .

[التكرير فى اللفظ والمعنى]

أمَّا الأَول ، وهو الذى يوجَدُ فى اللفظِ والمعنى ، فإنه ينقسِم إلى ضربين : مُفيدٍ ، وَغَيْرِ مفيدٍ .

فالأوّل المُفيد ، وهو فرعانِ :

الأول : إذا كان التكرير في اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمقصود به غرضان مختلفان :

كقوله تعالى ﴿ وإذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أنَّها لَكُم ، وَتَوَدُّونَ أنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللهُ أنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ، لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المجرِمُون[1] ﴾

هذا تكرير في اللفظِ والمعنى ، وهو قوله « يحقَّ الحقَّ وليحقَّ الحقَّ ». وإنما جيء به ها هنا لاختلاف المُراد ، وذاكَ أنَّ الأوَّلَ تمييزٌ بين الإرادتين ، والثاني بيانٌ لغرضِه فيما فعَلَ من اختيار ذات الشَّوْكة عَلَى غَيْرِها ، وأنَّهُ ما نصرَهُمْ وخَذَلَ أولَئِكَ إلا لِهَذَا الغَرض .

ومنْ هذَا البابِ قولُهُ تعالَى :

﴿ قُلْ إنَّما أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّين وأُمِرْتُ لِأنْ أكُونَ أوَّلَ الْمُسْلِمِين ٭ قُلْ إنِّي أخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عذَابَ يومٍ عظِيمٍ ٭ قُلِ اللهَ أعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ٭ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ[2] ﴾ .

فكرَّر قولهَ تعالَى : « قُلْ إنِّي أُمِرْتُ أنْ أعبدَ اللهَ مخلصاً له الدين » وقوله « قل اللهَ أعبُدُ مخلصاً لهُ ديني » والمرادُ بِهِ غرضَان مختلفَان ، وذلَك أنَّ

---

(١) سورة الأنفال : الآيتان ٧ و٨ .

(٢) سورة الزمر : الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .

الأوَّلَ إخبارٌ بأنّه مأمُورٌ من جهةِ اللهِ بالعبادةِ لَهُ والإخلاصِ في دِينه ، والثانى إخبار بأنه يخصُّ اللهَ وحَده دونَ غيره بعبادَته ، مخلصاً له دِينَه ، ولدلالته على ذلك قَدَّمَ المعبودَ على فعلِ العبادةِ فى الثّانى ، وأخَّرَه فى الأوَّل ، لأنَّ الكلامَ أولًا وَاقِعٌ فى الفعلِ نَفْسِه وإيجادِهِ ، وثانياً فيمَنْ يُفعلُ الفِعُل من أجْله ، ولذلكَ رتّب عليه « فاعْبُدُوا ماشِئْتُمْ مِنْ دونهِ ».

وعليه وردَ قولُه تعالى :

﴿ إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وَرَسُولهِ وَإذَا كَانُوا مَعَهُ على أمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حتّى يَسْتَأْذِنُوهُ ، إنَّ الَّذِينَ يَسْتأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾[1] .

وظاهر الأوّل والثّانى أنهما سَوَاء فى المعنى ، وليسَ كذلكَ ، لأنَّ الثّانى فيه تخصيصٌ غيرُ موجودٍ فى الأوَّل ، ألا ترى أنا إذا قلنا « زيدٌ الأفضَل » وقلنا « الأفضلُ زيدٌ » كان فى الثانى تخصيصٌ له بالفَضل ، وهذا التخصيصُ لايوجدُ فى القول الأوَّل الذى هو « زيدٌ الأفضلُ » ويجوز أن تُبدَلَ صِفَةُ الفضْل فيه بِغَيرها أوْ بضِدها ، فيقال « زيد الأجْمل » أو « زيدٌ الأنقص » وإذا قلنا « الأفضل زيدٌ » وجب تخصيصهُ بالنفس ، ولم يكن تغيير عنه .

وكذلك يَجرى الحُكمُ فى هذهِ الآيات ، فإنَّ الله تعالى قالَ : « إنَّما المؤمنونَ الذّين آمنُوا بالله ورسُوله » ثم قال : « لم يَذْهَبُوا حَتّى يستأذِنوُه » « فوصفَهمْ بالامْتناعِ عن الذّهاب إلابإذْنهِ ، وهذه صفةٌ يجوزُ أن تبدَلَ بِغَيرها

(١) سورة النور : الآية ٦٢ .

من الصِّفَاتِ . كما قالَ تعالى فى موضعٍ آخر ﴿ إِنَّمَا المؤمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ ورَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا[1] ﴾ .

فجَاء بصفة غيرِ تلكَ الصِّفة . ولمّا قال : « إنَّ الذين يستأذنُونَكَ أُولئِك الَّذين يؤمنُونَ باللهِ وَرَسُولِه » وجبَ تخصيصهُم بذلكَ الوَصْف دونَ غيرِه ، وهذا موضع حسن فى تكرير المعانى .

وممّا يعدُّ من هذ البابِ قولهُ تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * ولا أَنتُمْ عَابِدُونَ ما أَعْبُدُ * وَلاَ أَنا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ[2] ﴾ .

وقد ظَنَّ قومٌ أنَّ هذه الآية تكريرٌ لافائِدَةَ فيه ، وَلَيْسَ الأَمْرُ كَذَلِك ، فإنَّ معنى قولِهِ « لا أعبُدُ » يَعْنى فى المُسْتقبل مِنْ عبادةِ آلهتِكُمْ ، ولا أنتم فاعلُونَ فيهِ ما أطْلُبه منكُم من عبادَةِ إِلٰهى ، « ولا أنا عابدٌ ما عَبَدْتم » . أىْ : وما كنتُ عابداً قَطُّ فِيما سلَفَ ما عبدْتُم ، يَعْنى أنَّهُ لم يُعْهَدْ مِنّى عبادةُ صَنَمٍ فى الجَاهِلِيَّةِ فى وقتٍ ما ، فكيفَ يُرْجى ذلِكَ منّى فى الإِسلام ؟ . « ولا أنتُم عابدُون » فى الماضى فى وقتٍ مّا ما أنا على عبادَتِه الآن .

ومِمَّا يَجْرِى هذا المجْرَى قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ[3] ﴾ .

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٥ .

(٢) سورة الكافرون .

(٣) سورة فاتحة الكتاب : الآيات ١و٢و٣ .

فكرر « الرحمن الرحيم » مرتين ، والفائدة في ذلك أن الأولى يتعلق بأمر الدنيا ، والثاني بأمر الآخرة .

فما يتعلق بأمر الدنيا يرجع إلى خلق العالمين في كونه خلق كلًّا منهم على أكمل صفة ، وأعطاه جميع مايحتاج إليه حتى البقة والذباب . وقد يرجع إلى غير الخلق كإدرار الأرزاق وغيرها .

وأمّا مايتعلق بأمر الآخرة فهو إشارة إلى الرحمة الثانية في يوم القيامة الذي هو يوم الدين .

وبالجملة فاعلم أنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة في تكريره ، فإن رأيت شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه فانظر إلى سوابقه ولواحقه ، لتنكشف لك الفائدة منه .

ومما ورد في القرآن الكريم مكررًا قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(١) ﴾ .

فكرر قوله : « فاتقوا الله وأطيعون(٢) » ليؤكده عندهم ، ويقرره في نفوسهم ، مع تعليق كل واحد منهما بعلة ، فجعل علة الأول كونه أميناً فيما بينهم ، وجعل علة الثاني حسم طمعه فيهم ، وخلوه من الأغراض فيما يدعوهم إليه .

---

(١) سورة الشعراء : الآيات ١٠٥ — ١١٠ .

(٢) زيادة عن الأصل يقتضيها السياق .

ومن هذا النحو قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ۝ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ ۝ إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ(١) ﴾

وإنما كرر تكذيبهم هاهُنا لأنه لم يأتِ على أسلوبٍ واحدٍ ، بل تنوّع فيه بضُرُوبٍ من الصنْعةِ ، فذكره أولاً في الجُملة الخبرية على وجه الإبهام ، ثمّ جاء بالجُمْلَة الاستِثْنائيّةِ ، فأوضحهُ بأنّ كلّ واحدٍ من الأحزاب كذّبَ جميعَ الرُّسُل ، لأنّهم إذا كذبُوا واحداً منهُمْ فقد كذّبوا جميعَهم . وفي تكرير التكذيب وإيضاحِه بعد إبهامِه ، والتنوّع في تكريره بالجملة الخبريّة أولا ، وبالاستثنائية ثانيا ، وما في الاستثناء منَ الوضع على وَجْه التوكيدِ والتخصيصِ للمبالغةُ المسجّلة عليهِمْ باستحقاقِ أشدّ العذابِ وأبلغِهِ .

وهذَا بابٌ من تكريرِ اللفظِ والمعنَى حَسَنٌ غامضٌ ، وبه تُعرفُ مواقع التّكريرِ ، والفَرْقُ بَيْنَه وبينَ غيرِه ، فافْهَمْه إن شاءَ اللهُ تعالَى .

الفرع الثاني من الضرب الأول(٢) :

إذا كان التكريرُ في اللفظ والمعنى يدلّ على معنى واحدٍ ، والمرادُ به غرضٌ واحدٌ ، كقوله تعالى : ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(٣) ﴾ .

والتكريرُ دلالةُ التعجُّبِ من تقديرِه ، وإصابته الغرَضَ ، وهذا كما يُقال : « قَتَلَهُ اللهُ ما أشجعَه ! أو ما أشعره ! » .

---

(١) سورة ص : الآيات ١٢و١٣و١٤ .
(٢) أي التكرير المفيد .
(٣) سورة المدثر : الآيتان ١٩و٢٠ .

وعليه وَرَدَ قَوْلُ الشاعِرِ :

« ألاَ يا اسْلَمِى ثُمَّ اسْلَمِى ثُمَّتَ اسْلَمِى[١] »

وهذا مبالغة فى الدُّعاء لها بالسَّلامة ، وكلُّ هذا يُجاءُ بهِ لتقريرِ للمعْنى المراد إثباتهِ .

وعليه ورد الحديثُ النبوىُّ ، وذاكَ أنَّ النبىَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال : « إنَّ بَنِى هِشَامِ بْنِ المُغيرة اسْتَأْذَنُونِى أنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عليًّا ، فلا آذَن ، ثُمَّ لا آذَن ، ثمَّ لا آذَن ، إلاّ أنْ يطلّقَ عَلِىٌّ ابْنَتِى وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ »

فقوله « لا آذَنُ ثمَّ لا آذنُ ، ثم لا آذنُ » من التَّكْرِيرِ الذى هو أشَدُّ موقعاً من الإيجَازِ ، لانصِبابِ العنايَةِ إلى تأكيدِ القَوْل فى منعِ علىٍّ - رضِىَ الله عنه - من التَّزْوِيج بابنةِ أبِى جهل بْنِ هِشَام .

وهذا مثل قولهِ تعالى : ﴿ أَوْلَى لكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى[٢] ﴾ .

ومنْ أجْلِ ذلك نقولُ : « لا إلهَ إلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ » لأنَّ قولنَا « لا إلهَ إلاَّ الله » مثل قولنا « وحدَهُ لا شريكَ له » وهما فى المعنَى سَوَاء ، وإنما كرَّرْنا القولَ فيه لتقريرِ المعنَى وإثباتِه ، وذَاكَ لأنَّ من الناسِ منْ يُخالِفُ فيه كالنَّصارَى والثَّنَوِيَّةِ .

---

(١) صدر بيت وعجره * ثلاث تحيات وإن لم تكلمى * والبيت فى ديوان الحماسة ٢/٢٣٧
والبيت ثالث ثلاثة أبيات رواها أبو تمام ، ولم ينسبها لصاحبها ، والأبيات هى :

ولا غرو إلا ما يخبر سالم ... بأن بنى أشباهها نذروا دمى
ومالى من ذنب إليهم علمته ... سوى أننى قد قلت يا سرحة اسلمى
نعم فاسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى ... ثلاث تحيات وإن لم تكلمى

(٢) سورة القيامة : الآيتان ٣٤و٣٥

والتكرير في مثل هذا المقام أبلغ من الإيجاز ، وأحسن وأشد موقعاً

ومما جاء في مثل هذا قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ(١) ﴾ .

فقوله : « مِنْ قَبْلِهِ » بعد قوله : « مِنْ قَبل » فيه دلالة على أن عهدهم بالمطر قد بَعُد وتطاول ، فاستحكم يأسهم ، وتمادى إبلاسهم(٢) ، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك .

وعلى ذلك ورد قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ(٣) ﴾ .

فقوله : « لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » يقوم مقام قوله « ولا يدينون دين الحق » ، لأن من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر لا يدين دين الحق ، وإنما كرر هاهنا للخطب على الأمور بقتالهم ، والتسجيل عليهم بالذم ، ورجمهم بالعظائم ، ليكون ذلك أدعى لوجوب قتالهم وحربهم .

وقد قلنا : إن التكرير إنما يأتي لما أهم من الأمر ، بصرف العناية إليه ليثبت ويتقرر .

وكذلك ورد قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا

---

(١) سورة الروم : الآيتان ٤٨ و ٤٩
(٢) الإبلاس اليأس ، يقال : أبلس إذا يئس .
(٣) سورة التوبة الآية ٢٩ .

تُرَابًا أئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١) ﴾

فتكريرُ لفظةِ « أُولَئِكَ » من هذا البابِ الذى أشرنا إليه ، لمكان شدّة النكير ، وإغلاظ العقاب بسبب إنكارهم البعث .

وعلى هذا وردَ قولُه تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ(٢) ﴾ .

فإنّه إنّما تكررتْ لفظةُ « هُمْ » للإيذانِ بتحقيق الخسار ، والأصلُ فيها وهُمْ فى الآخرةِ الأخسرون ، لكنْ لمّا أُرِيدَ تأكيدُ ذلكَ جِىءَ بتكرير هذه اللفظةِ المُشارِ إليها .

وكذلكَ قولُه تعالى : ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِى النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا(٣) ﴾ .

وأمثالُ هذا فِى القرآن كثيرٌ .

وكذلك وردَ قولُه تعالى فِى سُورَةِ القَصَص :

﴿ فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، فَإِذَا الَّذِى اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ ، لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُبِينٌ ● فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ(٤) ﴾ .

---

(١) سورة الرعد : الآية ٥ .

(٢) سورة النمل : الآية ٥

(٣) سورة الحشر : الآية ١٧

(٤) سورة القصص : الآيتان ١٨ و١٩

فقولُهُ تعالى « فلمّا أنْ أرادَ أنْ يبْطِشَ » بتكريرِ « أنْ » مرّتين دليلٌ على أنَّ موسى — عليه السلامُ — لم تكنْ مسارَعته إلى قتلِ الثّانى كما كانتْ مُسارَعتُهُ إلى قتلِ الأوّل ، بل كانَ عنهُ إبطاءٌ فى بَسْطِ يده إليه ، فعبّرَ القرآنُ عن ذلك فى قولِه تعالى « فلمّا أنْ أرادَ أنْ يبْطِشَ » .

وجرتْ بينى وبينَ رجلٍ منَ النّحويّين مُفاوَضةٌ فى هذه الآية ، فقال : إن (أنْ) الأولى زائدة ، ولو حُذِفتْ فقيل : فلمّا أرادَ أنْ يبطشَ ، لكانَ المعنى سواء ، ألَا ترى إلى قولِه تعالى ﴿ فَلَمَّا أنْ جاءَ البَشِيرُ أَلْقاهُ عَلَى وَجْهِهِ ﴾(١) وقد اتّفقَ النحاةُ على أنَّ « أنْ » الوارِدة بعد « لمّا » وقبلَ الفعلِ زائدةٌ .

فقلتُ لهُ : النحاةُ لا فُتْيا لهمُ فى مواقعِ الفصاحةِ والبلاغة ، ولا عندهُمْ معرِفةٌ بأسرارهما من حيثُ إنّهم نُحاة ، ولاشكّ أنّهمْ وجدُوا « أنْ » ترِدُ بعد « لمّا » وقبلَ الفعل فى القرآنِ الكريم وفى كلام فُصحاءِ العربِ ، فظنُّوا أنَّ المعنى بوجودِها كالمعنى إذا أُسقِطتْ ، فقالُوا : هذِه زائدةٌ . وليسَ الأمرُ كذلك ، بل إذا وردتْ « لمّا » وورَدَ الفعلُ بعدَها بإسقاطِ « أنْ » دلَّ ذلك على الفور ، وإذا لمْ تُسْقَط لم يدلنا ذلكَ على أنَّ الفعلَ كان على الفور ، وإنّما كانَ فيه تراخٍ وإبطاء .

وبيانُ ذلكَ من وجْهين :

أحدُهما : أنّى أقول : فائدةُ وضع الألفاظِ أن تكون أدلّة على المعانى ، فإذا وردتْ لفظة مِنَ الألفاظِ فى كلامٍ مشهودٍ لهُ بالفصاحةِ والبلاغةِ ، فالأولى

---

(١) سورة يوسف : الآية ٩٦ .

أن تُحْمَلَ تلكَ اللفظةُ على معنًى ، فإنْ لمْ يوجَدْ معنًى بعد التّنقيبِ والتّنقِير والبحثِ الطّويلِ قيل : هذهِ زائدة ، دُخُولها فى الـكلام كخروجها منه .

ولمّا نظرتُ أنا فى هذه الآية وجدْتُ لفظةَ « أنْ » الواردَةَ بعد « لما » وقبل الفِعل دالّةً على معنًى ، وَإذَا كانت دالّةً على مَعْنًى فـكيفَ يَسُوغ أنْ يُقَال إنها زائدة ؟ .

فإنْ قيلَ : إنها إذا كانَتْ دالّة على معنًى فيجُوزُ أنْ تـكونَ دالّةً على غير ما أشرت أنتَ إليه .

قلتُ فى الجواب : إذا ثَبتَ أنها دالّة على معنًى فالّذى أشرت إليه معنًى مناسبٌ واقعٌ فى موقعه، وإذا كان مناسباً واقعاً فى موقعه فقد حَصل المرادُ مِنه ، ودلّ الدليلُ حِينَئِذٍ أنّها ليستْ بِزائدة .

الوجهُ الآخَر : أنّ هذهِ اللفظةَ لو كانتْ زائدةً لـكان ذلك قَدْحًا فى كلامِ الله تعالى ، وذاكَ أنّهُ يكونُ قد نطقَ بزيادةٍ فى كلامهِ لاحاجةَ إليْها ، والمعنَى يتمّ بِدُونها ، وحِينئِذ لا يكونُ كلامُهُ مُعْجزاً ، إذْ من شرطِ الإعجاز عدمُ التّطْويل الذى لا حاجةَ إليه ، وإنّ التطْويل عيبٌ فى الـكلام ، فـكيفَ يكونُ ماهو عيبٌ فى الـكلامِ من بابِ الإعجاز ؟ هذا محال .

وأمّا قولهُ تعالى : « فلمّا أنْ جاء البَشِيرُ ألقاهُ عَلَى وَجْهِهِ » فإنّه إذا نُظِرَ فى قِصّة يُوسُف عليه السّلامُ مع إخوته منذُ ألقوهُ فى الجُبّ إلى أنْ جاء البَشير إلى أبيه عليه السّلام وُجِدَ أنّه كانَ ثمّ إبطاء بعيد ، وقد اختلفَ المفسِّرُونَ فى طولِ تلك المدّة ، ولولم يكنْ ثمّ مدةٌ بعيدةٌ وأمدٌ متطاولٌ لما جِيء بأنْ بعدَ « لمّا » وقبلَ الفِعْل ، بل كانَتْ تـكُون الآية : فلما جاءالبَشِيرألقاهُ على وَجْهِه .

وهذهِ دقائقُ ورموزٌ لا تُؤخَذُ من النحاةِ ، لأنها ليستْ من شأنِهِمْ .

واعلم أنَّ مِنْ هذا النَّوعِ قِسْماً يكونُ المعنى فيهِ مُضافاً إلى نفسِهِ مع اختلافِ اللفظِ ، وذلك يأتى فى الألفاظِ المترادفة .

وقد وَرَد فى القرآن الكريم واسْتُعْمِلَ فى فصيح الكلامِ ، فمنهُ قولهُ تعالى : ﴿ والَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾(١) والرِّجز هو العذابُ .

وعليهِ وَرَدَ قولُ أبى تمام(٢)

تَهُوضُ بِثِقْلِ العِبْءِ مُضْطَلِعٌ بِهِ ... وَإِنْ عَظُمَتْ فيه الخطوبُ وجَلّتِ

والثِّقْل هو العِبْءُ ، والعِبْءُ هو الثِّقْل .

وكذلك وردَ قولُ البُحترىِّ(٣) .

وَيَوْمَ تَثَنَّتْ لِلْوَدَاعِ وَسَلَّمَتْ ... بِعَيْنَيْنِ مَوْصُولاً بلحظِهِما السِّحْرُ
تَوَهَّمْتُهَا أَلْوَى بِأَجْفَانِهَا الكَرَى
كَرَى النَّوْمِ أَوْ مَالَتْ بِأَعطافِها الخَمْرُ

فإنَّ الكَرَى هُوَ النَّوْم .

---

(١) سورة سبأ : الآية ٥ .

(٢) ديوان أبى تمام . من قصيدة له يمدح فيها حبيش بن المعافى ، ومطلعها .

نسائلها أى المواطن حلت ... وأى بلاد أوطنتها وأيت

(٣) ديوان البحترى ١/٥٤ من قصيدة له فى مدح المتوكل مطلعها :

متى لاح برق أوبدا طلل قفر ... جرى مستهل لا بكىء ولا نزر

وربما أشكلَ هذا الموضعُ على كثيرٍ من متعاطى هذه الصناعة ، وظنّوه مما لا فائدةَ فيه ، وليس كذلك ، بل الفائدةُ فيه هى التأكيد للمعنى المقصودِ والمبالغةُ فيه .

أما الآيةُ فالمراد بقولِه تعالى : « عَذَابٌ من رِجْزٍ » أىْ : عذابٌ مضاعَف من عذابٍ . وأمّا بيت أبى تمّام فإنّه يتضمَّن المبالغَةَ فى وصف الممدُوح بحمله للأثقال .

وأمّا بيتُ البحترىّ فإنّه أرادَ أن يشبِّه طرْفَها لفتُورِه بالنَّائم ، فكرّر المعنى على طريق المضاف والمضاف إليه تأكيداً لَهُ ، وزيادة فى بيانه .

وهذا الموضِعُ لم يُنَبِّهْ عليه أحَدٌ سِوَاى .

وربّما أُدْخِل فى التكرير من هَذا النوعِ ماليسَ منه وهو موضعٌ لم ينبِّه عليه أيضاً أحدٌ سواى .

فمنْهُ قولُهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١) فلما تكرر « إنَّ ربَّك » مرّتين عُلِمَ أنَّ ذلك أدَلُّ على المغفِرة .

وكذلِكَ قولُهُ تعالى ﴿ ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إنَّ رَبَّكَ من بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(٢) ﴾

ومثلُ هذا قوله تعالى ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَيُحِبُّونَ

---

(١) سورة النحل : الآية ١١٩ .

(٢) سورة النحل : الآية ١١٠ .

أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ(١) ﴾ .

وهذهِ الآياتُ يُظنُّ أنها من بابِ التَّكرير ، وليستْ كذلك .

وقد أنعمتُ نظرِى فيها فرأيتُها خارجةً عن حُكمِ التَّكرير ، وذلك أنه أطالَ الفصلَ من الكلامِ ، وكانَ أولُه يفتقرُ إلى تمامٍ إلا يُفهمُ إلاَّ بهِ ، فالأولَى فِي بابِ الفَصَاحةِ أنْ يعادَ لفظُ الأوّل مرّة ثانية ، ليكونَ مُقارِناً لتمامِ الفَصْلِ ، كَيْ لا يجىء الكلامُ مَنثُوراً لا سيمّا فى « إنّ وأخواتِها » .

فإذَا وردتْ « إنّ » وكان بَيْنَ اسمِها وخَبَرِها فُسْحةٌ طويلةٌ من الكلامِ فإعادَةُ « إنَّ » أحسنُ فى حكمِ البلاغةِ والفَصَاحةِ ، كالذِى تقدمَ مِنْ هَذِهِ الآياتِ .

وعليه وَرَدَ قولُ بعضِهِمْ مِنْ شُعَراء الْحَمَاسَة(٢) .

أَشْجِناً وَقَيْداً واشْتِيَاقاً وغُرْبَةً ... وَنأىَ حَبِيبٍ إنَّ ذَا لَعَظِيمُ
وَإن امْرَأً دامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ ... عَلَى مِثْلِ هَذَا إنه لَكَرِيمُ(٣)

فإنَّهُ لمَّا طالَ الكلامُ بَيْنَ اسْمِ إنَّ وَخَبَرِهَا أُعِيدَتْ « إن » مَّرة ثانيةً ، لأنّ تقديرَ الكلامِ : وإنَّ امرأً دامتْ مواثيقُ عَهْدِه على مِثْلِ هذا الكريمُ ،

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨٨ .
(٢) ديوان الحماسة ٢/١٠٥ ولم ينسبهما أبو تمام .
(٣) رواية البيت الثانى فى ديوان الحماسة :

وإن امرأً دامت مواثيق عهده ... على مثل ما قاسيته لكريم

وعلى هذه الرواية لا يكون البيت موضعاً للاستشهاد ، لأنه لا تكرار فيه .

لـكنْ بَيْنَ الاسم الخبَر مدًى طويلٌ ، فإذا لم تُعَدْ « إنَّ » مرةً ثانيةً لم يأتِ على الـكلامِ بهجةٌ ولا رَوْنق .

وهذا لا يتنبَّه لاستعماله إلا الفصحاء إمَّا طبعاً وإمَّا علماً .

* * *

وكذلكَ يجرى الأمر إذا كانَ خبر « إنَّ » عاملا فى معمولٍ يطولُ ذِكرُه ، فإن إعادَةَ الخبر ثانيةً هو الأحسنُ .

وعلى هذا جاء قوله تعالى فِى سُورَة يُوسُفَ عليه السّلام : ﴿ إذْ قالَ يُوسُفُ لأبيه يا أبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشمسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُم لى سَاجِدِين[1] ﴾ .

فلمَّا قالَ : « إنِّى رأيتُ » ثم طالَ الفصلُ كان الأحْسَنَ أنْ يُعيد لَفْظَ الرُّؤية فيقولَ « رأيتُهم لى سَاجِدين » .

وكذلك جاءت الآيةُ المذكورَةُ هاهنامثل هَذِه وهى قولهُ تعالى : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أتَوا[2] » فإنَّه لمَّا طالَ الفصْلُ أعادَ قوله ﴿ فلا تَحْسَبَنَّهُمْ بمفازةٍ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ فاعلمْ ذلِكَ وَضَعْ يدَكَ عليه .

وكذلكَ الآيةُ التى قَبْلَها وهى قوله تعالى « ثم إنَّ رَبَّكَ لِلذِينَ عَمِلُوا السُّوء بجَهالَة[3] » .

---

(١) سورة يوسف : الآية ٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨٨ .

(٣) سورة النحل : الآية ١١٩ .

وكذلكَ الآيةُ الأخرَى وهى : « ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا » .

ومِنْ بابِ التَّكريرِ فى اللفظِ والمعنَى الدّالّ على معنى واحدٍ قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ[1] ﴾

فإنَّهُ إنَّما كرَّر نِدَاء قومه هاهُنا لزيادةِ التَّنْبيه لهمْ والإيقاظِ من سِنَةِ الغَفْلَةِ ، وَلِأَنَّهُمْ قومُه وعشيرتُه ، وهُمْ فِيماَ يو بِقُهُمْ مِن الضَّلال ، وهو يعلمُ وَجْهَ خَلاَصِهم ، ونَصِيحَتُهُم عليْهِ وَاجِبَه ، فهو يتحزَّنُ لهُم ، ويتلطَّف بِهِمْ ، ويَسْتَدْعِى بذلكَ ألاَّ يتَّهِمُوه ، فإنَّ سُرُورَهُمْ سروره ، وغَمَّهُمْ غَمَّه ، وَأَنْ ينزِلُوا عَلَى نَصِيحتِه لَهُم .

وهذا منَ التَّكرير الَّذِى هُوَ أبلَغُ مِنَ الإيجاز ، وأشدُّ مَوْقِعاً مِنَ الاختِصَار، فاعْرِفْه إنْ شاء الله تعالَى .

وعلى نحوٍ منهُ جاء قولُه تعالى فى سُورَةِ القَمَرِ : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ[2] ﴾ .

فإنَّه قد تكرَّر ذلكَ فى السُّورَة كثيراً ، وفائِدتُه أن يُجَدِّدوا عند استماعِ كل نبإٍ مِنْ أنباء الأوَّلين ادّكاراً وإيقَاظاً ، وَأَنْ يَسْتأنِفُوا تنبُّها واستِيقَاظا ، إذا سَمِعُوا الحثَّ على ذلكَ والبعث إليه ، وَأَنْ تُقْرَعَ لَهُمْ العَصَا مرّاتٍ ، لئلاَّ يغلِبَهُمْ السَّهْو ، وتَسْتَوْلِى عليهمُ الغَفْلَة .

---

(١) سورة المؤمن : الآيتان ٣٨ و ٣٩ .
(٢) سورة القمر : الآيتان ٣٩ و ٤٠ .

وهكذا حُكْمُ التَّكريرِ فِي قَوْلِهِ تعالَى فى سُورَةِ الرَّحْمٰن : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وذلكَ عِنْدَ كلِّ نعمةٍ عَدَّدَها على عِبَادِهِ .

وأمثالُ هذا فِي القُرْآنِ الكريمِ كثيرٌ .

ومِمّا وردَ من هذا النَّوعِ شعرًا قولُ بعضِ شُعَرَاءِ الحماسة[1] :

إلى مَعْدِنِ العِزِّ المُؤَثَّلِ والنَّدَى ... هُنَاكَ هُنَاكَ الفَضْلُ والخُلُقُ الجَزْلُ[2]

فقولُه « هُنَاكَ هُنَاكَ » من التكرير الَّذِي هو أبلغُ من الإيجازِ ، لِأَنَّه معرضِ مَدْح ، فهُو يقرِّر فى نفسِ السَّامعِ ماعندَ الممدوحِ مِنْ هذِه الأوصافِ المذكُورةِ مُشِيرًا إليها ، كأنَّه قالَ أدلُّكُمْ عَلَى مَعْدِنِ كذَا وكَذَا ومقرِّهِ ومُفَادِهِ .

وكذلكَ وَرَدَ قَوْلُ المُسَاوِرِ بْنِ هِنْدٍ[3] :

جَزَى اللهُ عَنِّى غَالِبًا مِنْ عَشِيرَةٍ ... إِذَا حَدَثَانُ الدَّهْرِ نَابَتْ نَوَائِبُه[4]

---

(١) نسبه أبو تمام إلى خلف بن خليفة مولى قيس بن ثعلبة ، وهو شاعر إسلامى مجيد مقل عاصر جريراً والفرزدق ، ويعرف بالأقطع ، لأنه قطعت يده بسرقة اتهم بها.

(٢) رواية ديوان الحماسة ٢/٣٣٦ « المؤيد » موضع « المؤثل » والبيت من جملة أبيات أولها :

عدلت إلى فخر العشيرة والهوى ... إليهم وفى تعداد مجدهم شغل

(٣) هو ابن قيس بن زهير بن حذيفة بن خزيمة بن رواحة ، هكذا قال التبريزى ، وقال غيره : هو شاعر إسلامى مقل .

(٤) بعد هذين البيتين بيتان ، وهما :

إذا قلت عودوا عاد كل شمردل ... أشم من الفتيان جزل مواهبه

إذا أخذت بزل المخاض سلاحها ... تجرد فيها متلف المال كاسبه

راجع ديوان الحماسة ٢/٢٩١ . ولم ينسب أبو تمام هذه الأبيات للمساور ، ولكنه رواها بعد أبيات المساور أولها :

فدًى لبنى هند غداة دعوتهم ... بجو وبال النفس والأبوات

ثم روى بعد هذه الأبيات الأربعة ، ونسبها لآخر . ورواية الحماسة فى البيت الأول « جزى الله خيرا غالبا .. » .

فَكَمْ دَافَعُوا مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ تَلاحَمَتْ عَلَيَّ وَمَوْجٍ قَدْ عَلَتْنِي غَوَارِبُهْ[١]

فصدرُ البيتِ الثانى وعَجُزه يدُلّان على معنًى واحد ، لأنَّ تلاحُمَ الكَرْبِ عَليْه كتعالى الموج من فَوْقِهِ . وإنّما سوَّغ ذلكَ لِأنّه مقامُ مَدْحٍ وَإطْرَاء ، ألاَ تَرَى أنّه يَصِفُ إحْسانَ هؤُلاء القومِ عِنْدَ حَدَثَانِ دَهْرِهِ فى التَّكرير ، وَفِى قُبالَتِهِ لَوْ كانَ القائلُ هاجِياً ، فإنَّ الهِجَاء فِي هَذا كالمَدْحِ ، والتكريرُ إنّما يَحْسُنُ فِي كِلاَ الطَرَفَيْنِ لاَ فِي الوَسَطِ .

واعلمْ أنّهُ إذا وَرَدَتْ « إنْ » المكسُورة المخفّفةِ قبلَ « ما » كانَتْ بمعْناها سَوَاء .

ألا تَرى إلى قوله تعالى : « إنْ هُمْ إلاَّ كالأنْعَامِ » فَـ « إنْ » و « مَا » بمعنًى واحدٍ ، وإذا أُورِدَتْ مِنْ بعدِ « ما » كانتْ من بابِ التكريرِ كَقَوْلنا : « مَا إنْ كَذَا وكذا » ، أيْ : ما يكونُ كذا وكذا ، وإذا وردتْ فى الكلام فإنّما تَرِدُ فى مثلِ ما أشَرْنَا إلَيْه من التَّكرير ، فإن استُعْمِلَتْ فى غيرِ ما يكونُ مِنْها لِفَائِدَةٍ يُنْتِجُها تكريرُها كان استعمالُها لَغْواً لافائِدَةَ فيه .

وقد زَعَمَ قومٌ من مدَّعِي هذهِ الصِّناعة أنَّ أبا الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي أتَى فى هذا البيت بتكريرٍ لاحاجةَ به إليه ، وهوَ قوله[٢] :

العارِضُ الهَتِنُ ابْنُ العَارِضِ الهَتِنِ ابْـ ـنِ العَارِضِ الهَتِنِ ابْنِ العَارِضِ الهَتِنِ

---

(١) الغوارب أعلى الموج وأعلى الظهر .

(١) ديوان المتنبى ٢٠٩/٤ من قصيدة له فى مدح أبى عبيد الله محمد بن عبد الله القاضى الأنطاكى ، ومطلعها :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

وليسَ في هذَا البيتِ مِنْ تكريرٍ ، فإنَّهُ كقولِكَ « الموصُوفُ بكذا وكذا ابْنُ الموصُوفِ بكذَا وكذا » أى : أنَّه عريقُ النَّسبِ فى هَذا الوَصْفِ .

وقَدْ وَرَدَ فِى الحديث النَّبوىِّ مثْلُ ذلِكَ ، كقولِ النبىِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فى وصْفِ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ عليه السَّلام « الكريمُ ابنُ الكريمِ يوسُفُ بن يعقُوب بنِ إسْحَاقَ بْنِ إبْرَاهِيمَ » .

ولَقَدْ فَاوَضَنِى فِى هَذا البَيْتِ المُشَارِ إليه بعضُ علماءِ الأَدَبِ ، وأخَذَ يطعنُ من جِهَةِ تَكْرَارِهِ ، فوَقَّفْتُهُ علَى مواضعِ الصَّوابِ فيه ، وعرَّفْتُهُ أنَّهُ كالخبرِ النَّبوىِّ من جهةِ المعْنَى سَوَاء بِسَوَاء ، لكنَّ لفظَهُ لَيْسَ بمَرْضِى عَلَى هذا الوجْه الَّذِى قد استُعْمِلَ فِيهِ ، فإنَّ الألفاظَ إذا كَانَتْ حِسَانًا فِى حالِ انفرادِها فإنَّ استعمالَها فى حَالِ التركيبِ يزيدُها حُسْنًا على حُسْنِها ، أو يُذْهِبُ الحسنَ عَنْها .

وَقَدْ تقدَّمَ الكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِى المقالَةِ الأُولَى من الصِّناعةِ اللفظيَّةِ(١) .

ولو تهيَّأ لأبِى الطَّيِّبِ المتنبِّى أن يبدل لفظةَ « العارض(٢) » بلفظةِ « السَّحابِ » أو ما يَجْرِى مجراها لكَانَ أحْسَنَ .

وكذلِكَ لفظةُ « الْهَتِنِ(٣) » فإنَّها لَيْسَتْ بمرضيَّةٍ فى هـذَا الموضِعِ على هذَا الوجْهِ . ولفظَةُ « العارض » وإنْ كانتْ قَدْ وَرَدَتْ فى القُرآن ،

---

(١) انظر صفحة (٢١١) من القسم الأول من هذه الطبعة .

(٢) العارض السحاب يعترض فى الأفق ، ومنه قوله تعالى « عارض ممطرنا » .

(٣) هتنت السماء تهتن هتنا وهتونا وهتنانا وتهتاناً ، وتهاتنت : انصبت ، أو هو فوق المطل ، أو الضعيف الدائم ، أو مطر ساعة ثم يفتر ثم يعود ، وسحاب هاتن وهتون .

وَهِىَ لفظةٌ حسنةٌ ، فالفَرْقُ بَيْنَ وُرُودِهَا فى القرآنِ الكريمِ وَوُرُودِهَا فِى هذَا البَيْتِ الشعرىِّ ظاهِر .

وقد تقدّم الكلامُ على مثلِها من آيةٍ وبَيْتٍ لأبى الطيِّب أيضًا ، وهوَ فى ملقالة اللفْظِيَّة عند الكلامِ عَلَى الألفاظِ المُفْرَدة فَلْيُؤْخَذْ مِنْ هُنَاكَ[1] .

وكثيراً ما يَقَعُ الجُهّالُ فى مثلِ هذهِ المواضِع ، وهُمُ الّذين قِيلَ فيهم :

وَكَذَا كُلُّ أخِي حَذْلَقَةٍ ... مَا مَشَى فى يابِسٍ إلاَّ زَلِقَ

فترَى أحَدهُم قد جَمع نفسَه ، وظَنَّ على جَهْلِه أنَّهُ عالِمٌ ، فيُسْرِع فى وصفِ كلامٍ بالإيجازِ ، وكلامٍ بالتَّطوِيل ، أوْ بالتَّكرِيرِ ، وإذا طُولِبَ بأنْ يُبْدِيَ سبباً لِما ذكرهُ لمْ يوجَدْ عِنْدَه من القولِ شىءٌ ، إلا تحكُّماً محضاً صادراً عن جَهْلٍ مَحْضٍ .

الضرب الثانى من التكرير فى اللفظ والمعنى :

وهو غَيْرُ المُفيد ، فَمِنْ ذَلِكَ قولُ مَرْوَانَ الأصْغرِ[2] :

سَقَى اللهُ نَجْداً والسَّلامُ على نَجْدِ ... وَيَا حَبَّذَا نَجْدٌ عَلى النَّأْىِ وَالْبُعْدِ
نَظَرْتُ إلى نَجْدٍ وَبَغْدَادُ دُونَها ... لَعَلِّى أرَى نَجْداً وَهَيهاتَ مِنْ نَجْدِ

وَهذا من العِىِّ الضعيفِ ، فإنّه كرَّرَ ذِكْرَ « نَجْدٍ » فى البيْت الأوّل ثلاثاً ،

---

(١) انظر صفحة (٢١٣) من القسم الأول من هذه الطبعة، وقد وازن فيها بين استعمال كلمتى « العسل » و « الشهد » فى شعر للأعرج ولأبى الطيب وآية من القرآن الكريم.

(٢) هو أبو السمط مروان بن أبى الجنوب بن مروان بن أبى حفصة ، وهو مروان الأصغر ، ويقال لجده مروان بن أبى حفصة مروان الأكبر . كان شاعراً ساقط الشعر ، عاصر الواثق والمتوكل ، وله قصائد عدة فى المتوكل وأحمد بن أبى دؤ د .

وفى البيتِ الثانى ثلاثًا ، ومُرادُه فى الأوّل الثناء على نجدٍ ، وفى الثانى أنّه تلفّت إليها ناظِراً مِنْ بَغْدادَ ، وَذلكَ مَرْمًى بعيدٌ .

وهذا المعنَى لا يحتاجُ إلى مثلِ هذا التَّكريرِ .

أمّا البيْتُ الأوّلُ فيُحْمَل على الجائزِ من التَّكريرِ ، لأنّه مقامُ تشوُّقٍ وتحزُّنٍ ومَوْجِدَةٍ بِفِرَاقِ نَجْدٍ . ولما كان كذلك أُجيزَ فيه التَّكريرُ ، على أنّهُ قد كانَ يُمْكِنُه أن يصوغَ هذَا المعنَى الوارد فى البَيْتَيْنِ معاً مِنْ غيرِ أن يَأْتى بهذا التَّكْريرِ المُتتابِع سِتَّ مَرّاتٍ .

وعلى هَذَا الأُسْلُوبِ وردَ قولُ أبى نُوَاسٍ[1] :

أَقَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيومًا وَثالثًا وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التّرحُّلِ خَامِسُ[2]

ومُرادُه منْ ذلِكَ أنهُمْ أقامُوا بها أَرْبعةَ أيّام ، ويا عَجَبًا له يَأْتى بمثلِ هذا البيتِ السَّخيف الدَّالِّ على العِيِّ الفَاحِش فى ضِمْنِ تلكَ الأبياتِ العَجيبةِ الحُسْنِ التى تقدَّم ذكرها فى بابِ الإيجازِ[3] ، وهى :

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَدلَجوا ... ...

وَمِنْ هـذا البَابِ أيْضاً مَا أَوْرَدْنَاهُ فى صَدْرِ هذا النَّوعِ ، وهو قولُ أبى الطَّيِّب :

---

(١) ديوان أبى نواس (٢٩٥) من جملة أبيات من خمرياته أولها .

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس

(٢) رواية الديوان فى هذا البيت :

أقمنا بها يوماً ويومين بعده ويوماً له يوم الترحل خامس

(٣) راجع صفحة (٣٤٦) من القسم الثانى من هذه الطبعة .

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ جيرَانِى وَمِثْلِى ... لِمِثْلِى عِنْدَ مِثْلِهِمُ مُقَامُ(١)

فهذا هو التكْريرُ الفاحِشُ الذى يُؤَثِّرُ فى الكلامِ نقصاً.

ألاَ ترى أنه يقول: لم أرَ مِثلَ جيرانى فى سوء الجوار، ولاَ مِثْلى فى مُصابرَتهم ومُقامى عِنْدَهُم، إلاَّ أنه قد كرَّر هذا المعنَى فى البَيْتِ مرَّتينِ.

وعلى نحوٍ منْ ذلك جاء قولُه أيضاً:

وَقَلْقلتُ بالْهَمِّ الذى قَلْقلَ الْحشا ... قلاَقِلَ عِيس كُلُّهُنَّ قلاقِلُ

* * *

(التكْرير فى المعنى دون اللفظ)

وَأما القسمُ الثانى من التكْرير، وَهو الذى يوجَد فى المعنى دونَ اللفظِ.

فذلكَ ضربَان: مُفيدٌ وَغيرُ مُفيدٍ.

الضرب الأول: المفيد

وَهو نوعان:

الأول إذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنيين مختلفين:

وَهو موضعٌ من التكْرير مشكل، لأنه يَسْبقُ إلى الوهم أنه تكْريرٌ يدلُّ على معنًى واحدٍ.

فمِمَّا جاء مِنه حديثُ حَاطِبِ بْن أبى بَلْتعة(٢) فى غزْوَةِ الْفتْح، وَذاكَ

---

(١) من قصيدته التى أولها:

فؤاد ما تسليه المدام ... وعمر مثل ما تهب اللئام

وقد سبق فى صفحة (٣) من هذا القسم الثالث.

(٢) هو حاطب بن أبى بلتعة اللخمى، حليف قريش، ويقال إنه من مذحج وقيل هو حليف الزبير بن العوام. شهد بدر والحديبية، ومات سنة ثلاثين بالمدينة، وهو ابن خمس وستين سنة، وصلى عليه عثمان، وقد شهد الله لحاطب بالإيمان فى قوله تعالى «يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ...». وانظر الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر ١/٣١٢.

أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم أمَرَ عليَّ بن أبي طالب وَالزُّبير[١] والمقداد[٢] — رَضِيَ اللهُ عنهمْ — فقال : « اذهَبوا إلى رَوْضةِ خاخ[٣] ، فإنَّ بها ظعينةً معها كِتابٌ ، فأتُونى به » قال عليٌّ رضىَ اللهُ عنه : فخرَجْنا تتعادَى بنا خيلُنا ، حتى أتينا الرَّوْضة ، وإذا فيها الظَّعِينةُ ، فأخذْنا الكِتابَ من عِقاصِها[٤] ، وأتينا بهِ رَسُولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم ، وإذا هُوَ مِنْ حاطِبِ بْن أبى بَلْتَعَة إلى ناس مِنَ المشركين بمكّةَ يُخبرُهُمْ ببعض شأنِ رسُول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له : ما هذا يا حاطِب ؟ فقال : « يا رسُول اللهِ لا تَعْجَلْ علىَّ ، إنى كنتُ امرا مُلْصقاً فى قُرَيْشٍ ، ولم أكُنْ من أنفُسِهمْ ، وكانَ منْ معكَ من المهاجرينَ لهم قرَابةٌ يحْمُونَ بها أمْوَالهُمْ وأهْلِيهُمْ بمكّة ، فأحْبَبْتُ إذ فاتنى ذلكَ من النّسَبِ أن أتخِذ عندهُم يَداً يحْمُونَ بها قرابتى ، وَمَا فعلْتُ ذلكَ كُفْرًا ولا ارْتداداً عَنْ دينى ، ولا رِضاً بالكُفرِ بعدَ الإسْلام » . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنه قدْ صَدَقكُمْ » .

---

(١) هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشى ، أمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أسلم الزبير وهو ابن خمس عشرة سنة ، ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ، وهو من العشرة المبشرين بالجنة ، ومن الستة الذين هم أهل الشورى ، ومات مقتولا فى فتنة الجمل يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى سنة ست وثلاثين .

(٢) هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة البهراوى ، من بهراء من قضاعة ، وقيل هو كندى من كندة ، شهد بدراً والمشاهد كلها ، وكان من الفضلاء النجباء الكبار الخيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد فتح مصر ، ودفن فى أرضه بالجرف ، فحمل إلى المدينة ، ودفن بها ، وصلى عليه عثمان بن عفان سنة ثلاث وثلاثين .

(٣) خاخ : موضع بين الحرمين ، به روضة خاخ ، بقرب حمراء الأسد من المدينة ، قال الأحوص .

ليست لياليك من خاخ بعائدة كما عهدت ولا أيام ذى سلم

(٤) العقيصة : الضفيرة ، وعقص الشعر ضفره على الرأس .

فقولُه « ما فعلتُ ذلكَ كُفراً ، ولا ارتداداً عن دينى ، ولا رِضاً بالكُفر بعدَ الإسلام » من التَّكريرِ الحسَنِ .

وبعضُ الجُهّالِ يظنُّه تكريراً لا فائدةَ فيه ، فإن الكُفرَ والارتدادَ عن الدِّين سَواء ، وكذلك الرِّضا بالكُفرِ بعدَ الإسلامِ ، وليس كذلك . والذِى يدلّ عليه اللفظ هوَ أنِّى لم أفعلْ ذلك وأنا كافرٌ ، أى : باقٍ على الكُفر ، ولا مُرْتدًّا ، أى : أنى كفرتُ بعدَ إسْلامى ، ولا رِضاً بالكُفر بعد الإسلام ، أى : ولا إيثاراً لجانبِ الكُفار على جانِبِ المسلمين . وهذا حسنٌ فى مكانه ، واقع فى مَوْقِعِهِ .

وقد يُحمل التكريرُ فيهِ على غَيْرِ هذا الفرْعِ الذى نحنُ بصددِ ذكره هاهُنا ، وهوَ الذى يكونُ التكرير فيه يدلُّ على معنى واحد ، وسيأتى بيانهُ فى الفرعِ الثانى الذى يلى هذا الفرع الأوّل .

والذى يجوِّزُه أن هذا المقامَ هو مقامُ اعتذارٍ وتنصُّلٍ عمَّا رُمِىَ به من تلكَ القارعةِ العظيمةِ التى هِىَ نِفَاقٌ وكُفرٌ ، فكرَّرَ المعنى فى اعتذارهِ قصداً للتأكيدِ والتّقرير لِما يَنفى عنه ما رُمِىَ به .

وممَّا ينتظمُ بهذا السِّلك أنّهُ إذا كانَ التكريرُ فِى المعنَى يدلُّ على معنيَيْن : أحدُهما خاصٌّ ، والآخرُ عامٌّ كقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾(١) .

فإنَّ الأمرَ بالمعروفِ خيرٌ ، وليسَ كلُّ خيرٍ أمْرًا بالمعرُوف ، وذاكَ أنَّ الْخَيْرَ أنواعٌ كثيرةٌ منْ جُملتها الأمرُ بالمعرُوفِ .

---

(١) سورة آل عمران . الآية ١٠٤

فائدةُ التكرير هاهُنا أنه ذكرَ الخاصَّ بعدَ العامِّ للتنبيه على فضلِه ، كقوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾[1] .

وكقوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾[2] .

وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴾[3] .

فإنَّ الجبالَ داخلةٌ في جُملةِ الأرضِ ، لكنَّ لفظَ الأرضِ عامٌّ ، والجبال خاصٌّ . وفائدتُه هاهُنا تعظيمُ شأنِ الأمانةِ المشارِ إليها وتفخيمُ أمرِها .

وقدْ وردَ هذا في القرآنِ الكريمِ كثيرًا .

ومما وَرَدَ منْهُ شعرًا قول [المقنع الكِنْدِيّ[4]] من أبيات الحماسة[5] :

وَإِنَّ الذى بَيْنِى وَبَيْنَ بَنِى أَبِى　　وَبَيْنَ بَنِى عَمِّى لَمُخْتَلِفٌ جِدًّا

إذا أَكَلُوا لَحْمِى وفرْتُ لُحُومَهمْ　　وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِى بَنَيْتُ لهم مَجْدًا[6]

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٣٨

(٢) سورة الرحمن . الآية ٦٨

(٣) سورة الأحزاب . الآية ٧٢

(٤) بياض فى الأصل موضع اسم الشاعر ، وهو محمد بن ظفر بن عمير ينتهى نسبه إلى كندة بن عفير ، وإنما لقب بالمقنع لأنه كان أجمل الناس وجهاً ، وكان إذا حسر اللثام عن وجهه أصابته العين ويلحقه عنت ومشقة ، فكان لايمشى إلا مقنعا ، هكذا ذكر التبريزى . وهو شاعر مقل من شعراء الإسلام فى عهد بنى أمية ، وكان له محل وشرف ومروءة فى عشيرته ، وكان متخرقا فى عطاياه ، سمح اليد بماله ، لايرد سائلا عن شىء سأله إياه .

(٥) ديوان الحماسة ٢/٣٣ من جملة أبيات أولها .

يعاتبنى فى الدين قومى وإنما　　ديونى فى أشياء تكسبهم حمدا

وانظر أمالى القالى ١/٢٨٠ وفيها ثلاثة أبيات ليست فى رواية أبى تمام .

(٦) رواية الحماسة « فإن أكلوا . . » ورواية الأمالى « فإن يأكلوا . . »

وَإنْ ضَيَّعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيوبَهُمْ   وَإنْ هُمْ هَوُوا غَيِّي هَوِيتُ لهم رُشْدا

فهذا منَ الخاصِّ والعامِّ ، فإنَّ كلَّ لحمِ يؤكل للإنسانِ فهو تضييعٌ لغَيْبِه ، وليس كلُّ تضييعٍ لغَيْبِه أكلاً لِلحْمِه .

ألا ترى أن أكلَ اللحم هُوَ كنايةٌ عنْ الاغْتِيَاب ؟ وأمَّا تضييعُ الغيبِ ، فمِنْهُ الاغتيابِ ، ومنه التخلِّي عن النُّصْرةِ والإعانة ، ومِنْهُ إهْمالُ السَّعى فى كلِّ ما يعود بالنفعِ كائناً ما كان .

وعلى هذا فإنَّ هذين البيْتين من الخاصِّ والعامِّ المُشار إليهِ فى الآيةِ المقدَّمِ ذِكْرُها ، وهُوَ موضعٌ يَرد فى الكلامِ البليغ ، ويُظنُّ أنهُ لا فائدَةَ فيهِ .

* * *

الفرع الثانى : اذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنى واحد لاغير

وقد سبقَ مثالُ ذلكَ فى أوّل هذا البابِ ، كقولك : « أطِعْنى وَلا تَعصنى » فإنَّ الأمرَ بالطاعةِ نَهىٌ عن المعصيةِ ، والفائدةُ فى ذلكَ تثبيتُ الطاعةِ فى نَفْس المخاطب .

والكلامُ فى هذا الموضعِ كالكلامِ فى الموضعِ الذى قبله من تكرير اللفظِ والمعنَى إذا كان الغرضُ بهِ شيئاً واحداً ، ولا نجدُ شيئاً من ذلكَ يأتى فى الكلامِ إلا لتأكيدِ الغرض المقصُودِ به ، كقولهِ تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الذين آمَنُوا إنَّ مِنْ أزْوَاجكُمْ وَأوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذرُوهمْ ، وَإنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فإنَّ اللهَ غفُورٌ رَحِيم ﴾(١) .

---

(١) سورة التغابن . الآية ١٤

فإنه إنما كرّر العفوَ والصّفحَ والمغفرة — والجميعُ بمعنًى واحدٍ — للزِّيادة فى تحسين عفو الوالدِ عن ولدِه، والزّوج عَنْ زَوْجَتِه.

وهذا وأمثالُه يُنْظر فى الغرض المقصودِ بهِ، وهو موضعٌ يكونُ التكرير فيهِ أوْجَزَ من لمحةِ الإيجازِ، وأولى بالاستعمالِ. وقد ورد فى القرآنِ كثيراً كقوله تعالى فى سُورةِ يُوسُفَ عليه السّلام:

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِن اللهِ مَالا تعلمُون ﴾(١).

فإنّ البثّ والحزنَ بمعنى واحد، وإنما كرّره هاهُنَا لشدّةِ الخطْبِ النازل به، وتكاثُر سهامه النّافذةِ فى قلْبه، وهذا المعنى كالذى قبله.

وكذلكَ وردَ قولُه تعالى: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾(٢) بعدَ ثلاثةٍ وَسبعةٍ تنوبُ منابَ قوله ثلاثةٌ وسَبْعةٌ مرّتين، لأنّ «عشرة» هى ثلاثة وسَبْعة، ثم قالَ «كاملة»، وذلكَ توكيدٌ ثالثٌ، والمرُادُ بهِ إيجابُ صَوْمِ الأيّامِ السّبعة عند الرُّجوعِ فى الطّريق على الفَوْر، لا عندَ الوُصُول إلى البَلد، كما ذهبَ إليه بعضُ الفُقهاء.

وبيانُه أنى أقول: إذا صدَر الأمرُ من الآمر على المأمور بلفظِ التّكرير مُجرّداً من قرينةٍ تُخْرجُه عَنْ وَصْفِهِ، ولم يكُنْ موقّتاً بوقتٍ معيّنٍ، كان ذلكَ حثا لهُ على المبَادَرَةِ إلى امتثالِ الأمرِ على الفور، فإنكَ إذا قلتَ لمن تأمُره بالقيام: «قُمْ قُمْ قُمْ»، فإنما تريدُ بهذا اللّفظِ المكرّرِ أن يبادر إلى القِيام فى تلكَ الحالِ الحاضِرَة.

---

(١) سورة يوسف. الآية ٨٦

(٢) سورة البقرة. الآية ١٩٦ وقبل هذه الجملة «فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم».

فإنْ قلتَ : الغرضُ بتكرير الأمرِ أن يتكرّر فى نفس المأمور أنّهُ مُرادٌ منه ، وليسَ الغرضُ الحثّ على المبادَرةِ إلى امتثال الأمر ؟

قلتُ فى الجواب : إنّ المرّةَ الوَاحِدةَ كافية فى معرفة المأمور أن الذى أُمِرَ بهِ مُرَادٌ منه ، والزيادةُ على المرّة الواحدة لا تخلو إما أنْ تكون دالةً على ما دلَّتْ عليه المرةُ الواحدةُ ، أوْ دالةً على زيادة معنًى لم تكُنْ فى المرّةِ الواحِدَة .

فإنْ كَانتْ دالةً عليه المرةُ الواحدةُ كَان ذلِكَ تطويلا فى الكلام ، لا حَاجَةَ إليه .

وقد وَرَدَ مِثْلُه فِى القُرْآنِ الكريم ، كهذه الآيةِ المشَار إليها وغيْرِها من الآيات ، والتطويلُ فى الكلامِ عيبٌ فاحِشٌ عند البلغاء والفُصَحاء ، والقرآنُ معجزٌ ببلاغتِهِ وفصاحته ، فكيفَ يكونُ فيه تطويلٌ لا حاجَة إليه ؟ فينْبغى أنْ تكُونَ تلكَ الزيادةُ دالةً عَلَى معنًى زائدٍ عَلَى ما دلَّتْ عليه المرّة الواحِدَة . وإذا ثبَتَ هذا فتلكَ الزِّيادة هى الحثُّ عَلَى المبادرة إلى امتثالِ الأَمْر .

فإنْ سَلّمْتَ لِى ذلك ، وإلاّ فبيِّنْ معنى تلكَ الزيادَةِ ببيانٍ غير ما ذكرْتُه أنا ، ولا أرَاكَ تستطيع ذلك ! فإنْ قلتَ : إن الواوَ فى قوله تعالى « وَسَبْعةٍ إذا رَجَعْتُمْ » لوْلا أنْ تُؤكد بقوْله : « تِلْكَ عَشَرَةٌ » لظُنَّ أنها وردتْ بمعنى « أوْ » أىْ : فثلاثةُ أيَّامٍ فى الحجِّ أوْ سبعةٍ إذا رَجَعْتُمْ ، فلمّا قيل « تلكَ عَشَرَة » زالَ هذا الظنُّ ، وتحققتِ الوَاوُ أنها عاطِفةٌ ، وليستْ بمعنى « أوْ » .

قلتُ فى الجوابِ : هذا باطلٌ منْ أرْبَعةِ أوْجُه :

الوجهُ الأوّل : أن الواو العاطفه لا تُجْعل بمعنى « أو » أيْنَ وَرَدَتْ مِنَ

الكلامِ ، وإنّما تُجعل بمعنى « أوْ » حالَ ضرُورةِ ترجيحِ جانبها على جانبِ جعْلها عاطفة ، لانّ الأصْلَ منها أن تكونَ عاطفةً ، فإذا عُدِل بها عن أصْلها احتاجَ إلى ترْجيح ، ولا ترجيحَ هَا هُنا .

الوجهُ الثانى : بلاغىٌّ ، وذاكَ أنَّ القرآن الكريمَ مُنْتهَى البَلاغةِ والفصاحةِ لمكانِ إعْجازِه ، فلو كَان معنَى الوَاوِ فى هذه الآيةِ بمعنَى « أوْ » لقيل : فثلاثةُ أيامٍ فى الحجِّ وسبعةٌ إذا رَجَعتُمْ ، ولم يُحتَجْ إلى هذا التّطويل فى قوله : فثلاثة أيامٍ فى الحجِّ وسبعة إذا رَجَعتُم تِلْكَ عَشَرةٌ كَامِلةٌ .

الوجْهُ الثالث : أنّ هذا الصَّوْمَ حُكْمٌ من أحكامِ العبادَاتِ ، والعباداتُ يجبُ فيها الاحْتياطُ ، وأنْ تُؤدَّى على أكمل صُورَةٍ ، لِئلّا يدخُلها النقْص ، وإذا كَانَ الأمرُ على ذلكَ فكيفَ يُظنُّ أنّ الواوَ فى هذه الآية بمعنى « أوْ » ؟

الوجْهُ الرابع : أنّ السبعةَ ليستْ مماثلةً للثلاثةِ حتى تُجْعل فى قُبالتِها ، لأنّ معنى الآيةِ إذا كانتِ الواوُ فيها بمعنى « أوْ » إمّا أنْ تَصُوموا ثلاثةَ أيامٍ فى الحجِّ أوْ سبعةً إذا رَجَعتُمْ .

فإنْ قلتَ : هذا تعبُّدٌ لا يُعقل معناهُ كغيرهِ مِنَ التعبُّداتِ التى لا يُعقلُ مَعناها ؟ قلتُ فى الجوابِ : إنّ لنا من التّعبُّداتِ ما لا يُعقل معناه ، كعددِ رَكَعاتِ الصّلوَاتِ ، وعَددِ الطّوافِ والسّعى ، وأشْباهِ ذلك ، ولنا ما يُعقلُ معناه كهذهِ الآيةِ ، فإنا نعقلُ التفاوُتَ بَيْنَ الصّومِ فى الحَضَر والسّفر ، ونعقل التفاوُتَ بين العددِ الكثير والعدد القليل .

وعلى هَذا فلا يخلُو إمّا أنْ يكونَ صومُ الأيامِ السّبْعة عند الرُّجوع فى

الطريق أو عندَ الوُصُولِ إلى البلد ، فإنْ كانَ فى الطريقِ فإنه أشَقُّ مِن الصَوْمِ بمكةَ ، لأنّ الصومَ فى السّفر أشَقُّ مِنَ الصومِ فى الحَضر ، فكيفَ يُجعل صومُ سبعةِ أيامٍ فى السّفر فى مُقَابلةِ صومِ ثلاثةِ أيامٍ بمكة ؟ وإنْ كانَ الصومُ عندَ الوُصُولِ إلى البَلد فلا فرْقَ بين الصّومِ بمكةَ والصّومِ عِنْدَ الوُصُولِ إلى البَلد ، لأنّ كِلَيهما صَوْمٌ فِى المُقام ببلدٍ من البلادِ ، لا تفاوُتَ بَيْنَهما حتى يُجعلَ صومُ ثلاثةِ أيامٍ فِى مُقابلةِ سَبْعةِ أيامٍ ، على غيرِ مثالٍ ولا تساوٍ .

فعلى كِلاَ التقديرَيْن لا يجوزُ أن تكُون الواوُ فى « سَبعةٍ إذا رَجَعتُم » بمعنى « أوْ » فتحققَ أنها إذاً للعطفِ خاصّة .

وإذا كانتْ للعطفِ خاصّة فتأ كيدُها بعشرةٍ كاملةٍ دليلٌ على أنّ المرادَ وجوبُ صومِ الأيامِ السّبْعة فى الطريق قبلَ الوصُولِ إلى البَلد .

فإنْ قلتَ : إنّ الصومَ بمكةَ أشقُّ من الصومِ فى الطّريق ، لأنّ الواجبَ عليهِ الصومُ بمكة فى نَصَب وتعب بتصريف زمانه فى السعى والطواف والصلاة والعمرة وغير ذلك ، قلت فى الجواب : هذا لا يلزم ، إذْ الواجب عليه سعىٌ واحد وطواف واحد ، وما عدا ذلك نافلة لا يلزم ، ونحن فى هذا المقام ناظرون إلى ما يجب لا إلى النافلة ، والذى يجب أداؤه بمكة يُفرَغُ منه فى ساعة واحدة ، فكيف تجعل الزيادة عَلَى ذلك دليلا يُورَدُ فى هذا المقام ؟ هذا غير وارد ، وهذا ورد فى قوله تعالى : ﴿ فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾[1] فقوله (غير يسير) بعد قوله (عسير) من هذا النوع المشار إليه ، وإلا فقد عُلم أن العسير لا يكُون يسيراً ، وإنما ذكرها هنا على هذا الوجه لتعظيم

---

(١) المدثر

شأن ذلك اليوم فى عسره وشدته على الكافرين .

وكذلك ورد قوله تعالى . ﴿ قد كانت لكم أُسْوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرَآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾(١) فإن البغضاء والعداوة بمعنى واحد ، وإنما حَسُنَ إيرادهما معاً فى مَعْرِضٍ واحد ، لتأكيد البراءة بين إبراهيم صلوات الله عليه والذين آمنوا به ، وبين الكُفّار من قومهم حيث لم يؤمنوا بالله وحده .

والمبالغة فى إظهار القطعية والمصادفة ورد مثل ذلك فى مثل هذا الموضع كالإيجاز فى موضعه ، ولن ترى شيئاً يرد فى القرآن الكريم من هذا القبيل إلاّ وهو لأمر اقتضاه ، وإن خفى عنك موضع السر فيه فاسأل عنه أهله العارفين .

ومما ورد منه شعراً قول بعضهم فى أبيات الحماسة(٢) :

نَزَلْتُ على آلِ المهلّب شاتياً بعيداً عن الأوطان فى زَمَنِ المَحْلِ
فما زال بى إكرامُهم وافتقادهم وإحسانهم حتى حسبتُهمُ أهلى

فإن الإكرام والافتقار داخلان تحت الإحسان ، وإنما كرر ذلك للتنويه بذكر الصنيع والإيجاب لحقه . وعلى هذا ورد قول الأعشى فى قصيدته المشهورة التى يمدح بها النبى صلى الله عليه وسلم فقال منها(٣) :

---

(١) الممتحنة ٤ .

(٢) هو بكير بن الأخنس كما فى البيان والتبين (٣/٢٣٣) على أن المقطوعة ليست منسوبة إلى أحد فى شرحى الحماسة للتبريزى والمرزوقى ولا فى عيون الأخبار (١/٣٤١) ولا فى وفيات الأعيان فى ترجمة المهلب بن أبى صفرة . وفى البيان والتبيين (فقيرا بعيد الدار بدلا من (بعيدا عن الأوطان) والبيت الثانى فى البيان .

فما زال بى إلطافهم وافتقادهم وإكرامهم حتى حسبتهم أهلى

وفى شرح الحماسة للمرزوقى « فى زمن محل » بدلا من (فى زمن المحل)

(٣) البيت من قصيدته التى مطلعها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ماعاد السليم مسهدا

وفى الديوان (ولا من حفى) شرح الديوان ١٣٥ .

فآليتُ لا أرثى لها من كَلالةٍ ولا من وَجًى حتى تلاقى محمداً

فإن الوجى والكلالة معناهما سواء ، وإنما حسن تكريره هاهنا للإشعار ببعد المسافة .

الضرب الثانى من القسم الثانى فى تكرير المعنى دون اللفظ :

وهو غير المفيد ، فمن ذلك قول أبى تمام :

قسم الزمان رُبوعها بين الصَّبا وقَبولِها ودَبورِها أثلاثا[1]

فإن الصبا هى القبول .

وليس ذلك مثل التكرير فى قوله تعالى : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾[2] فيما يرجع إلى تكرير اللفظ والمعنى ، ولا مثل التكرير فى قوله تعالى : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف﴾[3] فيما يرجع إلى تكرار المعنى دون اللفظ ، وقول أبى تمام : الصبا والقبول لا يشتمل إلا على معنى واحد لا غير .

وهذا الضرب من التكرير قد خبط فيه علماء البيان خبطاً كثيراً ، والأكثر منهم أجازه ، فقالوا : إن كانت الألفاظ متغايرة والمعنى المعبّر عنه واحداً فليس استعمال ذلك بمعيب ، وهذا القول فيه نظر ، والذى عندى

---

(١) البيت من قصيدته فى مدح مالك بن طوق ومطلعها :

قف بالطول الدارسات ء لاثا أمست حبال قطينهن رناثا

(ديوان أبى تمام ٣١٤/١) . وفى القاموس المحيط : القبول ريح الصبا لأنها تقابل الدبور أو لأنها تقابل باب الكعبة أو لأن النفس تقبلها (مادة قبل)

وفى شرح الحماسة للمرزوقى : قيل فى القبول إنها الصبا ، وقال النضر بن شميل : القبول ريح بين الصبا والجنوب .

وقال ابن الأعرابى : القبول كل ريح لينة طيبة المس تقبلها النفس ، فليس للرد على أبى تمام وجه . وقال ابن المستوفى : الصحيح أن الصبا هى القبول ، وما الذى منع أبا تمام أن يجعل موضع (قبولها) (جنوبها) فكان يسلم من التشنيع عليه (ديوان أبى تمام ٣١٥/١ وقد ذكر الخفاجى نقد البيت (سر الفصاحة ٢٢٥).وكذلك أبو هلال ذكره (الصناعتين ١٢١) .

(٢) البقرة ٣٨ (٣) آل عمران ١٠٤

فيه أن الناثر يعاب على استعماله مطلقاً إذا أتى لغير فائدة ، أما الناظم فإنه يعاب عليه فى موضع دون موضع .

أما الموضع الذى يعاب استعماله فيه فهو صدور الأبيات الشعرية وما والاها ، وأما الموضع الذى لا يعاب فيه فهو الأعجاز من الأبيات ، لمكان القافية ، وإنما جاز ذلك وإن لم يكن عيباً ، لأنه قافية ، والشاعر مضطر إليها ، والمضطر يَحِلُّ له ما حَرُمَ عليه ، كقول امرىء القيس فى قصيدته اللامية التى مطلعها :

(ألا انعَمْ صباحاً أيها الطلل البالى)

فقال :

وهل يَنْعَمَنْ إلا سعيدٌ مُخَلَّدٌ قليلُ الهموم لا يَبيت بأَوْجَال(١)

وإذا كان قليل الهموم فإنه لا يبيت بأوجال ، وهذا تكرير للمعنى ، إلا أنه ليس بعيب ، لأنه قافية .

وكذلك قال الحطيئة : —

قالت أمامةُ لا تَجزَعْ فقلت لها إن العزاء وإنّ الصبر قد غُلِبا

هلا التمستِ لنا إن كنتِ صادقةً مالا نعيش به فى الناس أو نَشَبا(٢)

فالبيت الأول معيب ، لأنه كرر العزاء والصبر ، إذ معناهما واحد ، ولم يرد

---

(١) ديوان امرىء القيس ٢٧ والمطلع فى الديوان :

(ألا عم صباحا) والبيت الثانى :

وهل يعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال

الأوجال : جمع وجل وهو الفزع .

(٢) البيتان من قصيدته فى مدح بغيض ، ومطلعها :

طافت أمامة بالركبان آونة ياحسنه من قوام ما ومنتقبا

وفى الديوان (فى الحرج) بدلا من (الناس) ديوان الحطيئة ١٢١ .

قافية ، لأن القافية هى الباء ، وأما البيت الثانى فليس بمعيب ، لأن التكرير جاء فى النشب ، وهو قافية .

وبما يجرى هذا المجرى قول المنخّل اليشكرى :

وَلقــــد دخلت على الفتا ة الخِـــدْرَ فى اليوم المطيرِ
الـكاعبِ الحســـناء ترْ فل فى الدِّمَقْسِ وفى الحرير(١)

فإن الدمقس والحرير سواء ، وقد ورد قافية فلا بأس به من أجل ذلك ، فإن قيل إن الحرير هو الابْرَيْسِم المنسوج بدليل قوله تعالى : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنةً وحريراً ﴾(٢) فإنه لم يُرد خيوط إبريسم ، وإنما أراد أثواباً من الإبريسم ، وأما الدمقس فإنه خيوط الإبريسم محلولة ، بدليل قول امرىء القيس :

وشَحْمٍ كهُدّاب الدِّمَقْسِ المُفتَّل(٣)

فإنه لم يرد إبْرَيْسَماً منسوجاً ، وإنما أراد خيوط الإبريسم ، فالجواب عن ذلك أنه لو حمل بيت المنخل على ذلك لفسد معناه ، لأن المرأة لا ترْفل فى خيوط من الإبريسم ، وإنما ترفل فى الأثواب منه ، وأما قول امرىء القيس (كهداب الدِّمَقْس) فإنه لو كان الدمقس هو الخيوط المحلولة من الإبريسم لما

---

(١) البيتان من قصيدته التى مطلعها .

إن كنت عاذلتى فسيرى نحو العراق ولا تحورى
(الأصمعيات ٥٢)

(٢) الإنسان ١٢ .
(٣) الشطر من البيت :

فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل .

والبيت من المعلقة التى مطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
(الديوان ١١)

احتاج أن يقول كهداب ، فإن الهداب جمع هُدْب ، ثم قال (المُتَّل) ، فدله بذلك على أن الدمقس يطلق على الإبريسم سواء كان منسوجاً أو غير منسوج ، وكذلك الحرير أيضاً ، وعند الاستعمال يفهم المراد منه بالقرينة ، ألا ترى أنه لمّا قال المنخل (ترفل فى الدمقس وفى الحرير) فُهِمَ من ذلك أنه أراد أثواباً من الدمقس ومن الحرير ، لأن الرفول لا يكون فى خيوط من الإبريسم ، وإنما يكون فى أثوابه .

ومما يجرى على هذا المنهج قول الآخر من شعراء الحماسة(١) :

إنى وإن كان ابن عَمِّىَ غائباً لمُقاذِفٌ من خَلْفِـــه ووراثه

فإن خلفا ووراء بمعنى واحد ، وإنما جاز تكرارها لأنهما قافية ، وعلى هذا ورد قول أبى تمام .

دِمَنٌ كأن البَيْنَ أصبح طالباً دمَنًا لدى آثارِنا وحُقُـــودا(٢)

فإن الدمنة هى الحقد . وكذلك قول أبى الطيب المتنبى :

بَحْرٌ تعَوّد أن يُذِمّ لأهـــله مِنْ دهره وطوارق الحَدَثان

(١) هو الهذيل بن مشجعة البولانى . المعنى أنه يقاتل دونه إذا كان هو هاديا له ، وقد تخلف عنه ابن عمه ، ويقاتل وراءه إذا تقدمه ابن عمه ، فقوله (من ورائه) من البين الظاهر أنه بمعنى القدام (شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٤/١٦٨٠)

(٢) البيت من قصيدته فى مدح خالد بن يزيد الشيبانى ومطلعها :

طلل الجميع لقـد عفوت حميداً وكفى على رزئى بذاك شهيدا

وفى الديوان (لدى آرامها) بدلا من (لدى آثارنا)

الدمن الأول جمع دمنة وهى آثار القوم فى الديار ، ثم يسمى المنزل دمنة لأن الدمنة فيه . والدمن الثانى جمع دمنـة ، وهى الحقد وبقيته فى القلب ، وعنى بالآرام النساء شبهها بالظباء البيض ، يقول إن الفراق طلب عند ظباء هذه الدمن آثارا (ديوان أبى تمام ٢/٤١١) .

فتركتَهُ وإذا أَذَمّ من الورَى   راعاك واستثنى بنى حمـــدان[1]

فإن الدهر وطوارق الحدثان سواء ، وإنما جاز استعمال ذلك لأنه قافية .

وأما ما ورد فى أثناء الأبيات الشعرية فكقول عنترة :

حُيِّيت من طللٍ تقادم عَهْدُه   أَقْوَى وأَقفَرَ بعد أُمِّ الهيثم[2]

فقوله أقوى وأقفر من المعيب ، لأنهما لفظان وردا بمعنى واحد لغير ضرورة ؛ إذ الضرورة لا تكون إلا فى القافية كما أريتك .

وأما ما ورد من صدور الأبيات فكقول البحترى :

أَلَمَّتْ وهل إلمامُها بك نافعٌ   وزَارَتْ خَيالا والعيونُ هَوَاجِعُ[3]

فإن قول (ألمت) وقوله (زارت خيالا) سواء ، فلا فرق إذاً بين صدر البيت وعجزه ، فإن قيل إنه أراد بالإلمام زيارة اليقظة ، ثم قال (وزارت خيالا) فالجواب عن ذلك أنه لم يرد إلا زيارة المنام فى الحالتين ، لأنه قال : (ألمت وهل

---

(١) البيتان من قصيدته فى مدح سيف الدولة عند انصرافه من بلد الروم سنة ٣٤٥ ، وأنشده إياها بآمد ، ومطلعها :

الرأى قبـل شجاعة الشجعان   هو أول وهى المحل الثانى

(شرح ديوان المتنبى ٣/٣٩٥) .

بحر هنا خبر لمبتدأ محذوف ، أى النهر الذى عبره سيف الدولة بحر . يذم لأهله : يجيرهم . الحدثان : نوائب الدهر . بنو حمدان : عشيرة سيف الدولة ، أى أن هذا النهر الذى عبره سيف الدولة بحر تعود أن يجير أصحابه من حوادث الدهر بأن يمنع العدو من العبور اليهم ، لكن لما عبرته أنت تركته يجير أهله من كل أحد إلا من بنى حمدان ، يعنى أن غيرك لا يقدر على عبوره .

(٢) من معلقته التى مطلعها :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم؟

(٣) من قصيدته فى مدح الفتح بن خاقان ، (الديوان ٢/٧٦) وفى الديوان لك نافع .

إلمامها بك نافع) ولو كان فى اليقظة لما قال وهل إلمامها بك نافع ، فإنه لا نفع أنفع من زيارة المحبوب فى اليقظة ، وهذا غير خاف لا يحتاج إلى السؤال عنه .

فإن قيل لم أجزت ذلك للناظم وحظرته على الناثر ؟

قلت فى الجواب : أما الناثر فإنه إذا سجع كلامه فالغالب أن يأتى به مزدوجا على فقرتين من الفقر ، ويمكنه إبدال تلك الفقرتين بغيرها ، فيسلم منه ، وأما الشاعر فإنه يصوغ قصيداً ذا أبيات متعددة على قافية من القوافى ، فإذا تكرر لديه شىء من الكلام فى آخر بيت من الأبيات عسر إبداله من أجل القافية ، وهذا غير خاف والسؤال عنه غير وارد .

وهذا الذى ذكرته إذا ورد فى غير القافية سمى إخلاء ، ويقال إن البحترى كان يُخلى كثيراً فى شعره ، وهو لعمرى كذلك ، إلا أن حسن سبكه ، ورونق ديباجته يغفر له ذلك . ويروى عنه أنه كان إذا مَثَلَ بين يدى الفتح بن خاقان وزير المتوكل مادحاً له اختال بين يديه معجباً بنفسه ، فتقدم خطوات ، ثم تأخر ، وقال أى شىء تسمعون ؟ فنقم عليه ذلك بعض حسدته ، وحمل الفتح بن خاقان عليه ، فقال له الفتح :لو رمانا بالحجارة لكان ذلك مغفوراً له فيما يقوله .

النوع الثامن عشر

فى الاعتراض

وبعضهم يسميه الحشو ، وحدُّه كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو سقط لبقى الأول على حاله .

مثال ذلك أن تقول زيد قائم ، فهذا كلام مفيد وهو مبتدأ وخبر ، فإذا أدخلنا فيه لفظاً مفرداً قلنا زيد والله قائم ، ولو أزلنا القسم منه بقى على حاله ، وإذا أدخلنا فى هذا الكلام لفظاً مركباً قلنا : زيد على ما به من المرض

قائم ، فأدخلنا بين المبتدأ والخبر لفظاً مركباً وهو قولنا على ما به من المرض ، فهذا هو الاعتراض ، وهذا حدّه .

واعلم أن الجائز منه وغير الجائز يؤخذ من كتب العربية ، فإنه يكون مُستَقصًى فيها ، كالاعتراض بين القسم وجوابه ، وبين الصفة والموصوف ، وبين المعطوف والمعطوف عليه ، وأشباه ذلك مما يحسن استعماله ، وكالاعتراض بين المضاف والمضاف إليه ، وبين إن وإسمها ، وبين الجار والمجرور ، وأمثال ذلك مما يقبح استعماله ، وليس هذا مكانه ، لأن كتابنا هذا موضوع لمن استكمل معرفة ذلك وغيره مما أشرنا إليه فى صدر الكتاب .

وليس المراد ها هنا من الاعتراض إلا ما يُفرّق به بين الجيد والردىء ، لا ما يُعْلَم به الجائز وغير الجائز ، لأن كتابى هذا موضوع لذكر ما يتضمنه الكلام على اختلاف أنواعه من وَصْفَىِ البلاغة والفصاحة ، فالذى أذكره فى باب الاعتراض إنما هو ما اشتمل على شىء من هذين الوصفين المشار إليهما .

[قسما الاعتراض]

واعلم أن الاعتراض ينقسم الى قسمين :

أحدهما لا يأتى فى الكلام إلا لفائدة ، وهو جارٍ مجرَى التوكيد .

والآخر أن يأتى فى الكلام لغير فائدة ، فإما أن يكون دخوله فيه كخروجه منه ، وإما أن يؤثر فى تأليفه نقصاً وفى معناه فساداً .

[القسم الأول]

وهو الذى يأتى فى الكلام لفائدة كقوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم — وإنه لقسمٌ لو تعلمونَ عظيم — إنه لقرآن كريم[1] ﴾ ، وذلك اعتراض بين القسم

---

(١) الواقعة ٧٥ — ٧٦ .

الذى هو فلا أقسم بمواقع النجوم ، و بين جوابه الذى هو { إنه لقرآنٌ كريم }
وفى نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذى هو قسم و بين
صفته التى هى عظيم ، وهو قوله { تعلمون } فذانك اعتراضان كما ترى .

وفائدة هذا الاعتراض بين القسم وجوابه إنما هى تعظيم شأن المقسم به فى نفس
السامع ، ألا ترى إلى قوله تعالى { لو تعلمون } اعتراضاً بين الصفة والموصوف ،
وذلك الأمر بحيث لو عُلِم وُفِّى حقه من التعظيم .

وهذا مثل قولنا : إن هذا الأمر لعظيم ، بحيث لو تعلم يا فلان عِظَمَهُ لقدرته
حق قدره . فإن ذلك يكبره فى نفس المخاطب ، ويظل مُتطلعاً إلى معرفة عِظَمه .
وكذلك ورد قوله تعالى { ويجعلون لله البنات ـ سبحانه ـ ولهم ما يشتهون }[1] .

وتقديره ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون ، فاعترض بين المفعولين بسبحانه ،
وهو مصدر يدل على التنزيه ، فكأنه قال ويجعلون لله البنات وهو منزه عن
ذلك ، ولهم ما يشتهون ، وفائدة هذا هاهنا ظاهرة .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام { قالوا نفقد صُواعَ الملك
وَلِمَنْ جاء به حِمْلُ بعير وأنا به زعيم قالوا تالله ـ لقد علمتم ـ ما جئنا لنُفْسِدَ فى الأرض
وما كنا سارقين }[2] فقوله (لقد علمتم) اعتراض بين القسم وجوابه ، وفائدته
تقرير إثبات البراءة من الفساد ، والنزاهة من تهمة السرقة ، أى أنه قد علمتم هذا
منا ، ونحن مع علمكم به نقسم بالله على صدقه .

وقد ورد الاعتراض فى القرآن كثيراً ، وذلك فى كل موضوع يتعلق بنوع من
خصوصيته المبالغة فى المعنى المقصود .

ومن هذا القسم قوله تعالى { وإذا بَدَّلْنا آيةً مكان آية ـ والله أعلمُ بما يُنزِّلُ ـ

---

(١) النحل ٥٧ . (٢) يوسف ٧٢ .
(٣) النحل ١٠١

قالوا إنما أنت مُفترٍ بل أكثرُهم لايعلمون ﴾(٣) فهذا الاعتراض بَيْنَ إذا وجوابها ، لأن تقدير الكلام وإذا بدلنا آية مكان آية قالوا إنما أنت مفتر ، فاعترض بينهما بقوله تعالى ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ وهو مبتدأ وخبره ، وفائدته إعلام القائلين أنه مفترٍ أن ذلك من الله وليس منه ، وأنه أعلم بذلك منهم .

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ووَصينا الإنسان بوالديه ـ حملته أمه وَهناً على وَهْنٍ ـ وفِصاله فى عامَيْن أن اشْكُر لى ولوالديك ﴾(١)

ألا ترى إلى هذا الاعتراض الذى قد طَبق بَمفْصِل البلاغة ؟ وفائدته أنه لما أوصى بالوالدين ذَكَرَ ما تكابده الأم من المشاق فى حمل الولد وفِصاله، إيجاباً للتوصية بها وتذكيراً بحقها، وإنما خصها بالذكر دون الأب ، لأنها تتكلف من أمر الولد مالا يتكلفه ، ومن ثَمَّ قول النبى صلى الله عليه وسلم لمن قال له من أَبَرُّ ؟ قال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك .

ومما جاء على هذا الأسلوب قوله عز وجل ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادَّارأْتُم فيها ـ والله مُخْرِجٌ ما كنتم تكتمون ـ فقلنا اضربوه ببعضها، كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾(٢) .

فقوله ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ، وفائدته أن يقرر فى نفوس المخاطبين وقلوب السامعين أن تدارؤ بنى إسرائيل فى قتل تلك النفس لم يكن نافعاً لهم فى إخفائه وكتمانه ، لأن الله تعالى مُظهِرٌ لذلك، ولو جاء الكلام غير معترض فيه لكان : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، فقلنا اضربوه ببعضها . ولا يخفى على البليغ الفرق بين ذلك وبين كونه معترضاً فيه .

ومما ورد من ذلك شعراً قول امرىء القيس .

ولو أنَّ ما أسْعَى لأَدْنَى معيشةٍ   كفانى ـ ولم أطْلُبْ ـ قليلٌ من المال

---

(١) لقمان ١٤ .   (٢) البقرة ٧٢ .

ولكنما أسْعَى لمجْدٍ مُؤَثَّلٍ وقد يُدْرِكُ المجدَ المؤَثَّلَ أمثالى[1]

تقديره كفانى قليل من المال ، فاعترض بين الفعل والفاعل بقوله (ولم أطلب) وفائدته تحقير المعيشة ، وأنها تحصل بغير طلب وعناء ، وإنما الذى يحتاج إلى الطلب هو المجد المؤثل .

وكذلك قول جرير :

ولقد أرانى ـ والجديدُ إلى بِلًى ـ فى مَوْكِبٍ طُرُفِ الحديث ِكرام[2]

تقديره فى موكب طرف الحديث ، فاعترض بين المفعولين ، وإنما جاء بهذا الاعتراض تعزياً عما مضى من اللذة وذلك النعيم الذى فاز به من عشرة أولئك الأحباب ، (فكأنه قال)[3] : ولقد أعهدنى فى كذا وكذا من اللذة ، وذلك قد مضى وسلف وبلى جديده ، وكذلك كل جديد فإنه إلى بِلًى .

والاعتراض إذا كان هكذا كسا الحديث لطفاً إن كان غزلا ، وكساه أبهة وجلالا إن كان مديحاً . أما ما يجرى مجراه من أساليب الكلام ، وإن كان هجاء كساه تأكيداً وإثباتاً كقول كثير عزة :

لو ان الباخلينَ ـ وأنت منهم ـ رأوك تعلموا مِنك المِطالا[4]

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

(الديوان ٣٩) للمؤثل الذى يثمر ويفيد ، وهو أيضاً الكثير .

(٢) من قصيدته فى الرد على الفرزدق ، ومطلعها :

سرت الهموم فبتن غير نيام وأخو الهموم يروم كل مرام

والبيت فى الديوان هكذا :

ولقد أرانى والجديد الى بلى فى فتية طرف الحديث كرام

(الديوان ٥٥١) .

(٣) ما بين قوسين زيادة رأينا أنها توضح المراد .

(٤) ديوان كثير ١/ ١٥١ .

فقوله وأنت منهم من محمود الاعتراض ونادره ، وفائدته هاهنا التصريح بما هو المراد ، وتقدير هذا الكلام قبل الاعتراض : لو أن الباخلين رأوك ، فاعترض بين اسم أن وهو الباخلين ، و بين خبرها وهو رأوك بالمبتدأ، أو الخبر الذى هو « وأنت منهم » .

ومن محاسن ما جاء فى هذا الباب قول سَوّار بن المضرّب السعدى :

فلو سألَتْ سراةَ الحىِّ سَلْمَى   على أنْ قد تَلَوّن بى زمانى
لخبَّرها ذوو أحساب قومى   وأعدائى فكلٌّ قد بَلَانى (١)

وهذا اعتراض بين لو وجوابها ، وهو من فائق الاعتراض ونادره ، وتقديره فلو سألت سراة الحى سلمى لخبرها ذوو أحساب قومى وأعدائى ، وفائدة « على أن قد تلون بى زمانى » أى أنهم يخبرون عنى على تلوّن الزمان ، يريد تنقل حالاته من خير وشر ، وليس من عَجَمَهُ الزمان وأبان عن جوهره كغيره ممن لم يعجمه ولا أبان عنه .

ومن ذلك قول أبى تمام :

وإن الغِنَى لى إن لَحَظْتَ مطالبى   من الشِّعْرِ إلا فى مديحك أطوَعُ (٢)

---

(١) فى الأصل نسبة الشعر للمضرب السعدى ، والصواب نسبتهما إلى ابنه سوار (شرح التبريزى للحماسة ١/١٢٥) .

(٢) من قصيدته فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى ، ومطلعها :

ألا إنه لولا الخليط المودع   وربع عفا منه مصيف ومربع

الديوان ٢/٣٣٣) قال أبو الفتح عثمان بن جنى : الفصل بين المضاف والمضاف إليه كثير ، وقد جاء الطائى الكبير بالتقديم والتأخير فقال : (البيت) وتقديره أن الغنى — لو لحظت مطالبى — أطوع لى من الشعر ، إلا فى مديحك ، أى فإنه يطيعنى فى مديحك ويسارع إلى . وهذا كقوله أيضاً معنى ولفظا :

تغاير الشعر فيه إذ سهرت له   حتى ظننت قوافيه ستقتتل

وهذا البيت فيه اعتراضان :

الأول : بين اسم إن وخبرها ، تقديره ، وإن الغنى أطوع لى من الشعر ، فاعترض بين الاسم والخبر بقوله « إن لحظت مطالبى » .

أما الاعتراض الثانى : فقوله « إلا فى مديحك » فجاء بالجملة الاستثنائية مقدمة ، وموضعها التأخير ، فاعترض بها بين الجملة التى هى خبر إن .

وتقدير البيت بجملته « وإن الغنى أطوع لى من الشعر إن لحظت مطالبى إلا فى مديحك » وفائدة قوله إلا فى مديحك من الاعتراض الذي اكتسب به الكلام رقة وفائدة حسنة ، والمراد به وصف جود الممدوح بالإسراع ، ووصف خاطر شعره بالإسراع إذا كان فى مدحه خاصة دون غيره ، فهذا الاعتراض يتضمن مدح الممدوح والمادح معاً ، وهو من محاسن ما يجىء فى هذا الموضع .

وكذلك ورد قوله :

رَدَدْتَ رَوْنَقَ وَجْهِى فى صَحِيفَته ... رَدَّ الصِّقالِ بَهاءَ الصارمِ الخَذِمِ
وما أُبالِى ـ وخيرُ القولِ أصدقه ـ ... حَقَنْتَ لى ماء وجهى أم حَقَنْتَ دمى (١)

فقوله « وخير القول أصدقه » اعتراض بين المفعول والفعل ، لأن موضع حقنت نصب ، إذ هو مفعول أبالى ، وفائدته إثبات ما ماثل به بين ماء الوجه والدم ، أى أن هذا القول صدق ليس بكذب .

[القسم الثانى] :

وأما القسم الثانى وهو والذى يأتى فى الكلام لغير فائدة فهو ضربان :

---

(١) من قصيدته فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف والبيتان فى الديوان هكذا :

دت رونق وجهى فى صحيفته ... رد الصقال بوجه الصارم الخذم
وما أبالى وخير القول أصدقه ... حقنت لى ماء وجهى أو حقنت دمى

(الديوان ٣/٢١٨) الصقال : الاسم من الصقل . الخذم : السريع القطع .

الضرب الأول : يكون دخوله فى الكلام كخروجه منه لا يكتسب به قبحا ولا حسناً ، فمن ذلك قول النابغة :

يقول رجال يجهلون خليقتى لعل زيادا — لا أبا لك — غافل[١]

فقوله لا أبا لك من الاعتراض الذى لا فائدة فيه ، وليس مؤثراً فى البيت حسناً ولا قبحاً .

ومثله جاء قول زهير :

سئمتُ تكاليف الحياة ومن يَعِشْ ثمانين حولا — لا أبا لك — يسأم[٢]

وقد وردت هذه اللفظة وهى « أبا لك » فى موضع آخر ، فكان للاعتراض بها فائدة حسنة ، كقول أبى تمام :

« عتابك عنى — لا أبا لك — واقصِدى »[٣]

فإنه لما كره عتابها اعترض بين الأمر والمعطوف عليه بهذه اللفظة على طريق الذم .

الضرب الثانى : وهو الذى يؤثر فى الكلام نقصاً وفى المعنى فساداً ، وقد تقدم ذكر أمثاله وأنظاره فى باب التقديم والتأخير ، وإنما جيء بذكره ها هنا مكرراً لإتمام التقسيم الاعتراضى فيما أفاد وفيما لا يفيد ، وقد ذكرت من ذلك مثالا واحداً أو مثالين ، فما ورد منه قول بعضهم :

---

(١) من قصيدة فى رثاء النعمان بن المنذر ، مطلعها :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل وكيف تصابى المرء والشيب شامل

(٢) من معلقته التى مطلعها .

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

(٣) لم نعثر على النص فى ديوانه .

فَقَدْ والشكُّ بَيَّن لي عناءٌ   بوَشْكِ فِراقهم صُرَدٌ يصيح[١]

فإن في هذا البيت من رديء الاعتراض ما أذكره لك، وهو الفصل بين قد والفعل الذى هو بَيَّنَ، وذلك قبيح لقوة اتصال قد بما تدخل عليه من الأفعال ألا تراها تعد مع الفعل كالجزء منه، ولذلك أدخلت عليه اللام المراد بها توكيد الفعل كقوله تعالى ﴿ ولقد أوحِيَ إليك وإلى الذينَ مِن قبلك ﴾[٢] وكقوله ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ﴾[٣] وقول الشاعر:

ولقد أجْمَعُ رِجْلَيَّ بها   حَذَرَ الموتِ وإنى لفَرُور[٤]

إلا إن فُصِلَ بين قد والفعل بالقسم، فإن ذلك لا بأس به نحو قولك: قد والله كان ذاك، وقد فصل فى هذا البيت أيضاً بين المبتدأ الذى هو الشك وبين الخبر الذي هو عناء بقوله « بَيَّن لى » وفصل بين الفعل الذى هو « بيّن » وبين فاعله الذى هو « صرد » بخبر المبتدأ الذى هو عناء، فجاءمعنى البيت كما تراه، كأنه صورة مشوهة قد نقلت أعضاؤها بعضها إلى مكان بعض.

ومن هذا الضرب. قول الآخر:

نظرتُ وشخصى مَطْلَعَ الشمسِ ظِلُّه   إلى الغرب حتى ظِلُّه الشمسَ قد عَقَل

أراد نظرت مطلع الشمس وشخصى ظله إلى الغرب حتى عقل الشمس أى حاذاها، وعلى هذا التقرير فقد فصل بمطلع الشمس بين المبتدأ الذى هو « شخص » وبين خبره الجملة وهو قوله ظله إلى الغرب، وأغلظ من ذلك أنه

---

(١) أصل التركيب فقد بين صرد يصيح بوشك فراقهم، والشك لى عناء.

(٢) الزمر ٦٥. (٣) البقرة ١٠٢.

(٤) من مقطوعة لعمرو بن معديكرب (شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ١٨١/٣) الضمير فى قوله بها للفرس. والمعنى: أركضها وأستدر جريها، ذهاباً فى الفرار، واحترازاً من الموت، وإنى لكثير الهرب إذا كان الهرب أغنى، وإلى مراغمة العدو أدعى.

فصل بين الفعل وفاعله بالأجنبي ، وهذا وأمثاله مما يفسد المعاني ويورثها اختلالا .

واعلم أن الناثر في استعمال ذلك أكثر ملاءمة من الناظم ، وذلك أن الناظم مضطر إلى إقامة ميزان الشعر ، وربما كان مجال الكلام عليه ضيقاً فيلقيه طلبُ الوزن في مثل هذه الورطات ، وأما الناثر فلا يضطر إلى إقامة الميزان الشعري ، بل يكون مجال الكلام عليه واسعاً ، ولهذا إذا اعترضَ في كلامه اعتراضاً يفسده توجه عليه الإنكار ، وحُقّ عليه الذم .

النوع التاسع عشر

في الكناية والتعريض

وهذ النوع مقصور على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانباً . وقد تكلم علماء البيان فوجدتهم قد خلطوا الكناية بالتعريض ، ولم يفرقوا بينهما ، ولاحدوا كلا منهما بحد يفصله عن صاحبه ، بل أوردوا لهما أمثلة من النظم والنثر ، وأدخلوا أحدهما في الآخر ، فذكروا للكناية أمثلة من التعريض ، وللتعريض أمثلة من الكناية . فمن فعل ذلك الغانمي[1] وابن سِنان الخفاجي[2] والعسكري[3] .

فأما ابن سنان فإنه ذكر في الكناية قول امرىء القيس :

فصرنا إلى الحسنَى ورَقّ كلامها ورُضْتُ فذلّتْ صعبةٌ أيّ إذلال[4]

---

(١) هو أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي . كان من فضلاء عصره ، وله شعر مشهور ، وهو من شعراء نظام الملك (اللباب لابن الأثير ٣/١٦٦) .

(٢) الأمير أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي المتوفى سنة ٤٦٦هـ مؤلف سر الفصاحة .

(٣) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري المتوفى سنة ٣٩٥هـ مؤلف كتاب الصناعتين .

(٤) البيت من قصيدته التي مطلعها :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي

(الديوان ٢٧) .

صرنا إلى الحسنى : إلى ما نحب من الأمور . رضت : ليّنتها بالكلام والمداراة كما يروض المهر أو الحصان بالسير .

وهذا مثال ضربه للكناية عَلَى المباضعة ، وهو مثال للتعريض[1] .

ووجدت فى كتاب التذكرة لابن حمدون البغدادى ، وكان مشار إليه عندهم بفضيلة ومعرفة لا سيما فى فن الكتابة ، فوجدت فى كتابه ذلك بابا مقصوراً على ذكر الكناية والتعريض وما قيل فيهما نظما ونثراً ، وهو محشوٌّ بالخلط بين هذين القسمين من غير فَصْلٍ بينهما ، وقد أورد أيضا فى بعضه أمثلة غثة باردة .

وسأذكر ما عندى فى الفرق بينهما ، وأميز أحدهما عن الآخر ، ليُعْرف كل منهما على انفراده فأقول :

[الكناية] :

أما الكناية فقد حُدِّتْ بحدٍّ ، فقيل هى اللفظ الدال على الشىء ، على غير الوضع الحقيقى ، بوصف جامع بين الكناية والمكنَّى عنه ، كاللمس والجماع ، فإن الجماع اسم موضوع حقيقى ، واللمس كناية عنه ، وبينهما الوصف الجامع ، إذْ الجماع لمس وزيادة ، فكان دالا عليه بالوضع المجازى .

وهذا الحد فاسد ، لأنه يجوز أن يكون حدًّا للتشبيه ، فإن التشبيه هو اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقى لجامع بين المشبَّه والمشبَّه به وصفةٍ من الأوصاف ، ألا ترى أنا إذا قلنا : زيد أسد ، كان ذلك لفظاً دالا على غير الوضع الحقيقى بوصف جامع بين زيد والأسد ، وذلك الوصف هو الشجاعة ، ومن ها هنا وقع الغلط لمن أشرت إليه فى الذى ذكره فى حد الكناية .

---

(١) قال ابن سنان الخفاجى : ومن هذا الجنس حسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه فى الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح ، وذلك أصل من أصول الفصاحة ، وشرط من شروط البلاغة ، إلى أن قال . ومما يستحسن من الكنايات قول امرىء القيس (البيت) لانه كنى عن المباضعة بأحسن ما يكون من العبارة (سر الفصاحة ١٥٦) .

وأما علماء أصول الفقه فإنهم قالوا فى حد الكناية إنها اللفظ المحتمل ، يريدون بذلك أنها اللفظ الذى يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه . وهذا فاسد أيضا ، فإنه ليس كل لفظ يدل على المعنى وعلى خلافه بكناية .

دليل ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا لم تستح فافعل ما شئت » فإن هذا اللفظ يدل على المعنى وعلى خلافه ، وبيان ذلك أنه يقول فى أحد معنييه : إنك إذا لم يكن لك وازع يزعك عن الحياء فافعل ما شئت ، أما معناه الآخر فإنه يقول : إذا لم تفعل فعلا يُسْتَحَى منه فافعل ما شئت ، وهذا ليس من الكناية فى شىء ، فبَطُل إذاً هذا الحد .

ومثال الفقيه فى قوله إن الكِناية هى اللفظ المحتمل مثال من أراد أن يَحُدّ الإنسان فأتى بحدِّ الحيوان ، فعبر بالأعم عن الاخص ، فإنه يقال كل إنسان حيوان ، وليس كل حيوان إنسانا ، وكذلك يقال ها هنا ، فإن كل كناية لفظ محتمل ، وليس كل لفظ محتمل كناية .

والذى عندى فى ذلك أن الكناية إذا وردت تجاذبها جانبا حقيقة ومجاز ، وجاز حملها على الجانبين معا ، ألا ترى أن اللمس فى قوله تعالى : ﴿ أو لامَسْتُم النساءَ ﴾ يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ، وكل منهما يصح به المعنى ولا يختل ، ولهذا ذهب الشافعى رحمه الله إلى أن اللمس هو مصافحة الجسد الجسدَ ، فأوجب الوضوء على الرجل إذا لمس المرأة ، وذلك هو الحقيقة فى اللمس ، وذهب غيره إلى أن المراد باللمس هو الجماع ، وذلك مجاز فيه ، وهو الكناية . وكل موضع ترد فيه الكناية فإنه يتجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ، ويجوز حمله على كليهما معا ، وأما التشبيه فليس كذلك ولا غيره من أقسام المجاز ، لأنه لا يجوز حمله إلا على جانب المجاز خاصة ، ولو حمل على جانب الحقيقة لاستحال المعنى ، ألا ترى أنا إذا قلنا : (زيد أسد) لا يصح إلا على المجاز خاصة ، وذلك أنا شبهنا زيداً بالأسد فى شجاعته ، ولو حملناه على جانب الحقيقة لاستحال المعنى ، لأنّ

زيداً ليس بالحيوان ذا الأربع والذنب والوبر والأنياب والمخالب .

وإذا كان الأمر كذلك لحدُّ الكناية الجامع لها هو أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز . والدليل على ذلك أن الكناية فى أصل الوضع أن تتكلم بشىء وتريد غيره ، يقال كنيت بكذا عن كذا ، فهى تدل على ما تكلمت به ، وعلى ما أردته فى غيره ، وعلى هذا فلا تخلو إما أن تكون فى لفظ تجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ، أو فى لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز ، أو فى لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة ، وليس لنا قسم رابع ، ولا يصح أن تكون فى لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة ، لأن ذلك هو اللفظ المشترك ، وإذا أطلق من غير قرينة تخصصه كان مُبْهما غير مفهوم ، وإذا أضيف إليه القرينة صار مختصا بشىء بعينه ، والكناية أن تتكلم بشىء وتريد غيره ، وذلك مخالف للفظ المشترك إذا أضيف إليه القرينة ، لأنه يختص بشىء واحد بعينه لا يتعداه إلى غيره ، وكذلك لا يصح أن تكون الكناية فى لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز ، لأن المجاز لابد له من حقيقة نُقِلَ عنها ، لأنه فرع عليها .

وذلك اللفظ الدال على المجازين إما أن يكون للحقيقة شركة فى الدلالة عليه أو لا يكون لها شركة ، فإن كان لها شركة فى الدلالة فيكون اللفظ الواحد قد دل على ثلاثة أشياء : أحدها الحقيقة ، وهذا مخالف لأصل الوضع ، لأن أصل الوضع أن تتكلم بشىء وأنت تريد غيره ، وها هنا تكون قد تكلمت بشىء وأنت تريد شيئين غيره ، وإن لم يكن للحقيقة شركة فى الدلالة كان ذلك مخالفا للوضع أيضا ، لأن أصل الوضع أن تتكلم بشىء وأنت تريد غيره ، فيكون الذى تكلمت به دالا على ما تكلمت به وعلى غيره ، وإذا أخرجتِ الحقيقة عن أن يكون لها شركة فى الدلالة لم يكن الذى تكلمت به دالا على ما تكلمت به ، وهذا محال ، فتحقق حينئذ أن الكناية أن تتكلم بالحقيقة ، وأنت تريد المجاز ، وهذا الكلام

فى حقيقة الدليل على تحقيق أمر الكناية لم يكن لأحد فيه قول سابق .

واعلم بأن الكناية مشتقة من الستر ، يقال كنيتُ الشىء إذا سترتُه ، وأجرِى هذا الحكم فى الألفاظ التى يُستَرُ فيها المجاز بالحقيقة ، فتكون دالة على الساتر وعلى المستور معا ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أو لامستُم النِّساء ﴾ فإنه إن حمل على الجماع كان كناية ، لأنه سَتَرَ الجماع بلفظ اللمس الذى حقيقته مصافحة الجسد الجسد ، و إن حمل على الملامسة التى هى مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة ، ولم يكن كناية ، وكلاهما يتم به المعنى .

وقد تَأوَّلتُ الكناية بغير هذا ، وهى أنها مأخوذة من الكُنْيَة التى يقال فيها أبو فلان ، فإنا إذا نادينا رجلا اسمه عبد الله وله وقد اسمه محمد فقلنا يا أبا محمد ، كان ذلك مثل قولنا يا عبد الله ، فإن شئنا ناديناه بهذا أو شئنا ناديناه بهذا ، فكلاهما واقع عليه ، وكذلك يجرى الحكم فى الكناية ، فإنا إذا شئنا حملناها على جانب المجاز ، و إذا شئنا حملناها على الحقيقة ، إلا أنه لابد من الوصف الجامع بينهما لئلا يلحق بالكناية ما ليس منها ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ إنّ هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجةٌ واحدة ﴾[1] فكنى بذلك عن النساء ، والوصف الجامع بينهما هو التأنيث ، ولولا ذلك لقيل فى مثل هذا الموضع إن أخى له تسع وتسعون كبشا ولى كبش واحد ، وقيل هذه كناية عن النساء ، ومن أجل ذلك لم يُلتفَتْ الى تأويل من تأول قوله تعالى : ﴿ وثيابَك فطهِّرْ ﴾[2] أنه أراد بالثياب القلب على حكم الكناية ، لأنه ليس بين الثياب والقلب وصف جامع ، ولو كان بينهما وصف جامع لكان التأويل صحيحا .

---

(١) سورة ص ٢٣ . (٢) المدثر ٤ .

فإن قيل فما الدليل على اشتقاق الكناية من كنيت الشيء اذا سترته ، ومن الكنية ؟

قلت فى الجواب : أما اشتقاقها من كنيت الشيء اذا سترته ، فإن المستور فيها هو المجاز ، لأن الحقيقة تفهم أولا ويتسارع إليها الفهم قبل المجاز ، لأن دلالة اللفظ عليها دلالة وضعية ، وأما المجاز فإنه يُفْهَم بعد فهم الحقيقة ، وإنما يفهم بالنظر والفكرة ، ولهذا يحتاج الى دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ ، فالحقيقة أظهر والمجاز أخفى ، وهو مستور بالحقيقة ، ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿أو لامستم النساء﴾ فالفهم يتسارع فيه إلى الحقيقة التى هى ملامسة الجسد الجسد ، وأما المجاز الذى هو الجماع ، فإنه يفهم بالنظر والفكر ، ويحتاج الذاهب إليه الى دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ .

وأما اشتقاقها من الكنية فلأن عبد الله فى هذه الصورة المذكورة هو حقيقة هذا الرجل ، أى الاسم الموضوع بإزائه أولا ، وأما أبو محمد فإنه طارىء عليه بعد عبد الله[1] لأنه لم يكن له إلا بعد أن صار له ولد اسمه محمد ، وكذلك الكناية فإن الحقيقة لها هو الاسم الموضوع أولا فى أصل الوضع ، وأما المجاز فإنه طارىء عليها بعد ذلك ، لأنه فرع ، والفرع إنما يكون بعد الأصل ، وإنما يُعْمَد الى ذلك الفرع المناسبة الجامعة بينه وبين الأصل على ما تقدم الكلام فيه ، وهذا القدر كاف فى الدلالة على اشتقاق الكناية من ذينك المعنيين المشار اليهما .

فإن قيل إنك قد ذكرت أقسام المجاز فى باب الاستعارة التى قدمت ذكرها فى كتابك هذا ، وحصرتها فى أقسام ثلاثة ، وهى التوسع فى الكلام ، والاستعارة ، والتشبيه ، ونراك قد ذكرت الكناية فى المجاز أيضا ، فهل هى قسم رابع لتلك

(١) كان فى الأصل قلب بين الاسمين محمد وعبدالله ، فصححناهما هكذا ليتلاءم الكلام هنا مع سابقه عند قوله إنها مأخوذة من الكنية .

الأقسام الثلاثة أم هى من جملتها ؟ فإن كانت قسما رابعا فذلك نقض للحصر الذى حصرته ، وإن كانت من جملتها فإنك أعدت ذكرها ها هنا مرة ثانية ، وهذا المكرر لا حاجة إليه .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : أما الحصر الذى ذكرته فى باب الاستعارة فهو ذاك ، ولا زيادة عليه ، وأما الكناية فهى جزء من الاستعارة ، وكذلك الكناية فانها لا تكون إلا بحيث يُطوَى المكنّى عنه ، ونسبتها إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام ، فيقال كل كناية استعارة ، وليس كل استعارة كناية ، ويُفرَّق بينهما من وجه آخر ، وهو أن الاستعارة لفظها صريح ، والصريح هو ما دل عليه ظاهر لفظه ، والكناية ضد الصريح ، لأنها عدول عن ظاهر اللفظ ، وهذه ثلاثة فروق أحدها الخصوص والعموم ، والآخر الصريح ، والآخر الحمل على جانب الحقيقة والمجاز . وقد تقدم القول فى باب الاستعارة أنها جزء من المجاز ، وعلى ذلك تكون نسبة الكناية الى المجاز نسبة جزء الجزء وخاص الخاص .

وكان ينبغى أن تذكر الكناية عند ذكر الاستعارة فى النوع الأول من هذه الأنواع المذكورة فى المقالة الثانية ، وإنما أفردتها بالذكر ها هنا من أجل التعريض ؛ لأن من العادة أن يذكرا جميعاً فى مكان واحد .

وقد يأتى فى الكلام ما يجوز أن يكون كناية ، ويجوز أن يكون استعارة ، وذلك يختلف باختلاف النظر اليه بمفرده والنظر الى ما بعده ، كقول نصر بن سيّار فى أبياته المشهورة التى يحرض بها بنى أمية عند خروج أبى مسلم :

أرى خَلَلَ الرماد وَميضَ جَمْرٍ ويُوشِك أن يكون له ضِرامُ
فإن النار بالزَّندَيْن تُورَى وإن الحربَ أوّلُها الكلام

أقول من التعجب : ليت شِعْرى   أأيقاظٌ أميَّةُ أم نيـــام ؟
فإن هَبُّوا فذاك بقاء مُلْكٍ   وإن رَقَدُوا فإنى لا أُنام(١)

فالبيت الأول لوروده بمفرده كان كناية ، لأنه لا يجوز حمله على جانب الحقيقة وحمله على جانب المجاز ، أما الحقيقة فإنه أخبر أنه رأى وميض جمر فى خلل الرماد ، وأنه سيضطرم ، وأما المجاز فإنه أراد أن هناك ابتداء شرٍّ كامن ، ومثّله بوميض جمر من خلال الرماد ، وإذا نظرنا إلى الأبيات فى جملتها اختص البيت الأول منها بالاستعارة دون الكناية ، وكثيراً ما يَرِدُ مثل ذلك ويُشْكِل لتجاذبه بين الكناية والاستعارة ، على أنه لا يشكل إلا على غير العارف .

[التعريض]

وأما التعريض : فهو اللفظ الدال على الشىء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقى والمجازى ، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب : والله إنى لمحتاج ، وليس فى يدى شىء ، وأنا عريان والبرد قد آذانى ، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب ، وليس هذا اللفظ موضوعا فى مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازا ، إنما دل عليه من طريق المفهوم ، بخلاف دلالة اللمس على الجماع . وعليه ورد التعريض فى

---

(١) كان نصر بن سيار واليا على خراسان لهشام بن عبد الملك ، وقد بعث إليه بهذه الأبيات يحذره فيها ذيوع السخط على بنى أمية هناك ، وانتشار الدعوة لبنى العباس .
والأبيات فى الأغانى ١٥ / ١٢٦ ومروج الذهب ٢ / ٢٥٢ والعقد الفريد ١/ ٢٤٠ هكذا :

أرى خلل الرماد وميض نار   ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى   وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم تطفئوها تجن حربا   مشمرة يشيب لها الغلام
أقول من التعجب ليت شعرى   أأيقاظ أميـة أم نيام ؟
فإن يك قومنا أضحوا نياماً   فقل قوموا فقد حان القيام
ففرى من رحالك ثم قولى   على الإسلام والعرب السلام

خطبة النكاح ، كقولك للمرأة : إنك لخلية و إنى لعَزَب ، فإن مثل هذا لا يدل على طلب النكاح حقيقة ولا مجازا .

والتعريض أخفى من الكناية ، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى ، و إنما سمى التعريض تعريضا لأن المعنى فيه يفهم من عُرْضه أى من جانبه ، وعُرْض كل شىء جانبه .

واعلم أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً ، فتأتى على هذا تارة ، وعلى هذا أخرى ، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب ، ولا يأتى فى اللفظ المفرد البتة .

والدليل على ذلك أنه لا يُفْهَم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز ، و إنما يُفْهَم من جهة التلويح والإشارة ، وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ، ولكنه يحتاج فى الدلالة عليه إلى اللفظ المركب ، وعلى هذا فإن بيت امرىء القيس الذى ذكره ابن سنان مثالا للكناية هو مثال للتعريض ، فإن غرض امرئ القيس من ذلك أن يذكر الجماع ، غير أنه لم يذكره ، بل ذكر كلاما آخر يُفهَم الجماع من عُرْضه ، لأن المصير إلى الحسنى ورقة الكلام لا يفهم منهما ما أراده امرؤ القيس من المعنى لا حقيقة ولا مجازا ، وهذا لا خفاء به ، فاعرفه .

وحيث فرقنا بين الكناية والتعريض ، وميزنا أحدهما عن الآخر ، فلنفصلهما ونذكر أقسامهما ، ولنبدأ أولا بالكناية فنقول :

الكناية

اعلم أن الكناية تنقسم قسمين : أحدهما مايحسن استعماله ، والآخر مالايحسن استعماله ، وهو عيب فى الكلام فاحش ، وقد ذهب قوم إلى أن الكناية تنقسم أقساماً ثلاثة . تمثيلا : وإرْدافا ، ومجاورة .

فأما التمثيل :

فهو أن تراد الإشارة إلى معنى ، فيوضع لفظ لمعنى آخر ، ويكون ذلك مثالا للمعنى الذى أريدت الإشارة إليه ، كقولهم فلان نقى الثوب ، أى منزه من العيوب .

وأما الإرداف :

فهو أن تراد الإشارة إلى معنى ، فيوضع لفظ لمعنى آخر ، ويكون ذلك إردافا للمعنى الذى أريدت الإشارة إليه ولازما له ، كقولهم فلان طويل النجاد ، أى طويل القامة ، فطول النجاد رادف لطول القامة ولازم له ، بخلاف نقاء الثوب فى الكناية عن النزاهة من العيوب ، لأن نقاء الثوب لايلزم منه النزاهة من العيوب ، كما يلزم من طول النجاد طول القامة .

وأما المجاورة :

فهى أن تريد ذكر الشىء فتتركه إلى ما جاوره كقول عنترة :

بزجاجةٍ صفراء ذاتِ أسِرّةٍ   قُرِنَتْ بأزْهَرَ فى الشِّمال مُفَدَّم (١)

يريد بالزجاجة الخمر ، فذكر الزجاجة وكنى بها عن الخمر ، لأنها مجاورة لها .

(١) من معلقته . الأسرة : جمع سر وسرور وهما الخط من خطوط اليد والجبهة وغيرها وتجمع أيضاً على أسرار ، والأسرار تجمع على أسارير .
أزهر : إبريق مشرق . مفدم : مسدود الرأس بالفدام وهو هنا المصفاة .

وهذا التقسيم ليس بصحيح ، لأن من شرط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصا بصفة خاصة تفصله عن عموم الأصل ، كقولنا : الحيوان ينقسم أقساما منها الإنسان ، وحقيقته كذا وكذا ، ومنها الأسد ، وحقيقته كذا وكذا ، ومنها الفرس ، وحقيقته كذا وكذا ، ومنها غير ذلك ، وهاهنا لم يكن التقسيم كذلك ، فإن التمثيل على ما ذكر عبارة عن مجموع الكناية ، لأن الكناية انما هى أن تراد الإشارة الى معنى ، فيوضع لفظ لمعنى آخر ، ويكون ذلك اللفظ مثالا للمعنى الذى أريدت الإشارة إليه .

الا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ﴾[1] فإنه أراد الإشارة الى النساء فوضع لفظا لمعنى آخر وهو النعاج ، ثم مثل به النساء ، وهكذا يجرى الحكم فى جميع ما يأتى من الكنايات ، لكن منها ما يتضح التمثيل فيه ، وتكون الشبهية بين الكناية والمكنى عنه شديدة المناسبة ، ومنه ما يكون دون ذلك فى الشبهية . وقد تأملت ذلك وحققت النظر فيه ، فوجدت الكناية إذا وردت على طريق اللفظ المركب كانت شديدة المناسبة واضحة الشبهية ، وإذا وردت على طريق اللفظ المفرد لم تكن بتلك الدرجة فى قوة المناسبة والمشابهة ، ألا ترى إلى قولهم « فلان نقى الثوب » وقولهم « اللمس » كناية عن الجماع ، فإن نقاء الثوب أشد مناسبة وأوضح شبها ، لأنا اذا قلنا : نقاء الثوب من الدنس كنزاهة العرض من العيوب اتضحت المشابهة ، ووجدت المناسبة بين الكناية والمكنى عنه شديدة الملاءمة ، وإذا قلنا « اللمس كالجماع » لم يكن بتلك الدرجة فى قوة المشابهة ، وهذا الذى ذكر فى أن من الكناية تمثيلا وهو كذا وكذا ، غير سائغ ولا وارد ، بل الكناية كلها هى ذاك ، والذى قدمته من القول هو الحاصر لها ولم يأت به أحد غيرى كذلك .

---

(١) سورة ص ٣ .

وأما الإرداف :

فإنه ضرب من اللفظ المركب ، إلا أنه اختص بصفة تخصه وهى أن تكون الكناية دليلا على المكنى عنه ولازمة له ، بخلاف غيرها من الكنايات ، ألا ترى أن طول النجاد دليل على طول القامة ولازم له ، وكذلك يقال فلان عظيم الرماد ، أى كثير إطعام الطعام ، وعليه ورد قول الأعرابية فى حديث أم زَرْع فى وصف زوجها « له إبل قليلات المسارح ، كثيرات المبارك ، إذا سمعن صوت المزهر أيقنّ أنهن هوالك »(١)

وغرض الأعرابية من هذا القول أن تصف زوجها بالجود والكرم ، إلا أنها لم تذكر ذلك باللفظ الصريح ، وإنما ذكرته من طريق الكناية على وجه الإرداف الذى هو لازم له .

وكذلك ورد فى الأخبار النبوية أيضا ، وذاك أن امرأة جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسألته عن غسلها من الحيض ، فأمر أن تغتسل ، ثم قال : « خذى فِرْصَةً من مسك فتطهرى بها »(٢) قالت : كيف أتطهر بها ؟ فقال : تطهرى بها . قالت : كيف أتطهر بها ؟ قال سبحان الله ، تطهرى بها . فاجتذبتها عائشة رضى الله تعالى عنها إليها ، وقالت : تَتَبَّعى بها أثر الدم ، فقولها « أثر الدم » كناية عن الفرج على طريق الإرداف ، لأن أثر الدم فى الحيض لا يكون إلا فى الفرج ، فهو رادف له .

ومما ورد فى ذلك شعرا قول عمر بن أبى ربيعة :

بعيدةُ مَهْوَى القُرط إمّا لنوفل أبوها وإما عبدُ شمسٍ وهاشمُ(٣)

---

(١) من وصف الزوجة العاشرة لزوجها ، والنص فى البخارى « له إبل كثيرات المبارك ، قليلات المسارح ، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك » .
(صحيح البخارى ٣/١٨٤) .

(٢) صحيح البخارى ١/٤٩ . . الفرصة بكسر الفاء خرقة أو قطنة تتمسح بها المرأة من الحيض .

(٣) شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة ٢٠٠ .

فإن بعد مهوى القرط دليل على طول العنق .

ومن لطيف هذا الموضع وحسنه ما يأتى بلفظة مِثْل ، كقول الرجل إذا نفى عن نفسه القبيح « مثلى لا يفعل هذا » أى أنا لا أفعله ، فنفى ذلك عن مثله ، ويريد نفيه عن نفسه ، لأنه إذا نفاه عن يماثله ويشابهه فقد نفاه عن نفسه لامحالة ، إذ هو بنفى ذلك عنه أجدر . وكذلك يقال « مِثْلك إذا سئل أعطى » أى أنت إذا سئلت أعطيت ، وسبب ورود هذه اللفظة فى هذا الموضع أنه يجعل مِنْ جماعةٍ هذه أوصافهم وتثبيتاً للأمر وتوكيدا ، ولو كان فيه وحده اقلق منه موضعه ولم يَرْسُ فيه قدمه .

وهذا مثل قول القائل إذا كان فى مدح إنسان « أنت من القوم الكرام » أى لك فى هذا الفعل سابقة ، وأنت حقيق به ، ولستَ دخيلا فيه .

وقد ورد هذا فى القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿ ليسَ كمثله شىءٌ وهو السميع البصير ﴾[1] ، والفرق بين قوله ليس كمثله شىء ، وبين قوله ليس كالله شىء ، هو ما أشرت إليه ، وإن كان الله سبحانه وتعالى لا مِثْل له حتى يكون لمثله مثل ، وإنما ذكر ذلك على طريق المجاز قصداً للمبالغة .

وقد يأتى هذا الموضع بغير لفظة مِثْل وهى مقصودة ، كقولك للعربى « العربُ لا تُخْفِرُ الذمم » أى أنت لا تخفر الذمم ، وهذا أبلغ من قولك : أنت لا تخفر الذمم ، لما أشرت إليه . وعلى نحو من هذا جاء قول أبى الطيب المتنبى :

أَلستَ من القوم الذى مِنْ رماحهم نَدَاهُم ومن قَتلاهُمُ مُهجةُ البُخْلِ[2]

---

(١) الشورى ١١ .

(٢) من قصيدة فى رثاء أبى الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة وقد توفى سنة ٣٣٨ ، والبيت فى الديوان :

ألست من القوم الألى من رماحهم نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل

(ديوان المتنبى ٣/٢١١)

وإذا فرغت من ذكر الأصول التى قَدَّمْتُ ذكرها ، فإنى أُتبعها بضرب الأمثلة نثراً ونظماً ، حتى يزداد ما ذكرته وضوحا .

فمن ذلك ما ورد فى القرآن الكريم ، نحو قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه مَيْتاً ﴾(١) ، فإنه كَنَى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتاً ، ثم جعل ماهو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة ، فهذه أربع دلالات واقعة على ما قُصِدَت له مطابِقَةً للمعنى الذى وردت من أجله .

فأما جعل الغيبة كأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جدا ، لأن الغيبة إنما هى ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم ، وتمزيق العرض مماثل لأكل لحم الإنسان لحم من يغتابه ، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة ، وأما جعله كلحم الأخ فلما فى الغيبة من الكراهة ، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها ، آمران بتركها والبعد عنها ، ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ فى كراهته . ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر ، إلا أنه لا يكون مثل كراهته لحم أخيه ، وهذا القول مبالغة فى استكراه الغيبة . وأما جعل اللحم ميتا فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها . وأما جعله ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة ، فلما جُبِلَتْ عليه النفوس من الميل الى الغيبة والشهوة لها مع العلم بقبحها .

فانظر أيها المتأمل الى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شَبَها ، لأنك إذا نظرت الى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التى أشرنا إليها وجدتها مناسبة لما قُصِدَتْ له .

وكذلك ورد قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ

(١) الحجرات ١٢ .

وأرضا لم تطأوها ﴾[١] ، والأرض التى لم يطأوها كناية عن مناكح النساء ، وذلك من حَسَنِ الكناية ونادره .

وكذلك ورد قوله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماءً فسالتْ أوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فاحتمل السَّيْلُ زبداً رابيا ﴾[٢] فكنى بالماء عن العلم ، وبالأودية عن القلوب ، وبالزبد عن الضلال ، وهذه الآية قد ذكرها أبو حامد الغزالى رحمه الله فى كتابه الموسوم بإحياء علوم الدين ، وفى كتابه الموسوم بالجواهر ، والأربعين ، فأشار بها إلى أن فى القرآن الكريم إشارات وإيماءات لا تنكشف إلا بعد الموت ، وهذا يدل على أن الغزالى رحمه الله تعالى لم يعلم أن هذه الآية من باب الكنايات التى لفظها يجوز حمله على جانبى الحقيقه والمجاز . وقد رأيت جماعة من أئمة الفقه لا يحققون أمر الكناية ، وإذا سئلوا عنها عبروا عنها بالمجاز ، وليس الأمر كذلك ، وبينهما وصف جامع ، كهذه الآية وما جرى مجراها ، فإنه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء وعلى العلم ، وكذلك حمل الأودية على مهابط الأرض وعلى القلوب ، وهكذا يجوز حمل الزبد على الغُثاء الرابى الذى تقذفه السيول ، وعلى الضلال ، وليس فى أقسام المجاز شيء يجوز حمله على الطرفين معاً سوى الكناية .

وبلغنى عن الفراء النحوى أنه ذكر فى تفسير آية وزعم أنها كناية ، وهى قوله تعالى : ﴿ وقد مَكَروا مَكْرَهُمْ ، وعند اللهِ مَكْرُهم ، وإن كانَ مَكْرُهم لِتَزُولَ منه الجبال ﴾[٣] فقال إن الجبال كناية عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وماجاء به من الآيات .

وهذه الآية من باب الاستعارة لا من باب الكناية ، لأن الكناية لا تكون إلا فيما جاز حمله على جانبى المجاز والحقيقة ، والجبال ها هنا لا يصح بها المعنى إلا إذا حملت على جانب المجاز خاصة ، لأن مكر أولئك لم يكن لتزول منه جبال الأرض ، فإن ذلك محال .

(١) الأحزاب ٢٧ .
(٢) الرعد ١٧ .
(٣) ابراهيم ٤٦ .

وأمَّا ما ورد فى الأخبار النبوية فقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنه كانت امرأة فيمن كان مِنْ قبلنا ، وكان لها ابن عم يحبها ، فراودها عن نفسها ، فامتنعت عليه ، حتى إذا أصابتها شدة فجاءت إليه تسأله ، فراودها ، فمكنته من نفسها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة قالت له : لا يحل لك أن تَفُضَّ الخاتم إلا بحقه ، فقام عنها وتركها . وهذه كناية واقعة فى موقعها .

ومن ذلك أيضاً قول النبى صلى الله عليه وسلم : « رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بالقوارير »[1] يريد بذلك النساء ، فكنى عنهن بالقوارير ، وذاك أنه فى بعض أسفاره وغلام أسود اسمه أَنْجَشَةَ يحدو ، فقال له يا أنجشه رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بالقوارير ، وهذه كناية لطيفة .

وكذلك ورد حديث الحديبية ، وذاك أنه لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرَّكِيَّة[2] ، جاءه بُدَيل ابن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من أهل تهامة ، فقال : « تركت كعب بن لُؤَىّ وعامر بن لؤى نزلوا عِدَادَ مياه الحديبية ، معهم العُوذُ المَطافِيلُ وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت »[3] وهذه كناية عن النساء والصبيان ، والعوذ جمع عائذ وهى الناقة التى وضعت وقوى ولدها ، وهذا يجوز حمله

---

(١) كان أنجشة يحدو بالنساء ركابهن . ويرتجز بنسيب الشعر والرجز وراءهن ، فلم يؤمن أن يصيبهن ما يسمعن من رقيق الشعر فيهن ، أو يقع فى قلوبهن حداؤه ، فأمر أنجشة بالكف عن نشيده وحدائه حذار صبوتهن إلى غير الجميل . وقيل إن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت فى المشى واشتدت فأزعجت الراكب فأتعبته فنهاه عن ذلك ، لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة . « لسان العرب مادة قرر والنهاية لابن الأثير ٣/٢٤٠ .

(٢) الركية : البئر .

(٣) العوذ : جمع عائذ وهى من الإبل الحديثة النتاج . المطافيل : التى معها أولادها ، يريد أنهم خرجوا ومعهم النساء والصبيان .

وفى سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى أن الذى لقى النبى صلى الله عليه وسلم بشر بن سفيان الكعبى أو بسر ، وأنه لقيه بعسفان ، وهو منهل بين الجحفة ومكة أو بين المسجدين ، أوغير ذلك . فقال : يارسول الله هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، وقد نزلوا بذى طوى يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً .

(سيرة ابن هشام ٢/٣٠٩ وتاريخ الطبرى ٣/٧٢)

على طريق الحقيقة ، كما جاز حمله على طريق المجاز ، أى معهم الأموال من الإبل ، وهى كانت جل أموال العرب ، أى أنهم قد أحضروا أموالهم ليقاتلوا دونها ، ولما جاز حمل العوذ للطافيل على النساء والصبيان وعلى الأموال كان من باب الكناية .

ومن ذلك ما ورد فى إقامة الحد على الزانى ، وهو أن يشهد عليه برؤية المِيل فى المُكْحُلة ، وذلك كناية عن رؤية الفرج فى الفرج .

ومن لطيف الكنايات أن امرأة جاءت لعائشة رضى الله عنها فقالت لها : « أُقَيِّد جَمَلى؟ » فقالت عائشة رضى الله عنها « لا » . أرادت المرأة أن تضع لزوجها شيئاً يمنعه عن غيرها ، أى تربطه أن يأتى غيرها ، فظاهر هذا اللفظ هو تقييد الجمل ، وباطنه ما أرادته المرأة وفهمته عائشة منها .

وكذلك يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذاك أنه جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : « هلكت ، قال : وما أهلكك ؟ قال : حَوَّلْتُ رَحْلِى البارحةَ » . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ وَاتَّقِ الدُّبُرَ وَالْحَيْضَةَ » .

ويروى أن عمرو بن العاص زوج ولده عبد الله رضى الله عنه فمكثت المرأة عنده ثلاث ليال لم يَدْنُ منها ، وإنما كان ملتفتاً إلى صلاته ، فدخل عمرو بعد ثلاث ، فقال : كيف ترين بَعْلك ؟ فقالت : نعم البَعْلُ إلا أنه لم يُفَتِّشْ لنا كنفاً ، ولا قَرُب لنا مَضْجَعاً . فقولها لم يفتش لنا كنفاً ولا قرب لنا مضجعاً من الكناية الغراء الظاهرة .

ومن ألطف ما بلغنى فى هذا قول عبد الله بن سلام ، فإنه رأى على رجل ثوباً معصفراً ، فقال : « لو أن ثوبك فى تَنُّور أهلك أو تحت قِدرهم كان خيراً » . فذهب الرجل وأحرقه نظراً إلى حقيقة قول عبد الله ، وظاهر مفهومه ، وإنما أراد

المجاز منه ، وهو لو صرفت ثمنه إلى دقيق تخبزه أو حطب تطبخ به كان خيراً ، والمعنى متجاذب بين هـذين الوجهين ، فالرجل فهم منه الظاهر الحقيقى فمضى وأحرق ثوبه ، ومراد عبد الله غيره .

ومن هذا القسم ما ورد من أمثال العرب ، كقولهم إياك وعَقيلةَ المِلْح . وذاك كناية عن المرأة الحسناء فى منبت السوء ، فإن عقيلة الملح هى اللؤلؤة تكون فى البحر ، فهى حسنة وموضعها ملح .

وكذلك قولهم : لبِسَ له جلد النمر ، كناية عن العداوة .

وقد يقاس على هذا أن يقال لبس له جلد الأسد ، ولَبس له جلد الذئب ، وليس له جلد الأرقم ، لأن هذا كله مثل قولهم لبس له جلد النمر ، إذ العداوة محتملة فى الجميع ، وكذلك قولهم : « قلب له ظهر المِجَنّ » كناية عن تغيير المودة .

ومما ورد فى ذلك شعراً قولُ أبى نواس :

لا أذودُ الطَّيْرَ عن شَجَرٍ قد بَلَوتُ المُرَّ من ثَمَرِه(١)

وهذا له حكاية ، وهو أنه كان لأبى نواس صديقة تغشاه ، فقيل له إنها تختلف إلى آخر من أهل الرِّيَبِ ، فلم يصدق ذلك حتى تبعها يوماً من الأيام ، فرآها تدخل منزل ذلك الرجل ، ثم إن ذلك الرجل جاءه وكان صديقاً له فكلمه ، فصرف وجهه عنه ، ثم نظم قصيدته المشهورة التى مطلعها « أيها المنتاب عن عُفُره » وهذا البيت من جملة أبياتها .

وكذلك ورد قوله أيضاً :

---

(١) من قصيدته فى مدح العباس بن عبيد الله ، التى مطلعها :

أيها المنتاب عن عفره لست من ليلى ولا من سمره

(الديوان ٤٢٧)

المنتاب : المتردد مرة بعد مرة . العفر : بسكون الفاء من ليالى الشهر السابعة والثامنة والتاسعة . وحرك الفاء لضرورة الشعر ، يقول : أيها الزائر للسمر والحديث لست منى ولست منك ، لأن ليلى لا يشبه ليلك ، وسمرى بعيد عن سمرك ، لأنى وفى وأنت غادر .

وناظرةٍ إلىّ من النِّقابِ   تلاحظنى بطرْفٍ مُسْترابِ
كشفتُ قِناعها فإذا عجوزٌ   مُمَوّهةُ المفـــارق بالخِضاب
فما زالتْ تُحَشِّنى طويلا   وتأخذ فى أحاديث التّصابى
تحـــاول أن يقوم أبو زياد   ودونَ قيـــامه شَيْبُ الغراب
أتت بجرابها تكتال فيه   فقامت وهى فارغةُ الجِراب[1]

فقوله : أتت بجرابها تكتال فيه كناية ، إذ الجراب يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ، وكذلك الكيل أيضاً .

ومما جاء من هذا الباب أيضا قول أبى تمام فى قصيدته التى يستعطف بها مالك بن طوْق على قومه التى مطلعها :

« أرْضٌ مُصَرَّدةٌ وأرض مُثْجَمُ »

مالى رأيت ترابكم يَبِسَ الثّرى   مالى أرى أطوادكم تتَهَدَّمُ[2]

فيبس الثرى كناية عن تَنَكُّر ذات البين ، تقول يبس الثرى بينى و بين فلان إذا تنكر الود الذى بينك و بينه ، وكذلك تهدم الأطواد ، فإنه كناية عن خفة الحلوم وطيش العقول .

---

(١) ليست فى الديوان .
(٢) مطلع القصيدة فى الديوان : أرض مصردة وأخرى تثجم .
مصردة : قليلة الرى والمطر . تثجم : يدوم عليها المطر .
والبيت فى الديوان هكذا :

مالى رأيت ترابكم يبساً له   مالى أرى أطوادكم تتهدم

الضمير فى (له) يعود على شخص مذكور فى القصيدة من قبل اسمه مالك ، أغضبه هؤلاء وهو عظيم جليل النفع . (الديوان ١٩٩)

ومن الكناية الحسنة قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته التى يعاتب فيها سيف الدولة بن حمدان التى مطلعها :

« وا حرّ قلباه ممن قلبه شَبِمُ »

وشَرُّ ما قَنَصَتْهُ راحتى قَنَصٌ شُهْبُ البُزاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ[1]

يشير بذلك إلى أن سيف الدولة يستوى فى المنال منه هو وغيره ، فهو البازى وغيره الرخَمَة ، وإن حمل المعنى على جانب الحقيقة كان جائزاً .

وعلى هذا ورد قول الأُقَيْشِر الأسدى ، وكان عِنِّينا لا يأتى النساء ، وكان كثيراً ما يصف ذلك من نفسه ، فجلس إليه يوما رجل من قيس فأنشد الأقيشر :

ولقد أروح بمُشْرِفٍ ذى ميعة عَسِرِ المَكَرَّةِ ماؤه يَتَفَصَّدُ
مَرِحٍ يطير من المِراح لُعابُه ويكاد جِلْدُ إهابه يَتَقَدَدُ[2]

---

(١) الديوان ٤/١١٦ مطلع القصيدة :

وا حر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمى وحالى عنده سقم

شبم : بارد . الشهب : جمع أشهب وهو ما فيه بياض يخالطه سواد ، الرخيم : جمع رخمة وهى طائر من الجوارح الكبيرة الجسم الوحشية الطباع ، قالوا إنه موصوف بالغدر والقذر . البزاة : جمع باز وهو ضرب من الصقور .

(٢) الميعة : المراد بها القوة والنشاط ، من ماع الشىء يميع إذا جرى على وجه الأرض منبسطا ، وماع الفرس إذا جرى .

يتفصد : يسيل ويجرى على الأرض .

والبيتان فى الأغانى (١٠/٨٣) هكذا

ولقد أروح بمشرف ذى شمرة عسر المكرة ماؤه يتفصد
مرح يطير من اللعاب مراحه وتكاد جلدته به تتقدد

والصواب الأقيشر كما فى الأغانى لا الأقيس كما فى الأصل . ويتفصد بالفاء لا بالقاف كما كانت بالأصل .

ثم قال له : أتبصر الشعرَ ؟ قال : نعم ، قال : فما وصفتُ ، قال : فرساً .
قال : أفكنت تركبه لو رأيته ؟ قال : إى والله وأَثْنِى عِطْفه ، فكشف له عن أيره ، وقال : هذا وصَفْتُ فقم واركبه ، فوثب الرجل عن مكانه ، وقال : قبحك الله من جليسٍ سائرَ اليوم .

وكذلك أيضا يحكى أنه وفد سعيد بن عبد الرحمن على هشام بن عبد الملك ، وكان جميل الوجه ، فاختلف إلى عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد ، فراوده عن نفسه ، فوثب من عنده ، ودخل على هشام وهو يقول :

إنه والله لولا أنت لم ينجُ منى سالما عبدُ الصمدْ

فقال هشام : ولِم ذلك ؟ قال :

إنه قد رام منى خِطَّةً لم يَرُمْها قبله منى أحدْ

قال : ما هى ؟ قال :

راح جهلا بى وجهلا بأبى يُدخِلُ الأفعى على حَبْسِ الأسد[1]

قال : فضحك هشام . وقال : لو فعلت به شيئاً لم أنكره عليك .

ومن ألطف ما سمعته فى هذا الباب قول أبى نواس فى الهجاء :

إذا ما كنت جارَ أبى حُسَيْنٍ فنَمْ ويداك فى طَرَفِ السِّلاحِ
فإن له نساءً سارقاتٍ إذا ما بِتْنَ أطرافَ الرماحِ
سَرَقْنَ وقد نزلتُ عليه أيْرى فلم أظفرْ به حتى الصَّباحِ

(١) حبس الأسد : المراد غيله ، لأن الحبس الجبل العظيم ونطاق الهودج وثوب يطرح على الفراش للنوم عليه .

فجاء وقد تخدَّش جانباه   يَئِنُّ إلىَّ من ألم الجراح(١)

فتعبيره عن العضو المشار إليه بأطراف الرماح تعبير فى غاية اللطافة والحسن .

وقد أُدْخِلَ فى باب الكناية ما ليس منه كقول نُصَيْب :

فعاجُوا فأثْنَوْا بالذى أنتَ أهله   ولو سكتوا أثْنَت عليك الحقائب(٢)

فهذا يروى عن الجاحظ ، وما أعلم كيف ذهب عليه مع شهرته بالمعرفة بفن الفصاحة والبلاغة ، فإن الكناية هو ما جاز حمله على جانب الحقيقة ، كما يجوز حمله على جانب المجاز ، وهاهنا لا يصح ذلك ولا يستقيم ، لأن الثناء للحقائب لا يكون إلا مجازاً ، وهذا من باب التشبيه المضمر الأداة الخارج عن الكناية ، والمراد به أن فى الحقائب من عطاياك ما يعرب عن الثناء ، لو سكت أصحابها عنه .

ما يقبح ذكره من الكناية :

وأما القسم المختص بما يقبح ذكره من الكناية فإنه لا يحسن استعماله ، لأنه عيب فى الكلام فاحش ، وذلك لعدم الفائدة المرادة من الكناية فيه .

فمما جاء منه قول الشريف الرضى يرثى امرأة :

« إن لم تكن نَصْلاً فَغِمْدُ نصال »(٣)

---

(١) ليست الأبيات فى ديوان أبى نواس المطبوع .

(٢) الصناعتين ٢١٤ وعيون الأخبار ٢٩٩/١ والأغانى ١٣٠/١ من مقطوعة فى مدح سليمان بن عبد الملك .

(٣) البيت فى الديوان هكذا .

إلا يكن نصلا فغمد نصول   غالته أحداث الزمان بغول

أولا يكن بأبى شبول ضيغم   تدمى أظافره فأم شبول

فى تعزية أبى سعيد على بن محمد بن أبى خلف عن أخت له توفيت .

(ديوان الشريف الرضى ٦٧٧/٢)

وفى هذا من سوء الكناية والاخفاء به ، فإن الوهم يسبق فى هذا الموضع إلى ما يقبح ذكره ، وهذا المعنى أخذه من قول الفرزدق، فمسخه وشوه صورته ، فإن الفرزدق رثى امرأته فقال :

وجَفْنُ سلاح قد رُزِئْتُ فلم أَنُحْ   عليه ولم أَبْعَثْ إليه البَوا كيا
وفى جوفه من دَارِمٍ ذو حفيظة   لو ان المنايا أَمْهَلَتْـــــه لياليا(١)

وهذا حسن بديع فى معناه ، وما كُنِى عن امرأة ماتت بجُمْعٍ(٢) أحسن من هذه الكناية ، ولا أفْخَمَ شأنا ، فجاء الشريف الرضى فأخذ معناها وفعل به ما ترى ، وليس كل من تصرف فى المعانى أحسن فى تصريفها ، وأبقى هذه الرموز فى تأليفها .

وقد عكس هذه القصة مع أبى الطيب المتنبى فأحسن فيما أساء به أبو الطيب طريق الكناية ، وأخطأ حيث قال :

إنى على شَغَفِى بما فى خُمْرِها   لأعِفُّ عما فى سَراويلاتها(٣)

وهذه كناية عن النزاهة والعفة إلا أن الفجور أحسن منها .

وقد أخذ الشريف الرضى هذا المعنى فأبرزه فى أحسن صورة حيث قال :

---

(١) البيتان فى الديوان هكذا .

وغمد سلاح قد رزئت فلم أنح   عليه ولم أبعث عليه البواكيا
وفى جوفه من دارم ذو حفيظة   لو ان الليالى أنسأته لياليا
(الديوان ٢/٨٩٤)

(٢) ماتت المرأة بجمع : مثلثة أى عذراء أو حاملا أو مثقلة والمراد هنا أنها حامل .

(٣) من قصيدته فى مدح أبى أيوب أحمد بن عمران (الديوان ١/٢٥٥) وقد ذكره أبو هلال فى الصناعتين وعابه ٣٧٠ . قال الصاحب بن عباد : كان الشعراء يصفون المآزر تنزيهاً لألفاظها عما يستشنع ، حتى تخطى هذا الشاعر المطبوع إلى التصريح ، وكثير من العهر أحسن عندى من هذا العفاف . واعتذر بعضهم عن المتنبى بأنه قال : سرابيلاتها ، جمع سربال وهو القميص ، وكذا رواه الخوارزمى ، يريد أنه مع حبه لوجههن يعف عن أبدانهن .

أحِنُّ إلى ماتضمنُ الخُمُرُ والحِلَى وأصْدِفُ عما فى ضَمان المآزر(١)

وأمثال هذا كثير ، وفيما ذكرناه من هذين المثالين مَقْنع .

وأما التعريض فقد سبق الإعلام به ، وعرفناك الفرق بينه وبين الكناية ، فمما جاء منه قوله تعالى : ﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال بل فعله كبيرُهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾(٢) ، وغرض إبراهيم عليه السلام من هذا الكلام إقامة الحجة عليهم ، لأنه قال : فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، وذلك على سبيل الاستهزاء ، وهذا من رموز الكلام ، والقول فيه أن قصد إبراهيم عليه السلام لم يرد به نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقديره لنفسه وإثباته على أسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجة عليهم والاستهزاء بهم ، وقد يقال فى هذا غير ما أشرت إليه ، وهو أن كبير الأصنام غضب أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها ، وغرض إبراهيم من ذلك أنه لا يجوز أن يعبد مع الله تعالى من هو دونه فإن من هو دونه مخلوق من مخلوقاته ، فجعل إحالة القول إلى كبير الأصنام مثالا لما أراده .

ومن هذا التقسيم أيضا قوله تعالى : ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادىَ الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾(٣) ، فقوله ما نراك إلا بشراً مثلنا تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة ، وأن الله لو أراد أن يجعلها فى أحد من البشر لجعلها فيهم ، فقالوا هب أنك واحد من الملأ وموازٍ لهم فى المنزلة ، فما جعلك أحق منهم بها ؟ ألا ترى إلى قولهم وما نرى لكم علينا من فضل .

---

(٤) من قصيدته فى مدح أبى سعيد بن خلف التى مطلعها :

بغير شفيع نال عفو القادر أخو الجد لا مستنصراً بالمعاذر

وفى الديوان (يحن) بدلا من (أحن) ويصدف بدلا من أصدف (الديوان ٣٤٣)

(٥) الأنبياء ٦٣ . (٦) هود ٢٧ .

وكان مروان بن الحكم واليا على المدينة من قِبَل معاوية ، فعزله ، فلما قدم إليه قال له : عزلتك لثلاث لو لم تكن إلا واحدة منهن لأوجبتْ عزلك : إحداهن أنى أمَّرتك على عبد الله بن عامر وبينكما ما بينكما فلم تستطع أن تشتفى منه ، والثانية كراهتك أمر زياد ، والثالثة أن ابنتى رَمْلَة استَعْدَتْكَ على زوجها عمر بن عثمان فلم تُعِذْها .

فقال له مروان : أما عبد الله بن عامر فإنى لا أنتصر منه فى سلطانى ، ولكن إذا تساوت الأقدام عَلِمَ أين موضعه ، وأما كراهتى أمر زياد فإن سائر بنى أمية كرهوه ، وأما استعداء رملة على عمر بن عثمان فوالله إنه لتأتى علىَّ سنة وأكثر وعندى بنت عثمان فما أكشف لها ثوبا . يريد بذلك أن رملة بنت معاوية إنما استعدت لطلب الجماع فقال له معاوية : يا ابن الوَزَغ[1] لست هناك ، فقال مروان : هو ذاك . وهذا من التعريضات اللطيفة .

ومثله فى اللطافة ما يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذلك أنه كان يخطب يوم الجمعة ، فدخل عليه عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقال له عمر : أيةُ ساعة هذه ؟ فقال عثمان : يا أمير المؤمنين انقلبتُ من أمر السوق فسمعت النداء ، فما زدت على أن توضأت . فقال عمر : والوضوء أيضا ، وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالغُسل[2] .

فقوله «أية ساعة هذه» تعريض بالإنكار عليه ، لتأخره عن المجىء إلى الصلاة ، وترك السَّبْق إليها ، وهو من التعريض المعرب عن الأدب .

ووقفت فى كتاب العِقد[3] على حكاية تعريضية حسنة الموقع ، هى أن

---

(١) الوزغ : الرجل الفاسد المريض الفسل . والوزغة محركة سام أبرص جمعها وزغ .

(٢) فى الصناعتين ١٦ ذكر لهذا الحوار موجز ، وفى نهايته : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « من أتى الجمعة فليغتسل » .

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه .

امرأة وقفت على قيس بن عُبادة فقالت : « أشكو إليك قلة الفأر فى بيتى » فقال : ما أحسن ما وَرَّتْ عن حاجتها ، املأوا بيتها خبزاً وسمنا ولحما .

ومن خفى التعريض وغامضه ما ورد فى الحديث الشريف ، وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج وهو محتضنٌ أحد ابْنَىْ بنته ، وهو يقول : « والله إنكم لتُجَبِّنون وتُبَخِّلون وتُجَهِّلون ، وإنكم من رَيْحان الله ، وإن آخر وطأة وطئها الله بوَجٍّ »[(١)] .

اعلم أن وجًّا بالطائف ، والمراد به غزاة حنين ، وحنينَ واد قِبَل وَجٍّ ، لأن غزاة حنين آخر غزاة أوقع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المشركين ، وأما غزوتا الطائف وتبوك اللتان كانتا بعد حنين فلم يكن فيها وطأةٌ أى قتال ، وإنما كانتا مجرد خروج إلى الغزو من غير ملاقاة عدو ولا قتال .

ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « وإن آخر وطأة وطئها الله بوج » على ماقبله من الحديث هو التأسف على مفارقة أولاده لقرب وفاته ، لأن غزوة حنين كانت فى شوال سنة ثمان ، ووفاته صلى الله عليه وسلم كانت فى ربيع الأول من سنة إحدى عشرة ، وبينهما سنتان ونصف ، فكأنه قال : وإنكم من ريحان الله أى من رزقه ، وأنا مفارقكم عن قريب ، إلا أنه صانَعَ عن قوله : وأنا مفارقكم عن قريب بقوله : وان آخر وطأة وطئها الله بوجٍّ ، وكان ذلك تعريضا بما أراده وقصده من قرب وفاته صلى الله عليه وسلم .

ومما ورد فى هذا الباب شعراً قول الشَّمَيْذَر الحارثى :

بَنِى عمنا لا تَذْكروا الشعرَ بَعْدَمَا ... دَفَنْتُم بصحراء الغُمَيْرِ القوافيا[(٢)]

---

(١) اسم واد بالطائف لا بلد به ومنه ، « آخر وطأة وطئها الله بوج » يريد غزوة حنين لا الطائف (القاموس المحيط مادة وج) .

(٢) الصواب الشميذر وكانت بالأصل الشميرد . ورد الشعر فى شرح ديوان الحماسة للمرزوق (١٢٤/١) وللتبريزى ٦١/١ .

الغمير على وزن زبير موضع قرب ذات عرق وموضع بديار بنى كلاب .

وليس قصده ها هنا الشعر بل قصده ما جرى لهم فى هذا الموضع من الظهور عليهم والغلبة ، الا أنه لم يذكر ذلك ، بل ذكر الشعر ، وجعله تعريضا لما قصده ، أى لا تفتخروا بعد تلك الوقعة التى جرت لكم ولنا بذلك المكان .

ومن أحسن التعريضات ما كتبه عمرو بن مسعدة الكاتب إلى المأمون فى أمر بعض أصحابه وهو : « أما بعد فقد استشفع بى فلان إلى أمير المؤمنين ، ليتطول فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة ، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تَعَدِّى طاعته » .

فوقع المأمون فى ظهر كتابه : « قد عرفت تصريحك وتعريضك لنفسك ، وقد أجبناك إليها »[1] .

واعلم أن هذين القسمين من الكناية والتعريض قد وردا فى غير اللغة العربية ، ووجدتهما فى اللغة السريانية ، فإن الإنجيل الذى فى أيدى النصارى قد أتى منهما بالكثير .

ومما وجدته من الكناية فى لغة الفرس : أنه كان رجل من أساورة[2] كسرى وخواصه ، فقيل له إن الملك يختلف إلى امرأتك ، فهجرها لذلك ، وترك فراشها ، فأخبرت كسرى ، فدعاه وقال له : قد بلغنى أن لك عيناً عذبة وأنك لا تشرب منها ، فما سبب ذلك ؟ قال : أيها الملك ، بلغنى أن الأسد يردها فخفته ، فاستحسن كسرى منه هذا الكلام ، وأسنى عطاءه .

---

(١) فى الصناعتين نص هذه الرسالة مع تغيير ٣٦٨ .

(٢) الأساورة : جمع أسوار بضم الهمزة وكسرها وهو القائد من الفرس أو هو الفارس .

النوع العشرون

فى المغالطات المعنوية

وهذا النوع من أحلى ما استعمل فى الكلام وألطفه ، لما فيه من التورية ، وحقيقته أن يذكر معنى من المعانى له مِثْلٌ فى شىء آخر ونقيض ، والنقيض أحسن موقعاً وألطف مأخذاً ، فالأول الذى يكون له مثل يقع فى الألفاظ المشتركة ، من ذلك قول أبى الطيب المتنبى :

يَشُلُّهُمُ بكل أقَبَّ نَهْدٍ لفارسِه على الخيل الخِيارُ
وكلُّ أصمَّ يَعْسِـــلُ جانباه على الكَعْبَيْنِ منه دمٌ مُمَارُ
يغادر كلَّ ملتفتٍ إليـــه ولبَّـــتُهُ لثَعْلَبِهِ وِجارُ(١)

فالثعلب هو هذا الحيوان المعروف ، والوجار اسم بيته ، والثعلب أيضا هو طرف سنان الرمح ، فلما اتفق الاسمان بين الثعلبين حسن ذكر الوجار فى طرف السنان ، وهذا نقل المعنى من مثله إلى مثله .

وعليه ورد قول المتنبى :

برَغْمِ شَبيبٍ فارق السيفَ كَفُّه وكانا على العِلاَّت يصطحبان

---

(١) من قصيدته فى مدح سيف الدولة لما أوقع ببنى عقيل وقشير وبنى العجلان وبنى كلاب حين عاثوا وخالفوا عليه (الديوان ٢/٢٤٣) .

يشلهم : يطردهم . الأقب : الضامر البطن . نهد : مرتفع . يقول إنه يطردهم بكل فرس ضامر نهد لفارسه الخيار ، إن شاء لحق وإن شاء سبق . أصم : رمح صلب ليس بأجوف . يعسل : يضطرب . ممار : مسال مهرق . يغادر : يترك والضمير للرمح . اللبة : أعلى الصدر . الثعلب . المراد هنا ما دخل من الرمح فى السنان . الوجار : بيت الوحش من ضبع وثعلب ونحوهما يقول : إن هذا الرمح يترك من يلتفت إليه من الأعداء ونحره مطعون يدخل ثعلبه فى نحره .

كأنْ رقابَ الناسِ قالتْ لسيفه ‏ ‏ رفيقُكَ قَيْسِيٌّ وأنت يمانى[1]

فإن شبيبا الخارجى الذى خرج على كافور الإخشيدى وقصد دمشق وحاصرها وقتل على حصارها كان من قيس ، ولم تزل بين قيس واليمن عداوات وحروب ، وأخبار ذلك مشهورة .

والسيف يقال له يمانى فى نسبته إلى اليمن ، ومراد المتنبى من هذا البيت أن شبيبا لما قتل وفارق السيف كفه فكأن الناس قالوا لسيفه أنت يمانى وصاحبك قيسى ، ولهذا جانبَهُ السيف وفارقه ، وهذه مغالطة حسنة ، وهى كالأولى إلا أنها أدق وأغمض .

وكذلك ورد قول بعضهم من أبيات يهجو بها شاعراً فجاء من جملتها قوله :

وَخَلَطْتُمُ بعضَ القُرانِ ببعضه ‏ ‏ فجعلتُم الشـعراء فى الأنعام

ومعنى هذا أن الشعراء اسم سورة من القرآن الكريم ، والأنعام اسم سورة أيضا ، والشعراء جمع شاعر ، والأنعام ما كان من الإبل والبقر .

وكذلك ورد بعض قول العراقيين يهجو رجلا كان على مذهب أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، ثم انتقل إلى مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعى رضى الله عنه :

مَنْ مبلغٌ عنى الوجيهَ رسَالةً ‏ ‏ وإن كان لا تُجْدِى لَدَيه الرسائلُ

---

(١) من قصيدته فى مدح كافور الإخشيدى بعد قتل شبيب العقيلى بدمشق سنة ٣٤٨ لما خرج عليه . ‏ ‏ (الديوان ٤/٤٧٢) .

كان شبيب من القرامطه ، وكانوا مع سيف الدولة ، وتولى شبيب معرة النعمان دهراً طويلا ، ثم اجتمع إليه جماعة من العرب فوق عشرة آلاف ، وأراد أن يخرج على كافور ، وقصد دمشق فحاصرها ، فيقال إن امرأة ألقت عليه رحى فصرعته فانهزم من كانوا معه ، ويقال إنه حدث به صرع من الخمر فتركه أصحابه ومضوا فأخذه أهل دمشق وقتلوه .

قيس : من قيس العدنانية . يمانى : من اليمانية .

وكان بين هؤلاء وأولئك شقاق وتنازع واختلاف ، يقول : كأن رقاب الناس أغرت بينه وبين سيفه لكثرة قطعه إياها ، فقالت لسيفه : إن شبيباً الذى يصاحبك قيسى وأنت يمنى ، والسيوف الجيدة تنسب إلى اليمن ، ففارقه سيفه لما عرف أنه مخالف له فى الأصل .

تمذهبتَ للنعمان بعد ابن حنبل وفارقته إذ أعوزتك المآكل
وما اخترتَ رأىَ الشافعى تديُّنا ولكنما تهوَى الذى منه حاصل
وعما قليلٍ أنتَ لا شكَّ صائرٌ إلى مالكٍ فافطَنْ لما أنا قائل

ومالك هو مالك بن أنس صاحب المذهب رضى الله عنه ، ومالك هو خازن النار ، وهذه مغالطة لطيفة .

ومن أحسن ما سمعته فى هذا الباب هو قول أبى العلاء ابن سليمان فى الإبل[1] :

صُلْبُ العصا بالضَّرب قد دمَّاها تودُّ أن الله قد أفناها
إذا أرادَتْ رَشَـــدا أغْواها محـــاله من رقه إياها[2]

فالضرب لفظ مشترك يطلق عَلَى الضرب بالعصا ، وعلى الضرب فى الأرض وهو السير فيها ، وكذلك دَمَّاها فإنه لفظ مشترك يطلق على شيئين أحدهما يقال دمّاه إذا أسال دمه ، ودماه إذا جعله كالدمية وهى الصورة ، وكذلك لفظ الفَنَا فإنه يطلق عَلَى عنب الثعلب ، وعلى إذهاب الشىء اذا لم يَبْقَ منه بقية ، يقال أفناه إذا أذهبه ، وأفناه إذا أطعمه الفَنَا وهو عنب الثعلب ، والرشد والغوى

(١) يريد الشاعر الفيلسوف أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى المولود بالمعرة سنة ٣٦٣ هـ والمتوفى بها سنة ٤٤٩ .

(٢) ليس البيتان بسقط الزند ولا باللزوميات وقد جاء بلسان العرب مادة (دى) : دى الراعى الماشية جعلها كالدمى ، وأنشد أبو العلاء :

صلب العصا برعية دماها يود أن الله قد أفناها

أى أنه أرعاها فسمنت حتى صارت كالدمى .

وذكر فى مادة (فنى) أن الراجز وصف راعى غنم فقال :

صلب العصا بالضرب قد دماها يقول نيث الله قد أفناها

وأفناها أى أنبت لها الفنا وهو عنب الذئب حتى تغزر وتسمن .

وجاء فى كتاب العصا لأسامة بن منقذ (نوادر المخطوطات ١٨٨) : « قال الراعى يصف راعياً :

صلب العصا بضربة دماها إذا أراد رشداً أغواها

والضربة هى السيرة والسفرة ، ودماها أى تركها كالدمية ، وأغواها أى أرعاها الغواء وهو نبت تسمن عليه الإبل » .

نبتان[٣] يقال أغواه إذا أضله ، وأغواه إذا أطعمه الغوى ، ويقال طلب رَشَداً إذا طلب ذلك النبت ، وطلب رشداً إذا طلب الهداية ، و بعض الناس يظن هذه الأبيات من باب اللغز ، وليس كذلك لأنها تشتمل على ألفاظ مشتركة ، وذلك معنى ظاهر يُستخرج من دلالة اللفظ عليه ، واللغز هو الذى يستخرج عن طريق الحَزْر والحَدْس ، لا من دلالة اللفظ عليه ، وسأوضح ذلك إيضاحا جليا فى النوع الحادى والعشرين ، وهو الذى يتلو هذا الباب ، فليؤخذ من هناك .

و يروى فى الأخبار الواردة فى غَزَاةِ بدر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان سائراً بأصحابه يقصد بدراً ، فلقيهم رجل من العرب فقال : مِمَّنِ القوم ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم من ماء ، فأخذ ذلك الرجل يفكرٍ و يقول من ماء من ماء ، لينظر أىّ بطون العرب يقال لها ماء ، فسار النبى صلى الله عليه وسلم لوجهته ، وكان قصده أن يكتم أمره .

وهذا من المغالطة المِثْلِيةَّ ، لأنه يجوز أن يكون المراد أنَّ خلقهم من ماء .

وقد جاءنى شىء من ذلك فى الكلام المنثور ، فمنه ما كتبته فى فصل من كتاب عند دخولى إلى بلاد الروم ، أصف فيه البرد والثلج ، فقلت : « ومن صفات هذا البرد أنه يعقد الدُّرَّ فى خَلْقِه ، والدمع فى طَرْفه ، وربما تعدَّى إلى قُلَيْب الخاطر فأجَفَّه أن يجرى بوصفه ، فالشمس مأسورة ، والنار مقرورة ، والأرض شَهْباء غير أنها حَوْلية ، ومَسِيلات الجبال أنهار غير أنها جامدة لم تُخَضْ » ومكان المغالطة من هذا الكلام فى قولى « والأرض شهباء غير أنها حولية لم تُرَضْ » فإن الشهباء من الخيل يقال فيها حولية أى لها حول ، ويقال إنها مُرَوَّضة أى ذُللت للركوب ، وهذه الأرض مضى للثلج عليها حول فهى شهباء حولية ، وقولى لم تُرَض أى لم تسلك بَعْدُ .

---

(٣) لم نجد فى اللسان ولا القاموس أن الرشد والغواء أو الغوى نوعان من النبات ، وإنما وجدنا أن حب الرشاد نبات وكذلك الفاغة .
والشطر الرابع غامض لعل فيه تصحيفاً لم نهتد إليه .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف كريم فقلت : «ولقد نزلتُ منه بمهلّبي الصنع أحنفيّ الأخلاق[١] ، ولقيته فكأنى لم أرَعْ ممن أُحِبُّ بلَوْعة الفراق ، ولا كرامة للأهل والوطن حتى أقول إنى قد استبدلت به أهلا ووطناً ، وعهدى بالأيام وهى من الإحسان فاطمة ، فاستولدتُها بجواره حُسْنا » .

وهذه تورية لطيفة ، فإن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن رضى الله عنهما ولدها ، وفاطمة هى اسم فاعل من الفِطام ، يقال فَطَمَتْ فهى فاطمة ، كما يقال فُطِمَ فهو فاطِم[٢] ، والحسن هو الشىء الحسن الأسلوب .

ومن هذا الأسلوب ما كتبته فى فصل من كتاب إلى بعض الإخوان فقلت : « وعهدى بقلمى وهو يتحلى من البيان بأسمائه ، وتبرُزُ أنوار المعانى من ظلمائه ، وقد أصبحتْ يدى منه وهى حمّالة الحطب ، وأصبح خاطرى أبا جهل بعد أن كان أبا لهب » .

وهذا أحسن من الأول وأخلب عبارة ، فانظر أيها المتأمل إلى ما فيه من التورية اللطيفة ، ألا ترى أن الخاطر يُحمد فيوصف بأنه وقاد وملتهب ، ويُذمّ فيوصف بأنه بليد وجاهل ؟ وأبو لهب وأبو جهل هما الرجلان المعروفان ، وكذلك حمالة الحطب هى المرأة المعروفة ، وإذا ذمّ القلم قيل انه حَطَبٌ ، وإن صاحبه حاطب ، فلما نقلت أنا هذا المعنى الذى قصدته جئت به على حكم المغالطة ، وورّيتُ فيه تورية .

والمسلك الى مثل هذه المعانى وتصحيح المقصد فيها عسر جدا ، لا جرم أن الإجادة فيها قليلة .

---

(١) مهلبي : نسبة إلى المهلب بن أبى صفرة القائد الباسل الذى حارب الخوارج مرات، وكان كريماً ممدحا . أحنفى : نسبة إلى الأحنف بن قيس عاش إلى الدولة الأموية وكان مشهوراً بالحلم وكرم الخلق .

(٢) فى القاموس المحيط مادة فطم : ناقة فاطم بلغ حوارها سنة . وأفطمت السخلة حان أن تفطم ، فإذا فطمت فهى فاطم ومفطومة .

ومما يجرى هذا المجرى ما ذكرته فى وصف شخص بمعالى الأمور وهو : « من أبَرّ مساعيه أنه حاز قفلَ المكرُمات ومفتاحها ، فإذا سئل مَنْقَبَةً كان منّاعها ، وإذا سئل مَوْهبة كان مَنّاحها ، وأحسنُ أثراً من ذلك أنه أخذ بأعِنَّة الصِّعاب وألان جِماحَها ، فإذا شهد حَوْمَةَ حرب كان منصورها ، وإذا لقى مُهْجَةَ خَطْب كان سَفّاحها » .

والمغالطة فى هذا الكلام فى ذكر المنصور والسفاح ، فإنهما لقب خليفتين من بنى العباس ، والسفاح أول خلفائهم ، والمنصور أخوه الذى ولى الخلافة من بعده ، وهما أيضا من النصر فى حومة الحرب ، والسفح الذى هو الإراقة ، والمهجة دم القلب ، فكأنى قلت هو منصور فى حومة الحرب ومُرِيقٌ لدم الخطوب ، وقد اجتمع فى هذا الكلام المنصور والمنصور والسفاح والسفاح ، وهذا من المغالطة المِثْلية لا من النقيضية ، ولا خفاء بما فيها من الحسن .

ومن ذلك ما كتبته فى كتاب إلى بعض الإخوان فقلت : « وقد علمتُ أن ذلك الأُنس بقربه يُعْقِبُ إيحاشا ، وأن تلك النَّهلة من لقائه تجعل الأكباد عطاشا ، فإن شيمة الدهر أن يُبَدِّل الصَّفْوَ كَدَرا ويوسع أيام عقوقه طولاً ، وأيام بِرِّه قِصراً ، وما أقول إلا أنه شَعَرَ بتلك المسَرة المسروقة فأقام عليها حَدَّ القطع ، ورأى العيش فيها خَفْضا فأزاله بعامل الرفع » .

والمغالطة فى هذا الكلام هى فى ذكر الخفض والرفع ، فإن الخفض هو سعة العيش ، والخفض هو أحد العوامل النحوية ، والرفع هو من قولنا رفعت الشىء إذا أزلته ، والرفع هو أحد العوامل النحوية أيضا ، وهذا من المغالطات الخفية .

ومن ذلك ما كتبته فى فصل أصف فيه الحُمَّى وكنت إذ ذاك بحصن سُمَيْسَاط وهو بلد من بلاد الأرمن ، فقلت : « ومِمَّا أكره فى حال المرض بهذه الأرض أن الحمى خَيَّمتْ بها فاستقرت . ولم تقنع بأهلها حتى سَرَتْ إلى تربتها ، فتُرَى

وقد أخذتها النّافض[1] فاقشعرّت ، ولم يُشكل أمرها إلا لأنها حمى أَزْمَنِيَّة مُسْتَعْجِمَةُ اللسان ، وقد تشتبه الأمراضُ وأهلُ بلادها فى الإبّان ، وإذا كانت الحمى كافرةً لم تزل للمسلم حَرْبًا ، وشَكاتُها لا تُسَمَّى شَكاة ، وإنما تسمى طعنا وضربا ، ولهـذا صارت الأدوية فى علاجها ليست بأدوية ، وأصبحت أيام نحرها فى الناس غير مبتدأة بأيام تَرْوِيَةٍ ، وليس موسمها فى فصل معلوم بل كل فصول العام من مواسمها ، ولو كاتَبَتُها نَصيبين أو مَيّا فارقين بكتاب لترجمته بعبدها وخادمها » .

والمغالطة هاهنا فى قولى : وأصبحت أيام نَحْرِها فى الناس مبتدأة بأيام تروية ، والمراد بذلك أنها تُقبِل بغتة من غير تَرَوٍّ أى من غير تلبث ، ويوم النحر هو يوم عيد الأضحى ، وقبله يوم يُسَمَّى يوم التروية ، فالمغالطة حصلت بين نحر الحمى للناس ونحر الضحايا ، إلا أن يوم النحر مبتدأ بيوم تَرْوِيَة ، ولاخفاء بما فى هذه المغالطة من الحسن واللطافة .

وأما القسم الآخر وهو النقيض فإنه أقل استعمالا من القسم الذى قبله ، لأنه لا يتهيأ استعماله كثيراً .

فن جملته ما ورد شعراً لبعضهم وهو قوله :

وما أشـــياء تَشْرِيها بمالٍ ... فإن نَفَقَتْ فأكسدُ ما تكونُ

يقال نَفَقَتِ السلعة إذا راجت وكان لها سوق ، ونَفقت الدابة إذا ماتت ، وموضع المناقضة هاهنا فى قوله إنها إذا نفقت كسدت ، فجاء بالشيء ونقيضه ، وجعل هذا سبباً لهذا ، وذلك من المغالطة الحسنة .

ومن ذلك ما كتبته فى جملة كتاب إلى ديوان الخلافة يتضمن فتوح بلد من

---

(١) النافض : حمى الرعدة مذكر . يقال أخذته حمى بنافض وحمى نافض ، ونفضته الحمى فهو منفوض .

بلاد الكفار ، فقلت فى آخر الكتاب : وقد ارتاد الخادم من يُبَلِّغ عنه مشاريعَ هذه الوقائع التى اختصرَها ، ويمثل صورها لمن غاب عنها كما تمثَّلَتْ لمن حضرها ، ويكون مكانه من النباهة كريما كمكانها ، وهى عرائس المساعى ، فأحسن الناس بيانا مؤهَّلٌ لإبداع حِسانِها ، والسائر بها فلان ، وهو راوى أخبارِ نصرها ، التى صِحَّتُها فى تجريح الرجال ، وعوالى إسنادها مأخوذة من طرف العوال ، والليالى والأيام لها رُوَاة ، فما الظن برواية الأيام والليال » ،

فى هذا الفصل مغالطة نقيضية ومغالطة مثلية ، أما المغالطة المثلية فهى فى قولى « وعوالى أسنادها مأخوذة من طرف العوالى » وقد تقدم الكلام على هذا وما يجرى مجراه فى القسم الأول ، وأما المغالطة النقيضية فهى قولى : « وهو راوى أخبار نصرها التى صحتها فى تجريح الرجال » وموضع المغالطة منه أنه يقال فى رواة الأخبار فلان عَدْلٌ صحيح الرواية ، وفلان مجروح أى سقيم الرواية ، غير موثوق به ، فأتيتُ بهذا المعنى على وجه النقيض ، فقلتَ صحة أخبار هذه الفتوح فى تجريح الرجال أى تجريحهم فى الحرب ، وفى هذا من الحسن مالا خفاء به .

وقد أوردت من هذه الأمثلة ما فيه كفاية ومقنع .

فإن قيل إن الضرب الأول من هذا النوع هو التجنيس الذى لفظه واحد ومعناه مختلف كالمثال الذى مثلته ، وفى قول أبى الطيب ثعلب وجار ، فإن الثعلب هو الحيوان المعروف وهو أيضا طرف السنان ، وكذلك باقى الأمثلة ، قلت فى الجواب إن الفرق بين هذين النوعين ظاهر ، وذاك أن التجنيس يذكر فيه اللفظ الواحد مرتين ، فهو يستوى فى الصورة ويختلف فى المعنى ، كقول أبى تمّام :

بكل فتى ضَرْبٍ يُعَرِّضُ للقنا ... مُحَيًّا مُحلّى حليُه الطعنُ والضّربُ(١)

---

(١) من قصيدته فى مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى (الديوان ١/١٩٩) . المحيا : الوجه .

فالضَّرْب الرجل الخفيف ، والضَّرب هو الضرب بالسيف فى القتال ، فاللفظ لابد من ذكره مرتين والمعنى فيه مختلف ، والمغالطة ليست كذلك ، بل يذكر فيها اللفظ مرة واحدة ، ويُدَلُّ به على مثله وليس بمذكور .

النوع الحادى والعشرون

فى الأحاجى

وهى الأغاليط من الكلام ، وتسمى الألغاز جمع لغز(1) ، وهو الطريق الذى يلتوى ويشكل على سالكه ، وقيل جمع لَغز بفتح اللام وهو ميلك بالشىء عن وجهه ، وقد يسمى هذا النوع أيضاً المعمَّى ، وهو يشتبه بالكناية تارة وبالتعريض أخرى ، ويشتبه أيضاً بالمغالطات المعنوية ، ووقع فى ذلك عامة أرباب هذا الفن ، فمن ذلك أن أبا الفرج الأصفهانى ذكر بيتى الأُقَيْشِر الأسدى فى فى جملة الألغاز وهما :

ولقد أروح بمُشْرِف ذى مَيْعة عَسِر المكرة ماؤه يَتَفصَّدُ
مَرِحٍ يطير من المِراح لعابُهُ ويكاد جلد إهابه يتقدَّد(2)

وهذان البيتان من باب الكناية ، لأنهما يحملان على الفرس وعلى العضو المخصوص ، وإذا حمل اللفظ على الحقيقة والمجاز فكيف يعد من جملة الألغاز ؟ وكذلك فعل الحريرى فى مقاماته فإنه ذكر فى الأحاجى التى جعلها على حكم الفتاوى كناية ومغالطة معنوية ، وظن أنهما من الأحاجى المُلْغِزة ، كقوله :

---

(١) اللغز على وزن نهر وعلى وزن قفل وبضم اللام والغين معاً ، وبتحريكهما ، وبضم اللام وفتح الغين : الميل بالشىء عن وجهه (القاموس المحيط)

(٢) البيتان فى الأغانى للأُقيشر الأسدى لا الأقيس كما فى الأصل ، هكذا :

ولقد أروح بمشرف ذى شمرة عسر المكرة ماؤه يتفصدَ
مرح يطير من المراح لعابه وتكاد جلدته به تتقدد

(الأغانى ١٠ / ٨٢) طبعة التقدم . والصواب يتفصد بالفاء لا بالقاف . وسبق قد شرحهما .

« أيحلُّ للصائم أن يأكل نهاراً »(١) والنهار من الأسماء المشتركة بين النهار الذي هو ضد الليل وبين فرخ الحُبَارَى فإنه يسمى نهاراً ، وإذا كان من الأسماء المشتركة صار من باب المغالطات المعنوية لا من باب الأحاجى ، والألغاز شيء منفصل عن ذلك كله ، ولو كان من جملته لما قيل لغز وأُحْجِيَّة ، وإنما قيل كناية وتعريض ، ومنه ما يطلق عليه المغالطة ، ومنه شيء آخر خارج عن ذلك فجعل لغزاً وأحجيَّةً .

وكنت قدمت القول بأن الكناية هي اللفظ الدال على جانب الحقيقة وعلى جانب المجاز ، فهو يحمل عليهما معاً ، وأن التعريض هو ما يفهم من عُرْض اللفظ لا من دلالته عليه حقيقة ولا مجازا ، وأن المغالطة هي التي تطلق ويراد بها شيئان أحدهما دلالة اللفظ على معنيين بالاشتراك الوضعي ، والآخر دلالة اللفظ على المعنى ونقيضه ، وأما اللغز والأحجية فإنهما شيء واحد ، وهو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ومجازا ، ولا يفهم من عرضه ، لأن قول القائل في الضرس :

وصاحبٍ لا أملُّ الدهرَ صُحْبَتَهُ ... يَشْـقَى لنفعِى ويسعى سَعْىَ مُجْتَهِدِ

ما إن رأيت له شخصا فمذ وقعتْ ... عَيْـنى عليـه افترقنا فُرقَةَ الأبد

لا يدل على أنه الضرس لا من طريق الحقيقة ولا من طريق المجاز ولا من

(١) المقامة الثانية والثلاثون ، فيها مائة مسألة فقهية ملغزة ، منها : أيجوز للمعذور أن يفطر في شهر رمضان ، قال : ما رخص فيه إلا للصبيان . قال : فهل للمعرس أن يأكل فيه ، قال : نعم بملء فيه . المعذور : المتبادر أن المعذور من أصابه عذر يحل له الفطر وهو أيضاً المختون فلا يسوغ له الفطر ، وهنا تورية . المعرس : من دخل بعرسه ، وهو لا يجوز له أن يفطر ، وهو أيضا المسافر الذي ينزل في آخر ليـلة ليستريح ثم يرتحل ، وهو ممن يباح لهم الفطر .

طريق المفهوم ، وإنما هو شيء يُحْدَسُ ويُحزَر ، والخواطر تختلف فى الإسراع والإبطاء عند عثورها عليه .

فإن قيل إن اللغز يعرف من طريق المفهوم ، وهذان البيتان يعلم معناهما بالمفهوم .

قلت فى الجواب : إن الذى يعلم بالمفهوم إنما هو التعريض ، كقول القائل إنى لفقير وإنى لمحتاج ، فإن هذا القول لا يدل على المسألة والطلب لا حقيقة ولا مجازا ، وإنما فُهِمَ منه أن صاحبه متعرض للطلب ، وهذان البيتان ليسا كذلك ، فإنهما لا يَشْتَمِلان على ما يفهم منه شيء إلا بالحدس والحزر لا غير ، وكذلك كل لغز من الألغاز .

وإذا ثبت هذا فاعلم أن هذا الباب الذى هو اللغز والأُحْجِيَّة والمُعَمَّى يتنوع أنواعا :

فمنه المصحَّف ، ومنه المعكوس ، ومنه ما ينقل إلى اللغات غير العربية ، كقول القائل اسمى إذا صحفته بالفارسية آخر ، وهذا اسمه اسم تركى ، وهو دنكر بالدال المهملة والنون ، وآخر بالفارسية ديكر بالدال المهملة والياء المعجمة بنقطتين من تحت ، وإذا صحفت هذه الكلمة صارت دنكر بالنون ، فانقلبت الياء نوناً بالتصحيف ، وهذا غير مفهوم إلا لبعض الناس دون بعض .

وإنما وضع واستعمل لأنه مما يشحذ القريحة ويُحِدُّ الخاطر ، لأنه يشتمل على معان دقيقة يحتاج فى استخراجها إلى توقد الذهن والسلوك فى معاريجَ خفية من الفكر ، وقد استعمله العرب فى أشعارهم قليلا ، ثم جاء المحدَثون فأكثروا منه ، وربما أُتِى منه بما يكون حسنا وعليه مَسْحَةٌ من البلاغة ، وذلك عندى بَيْنَ بَيْنَ ، فلا أعده من الأحاجى ولا أعده من فصيح الكلام .

فمما جاء منه قول بعضهم :

قد سُقِيَتْ آبالهم بالنار   والنارُ قد تشْفى من الأُوارِ

ومعنى ذلك أن هؤلاء القوم الذين هم أصحاب الإبل ذوو وجاهة وتقدم ولهم وَسْم معلوم ، فلما وردت إبلهم الماء عُرفتْ بذلك الوَسْم ، فأفرجَ لها الناس حتى شربت ، وقد اتفق له أنه أتى فى هذا البيت بالشىء وضده ، وجعل أحدهما سبباً للآخر ، فصار غريبا عجيبا ، وذلك أنه قال سُقيت بالنار ، وقال إن النار تَشْفى من الأوار ، وهو العطاش ، وهذا من محاسن ما يأتى فى هذا الباب .

ومما يجرى على هذا النهج قول أبى نواس فى شجر الكرم :

لنا هَجْمةٌ لا يُدرك الذئبُ سَخْلها ولا راءها نَزْوُ الفِحالة والخِطرُ

إذا امتُحِنَتْ ألوانُها مال صَفْوُها إلى الحوِّ إلاّ أن أوبارها خضر[1]

ومن هذا القبيل قول بعضهم :

سَبْعُ رواحلُ ما يُنِخْنَ من الوَنَا شِيمٌ تُساقُ بسبعةٍ زُهْر

متواصلاتٌ لا الدُّءوبُ يُمِلُّها باقٍ تعاقُبها على الدهر[2]

هذان البيتان يتضمنان وصف أيام لزمان ولياليه وهى الأسبوع ، فإن الزمان عبارة عنه ، وذلك من الألغاز الواقعة فى موقعها .

وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبى الطيب المتنبى فى السفن من جملة قصيدته التى مدح بها سيف الدولة عند ذكر عبوره الفرات وهى :

(الرأى قبل شجاعة الشجعان) فقال :

---

(١) الديوان ١٠٢ وفى الأصل لا يدرى بدلا من لا يدرك ، وغض بدلا من نزو . الهجمة : القدح العظيم الضخم . السخل : جمع سخلة وهى ولد الشاة . نزو : وثب . الفحالة : جمع الفحل . الخطر : الإبل الكثيرة . الحو : الذى فى القاموس الحو سواد إلى خضرة أو حمرة إلى سواد . والحو جمع أحوى وحواء وهو النبات الضارب إلى سواد لشدة خضرته أو الأحمر إلى سواد .

(٢) شيم : جمع أشيم وشيماء وهو الذى به علامة .

وحَشَاهُ عادية بغير قوائمٍ عُقْمَ البُطونِ حوالكَ الألوانِ
تأتى بما سَبَتَ الخيولُ كأنها تحت الحِسانِ مرابضُ الغِزْلان[١]

وهذا حسن فى بابه .

ومن ذلك قول بعضهم فى حَجَر المَحَكّ :

ومُدْرعٍ من صِبْغة الليل بُرْدَةُ يُفوّفُ طوْرًا بالنُّضار ويُطلَسُ
إذا سألوه عن هَوٍ يعتَيْنِ أشْـكَلا أجاب بما أعْيَا الورَى وهو أخْرَسُ

وهذا من اللطافة على ما يشهد لنفسه ، وكان سمعه بعض المتأخرين من أهل زماننا فأجاب عنه ببيتين على وزنه وقافيته وهما :

سؤالُك جلودٌ من الصَّخْر أسودٌ خفيفٌ لطيفٌ ناعمُ الجسم أطلسُ
أُقيمَ بسُوقِ الصَّرْفِ حَـكَمًا كأنه من الزَّنج قاضٍ بالخَلُوقِ مُطَلَّسُ

وقد رأيت هذا الشاعر وهو حائك بجزيرة ابن عمر ، وليس عنده من أسباب الأدب شيء سوى أنه قد أصلح لسانه بطرف يسير من علم النحو لا غير ، وهو مع ذلك يقول الشعر طبعا ، وكان يجيد فى الـكثير منه .

ومن الألغاز ما يرد على حكم المسائل الفقهية ، كالذى أورده الحريرى فى مقاماته[٢] . وكنت سئلت عن مسألة منه وهى :

---

(١) من قصيدة فى مدح سيف الدولة (الديوان ٤/٣٨٩) حشاه : الضمير عائد على الماء . عادية : راكضة . عقم : جمع عقيم وهو الذى لا يلد . يقول إن سيف الدولة حشا ماء النهر سفنا تعدو ولا قوائم لها ، وهى عقم لا تلد ، وألوانها سود لأنها مطلية بالقار ، شبهها بالخيل العادية ، والخيـل من عادتها أن تنتج ، ولها قوائم ، وهذه السفن تحمل النساء اللاتى سباهن الفرسان ، وكأنهن غزلان والسفن مرابض لها . (٢) يفوف : يزخرف . رجحنا (صبغة) بدلا من صنعة .

(٢) المقامة الثانية والثلاثون بها مائة مسألة فقهية ملغزة ، وهناك مقامات غيرها فيها ألغاز شتى من النحو وغيره .

ولى خالةٌ وأنا خالها ولى عَمّةٌ وأنا عمُّها
فأما التى أنا عمٌّ لها فإن أبى أمُّه أمُّها
أبوها أخى وأخوها أبى ولى خالة هكذا حُكْمُها
فأين الفقيه الذى عنده فنونُ الدِّراية أو عِلْمُها
يُبينُ لنا نسبا خالصا ويكشفُ للنفس ما هَمُّها
فلسنا مجوسا ولا مشركين شريعةُ أحمد أُمُّها

وهذه المسألة كُتبت إلىّ فتأملتها تأمل غيرُ مُلَجْلج فى الفكر ، ولم ألبث أن انكشف لى ما تحتها من اللغز ، وهو أن الخالة التى الرجل خالها تصور على هذه الصورة ، وذاك أن رجلا تزوج امرأتين اسم إحداهما عائشة واسم الأخرى فاطمة ، فأولد عائشة بنتا وأولد فاطمة ابنا ، ثم زوج بنته من أبى امرأته فاطمة ، فجاءت ببنت ، فتلك البنت هى خالة ابنه ، وهو خالها ، لأنه أخو أمها .

وأما العمة التى هو عمها فصورتها أن رجلا له ولد ولولده أخ من أمه فزوج أخاه من أمه أم أبيه فجاءت ببنت ، فتلك البنت هى عمته ، لأنها أخت أبيه ، وهو عمها لأنه أخو أبيها .

وأما قوله ولى خالة هكذا حكمها ، فهو أن تكون أمها أخته ، وأختها أمه كما قال أبوها أخى وأخوها أبى ، وصورتها أن رجلا له ولد ولولده أخت من أمه فزوجها من أبى أمه ، فجاءت ببنت ، فأختها أمه وأمها أخته .

وأحسن من ذلك كله وألطف وأحلى قول بعضهم فى الخلخال :

ومضروبٍ بلا جُرْم مليح اللون معشوقِ
له قدُّ الهلال على مليحِ القدِّ ممشوق
وأكثر ما يُرَى أبداً على الأمشاط فى السُّوق

وبلغنى أن بعض الناس سمع هـذه الأبيات فقال : قد دخلت السوق فما رأيت على الأمشاط شيئاً ، وظنّ أنها الأمشاط التى يُرَجّل بها الشعر ، وأن السوق سوق البيع والشراء .

واعلم أنه قد يأتى من هذا النوع ما هو ضروب وألوان ، فمنه الحَسَنُ الذى أوردت شيئا منه كما تراه ، ومنه المتوسط الذى هو دونه فى الدرجة ، فلا يوصف بحُسْنٍ ولا قُبْح ، كقول بعضهم :

راحَتْ ركائبهم وفى أكوارها ألفان من عُمٍّ الأُثَيْل الوَاعِدِ
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بأرْكُبٍ حَمَلَتْ حدائق كالظلام الراكد[1]

وهذا يصف قوماً وفدوا على ملك من الملوك ، فأعطاهم نخلا ، وكتب لهم بها كتاباً ، والأُثَيْل الموضع الذى كتب لهم إليه ، والعُمّ العظام الرءوس من النخيل ، والواعد الاقناء[2] من النخيل ، فلما حملوا الكتب فى أكوارهم فكأنهم حملوا النخل ، وهـذا من متوسط الألغاز .

وقد جاء من ذلك ما هو بشع بارد فلا يستخرج إلا بمسائل الجبر والمقابلة أو بخطوط الرمل من القبض الداخل أو القبض الخارج والبياض والحمرة وغيرها ، ولئن كان معناه دقيقاً يدل على فَرْطِ الذكاء فإنى لا أعده من اللغة العربية ، فضلا عن أن يوصف بصفات الكلام المحمودة ، ولا فرق بينه وبين لغة الفرس والروم وغيرها من اللغات فى عدم الفهم .

وأما ما ورد من الألغاز نثراً فقد ألغز الحريرى فى مقاماته ألغازاً ضمنها ذكر

---

(١) كان البيت الثانى (ما إن رأيت ولا بأركب هكذا) فرجحنا تصحيحه ليستقيم المعنى ، وأغلب الظن أن كلمة (هكذا) مقحمة لما وجد الناسخ أن فى الشطر كلمة ناقصة (ما إن رأيت ولا سمعت) فلما لم يجد كلمة (بأركب) كتب : هكذا .

(٢) جمع قنو بكسر القاف وضمها الكباسة

الإبرة والمِزْوَد وذِكر الدينار وهى أشهر كما يقال من « قفا نبك »(١) فلا حاجة إلى إيرادها فى كتابى هذا .

وقد ورد من الألغاز شىء فى كلام العرب المنثور ، غير أنه قليل بالنسبة إلى ما ورد فى أشعارها .

وقد تأملت القرآن الكريم فلم أجد فيه شيئاً منها ، ولا ينبغى أن يتضمن منها شيئا ، لأنه لا يستنبط بالحَدْس والحَزْر كما تستنبط الألغاز ،

وأما ما ورد للعرب فيروى عن امرىء القيس وزوجته عدةٌ من الألغاز ، وذلك أنه سألها قبل أن يتزوجها فقال : ما اثنان وأربعةٌ وثمانية ؟ فقالت : أما الاثنان فثديا المرأة ، وأما الأربعة فأخلاف الناقة ، وأما الثمانية فأطباء الكلبة ، ثم إنه تزوجها وأرسل إليها هدية على يد عبد له ، وهى حُلة من عَصْب(٢) اليمن ونِحْىٌ من عسل ، ونِحْىٌ من سمن ، فنزل العبد ببعض المياه ولبس الحلة فعلق طرفها بسَمُرة(٣) فانشق ، وفتح النِّحيين وأطعم أهلَ الماء ، ثم قدم على المرأة وأهلها خُلوفٌ(٤) ، فسأل عن أبيها وأمها وأخيها ودفع إليها الهدية ، فقالت له : أعلم مولاك أن أبى ذهب يُقَرِّبُ بعيداً ويُبْعِد قريبا ، وأن أمى ذهبت تَشُق النَّفْس نفسين ، وأن أخى يَرْقُبُ الشمس ، وأخبره أن سماءكم انشقت ، وأن وعاءيكم نَضِبَا .

وعاد العبد إلى امرىء القيس وأخبره بما قالته له ، فقال : أما أبوها فإنه ذهب يحالف قوما على قومه ، وأما أمها فإنها ذهبت تَقبلُ امرأة(٥) ، وأما أخوها فانه فى سَرْح يرعاه إلى أن تغرب الشمس ، وأما قولها إن سماءكم انشقت فإن

(١) مشهورة كقصيدة امرىء القيس التى مطلعها « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل »
(٢) العصْب : ضرب من البرود . النحى : زق السمن .
(٣) السمرة : شجرة شائكة جمعها سمر .
(٤) خلوف : غائبون عن الحى .
(٥) تقبل على وزن تعلم : أى تتلقى الولد عند الولادة .

الحلق انشقت ، وأما قولها إن وعاءيكم نضبا فإن النّحيين نقصا ، ثم قال للعبد : اصْدُقنى ، فقال له : إنى نزلت بماء من مياه العرب وفعلت كذا وكذا .

فهذا وأمثاله قد ورد عنهم إلا أنه يسير

وكذلك يروى عن شَنّ بن أفصى وكان ألزم نفسه ألا يتزوج إلا امرأة تلائمه ، فصاحبه رجل فى بعض أسفاره ، فلما أخذ منهما السير قال له شَنّ : أتحملُنى أم أحملك ؟ فقال له الرجل : ياجاهل هل يحمل الراكب راكبا ؟ فأمسك عنه ، وسارا حتى أتيا على زرع ، فقال شَنّ : أترى هذا الزرع قد أُكل ؟ فقال له يا جاهل : أما تراه فى سنبله ، فأمسك عنهُ .

ثم سارا ، فاستقبلتهما جنازة ، فقال شَنّ أترى صاحبها حيًّا ؟ فقال له الرجل : ما رأيتُ أجهل منك ، أتراهم حملوا إلى القبر حيًّا ؟

ثم إنهما وصلا الى قرية الرجل فسار به الى بيته ، وكانت له بنت فأخذ يُطرفها بحديث رفيقه ، فقالت ما نطق الا بالصواب ، ولا استفهم الا عما يُستفهَمُ عن مثله . أما قولهُ : أتحملنى أم أحملك فإنه أراد أتحدثنى أم أحدثك حتى نقطع الطريق بالحديث .

وأما قولهُ أترى هذا الزرع قد أُكل ، فإنهُ أراد هل استلف ربهُ ثمنهُ أم لا ؟ وأما استفهامه عن صاحب الجنازة فإنهُ أراد هل خلَّف لهُ عَقِبًا يحيا بذكره أم لا فلما سمع كلام ابنته خرج الى شَنّ وحدثهُ بتأويلها ، فخطبها فزوّجهُ إياها .

وأدق من هذا كله وألطف ما يحكى عن رجل من المناقذة أصحاب شيزر وهو أولهم الذى استنقذه من أيدى الروم بالمكر والخديعة ، ولذلك قصة طريفة وليس هذا موضع ذكرها ، وكان قبل ملكه فى خدمة محمود بن صالح صاحب حلب ، وَكان اذ ذاك يلقب بسَديد الملك ، فنبا به مكانه ، وحدثت له حادثة أَوجبت له أن هرب ومضى الى مدينة طَرابُلس(١) فى زمن بنى عمار أصحاب

---

(١) بلد بالشام ، بفتح الطاء وضم الباء واللام . وكانت فى الأصل ترابلس .

البلد ، فأرسل إليه ابن صالح واستعطفه ليعود اليه . مخافةً ولم يعد ، فأحضر ابن صالح رجلا من أهل حلب صديقاً لابن مُنْقِذ وبينه وبينه لُحْمة مَوَدّةٍ أكيدة ، وأجلسه بين يديه ، وأمره أن يكتب إليه كتابا عن نفسه يُوَثّقه من جهة ابن صالح ليعود ، فما وسعه إلا أن يكتب ، وهو يعلم أن باطن الأمر فى ذلك خلافُ ظاهره ، وأنه متى عاد ابن منقذ إلى حلب هَلَكَ ، فأفكر وهو يكتب فى إشارة عمياء لا تُفْهَمُ ، ليضعها فيه يحذر بها ابن منقذ ، فأداه فكره أن كتب فى آخر الكتاب عند إنهائه «إن شاء الله تعالى» وشدّد إن وكسرها ، ثم سلم الكتاب إلى ابن صالح ، فوقف عليه وأرسله إلى ابن منقذ ، فلما صار فى يده وعلم ما فيه قال : هذا كتابُ صديقى وما يَغُشّنى ، ولو أنه يَعلمُ صفاء قلبِ ابن صالح لى لما كتب إلىّ ولا غرّنى ، ثم عزم على العَوْد ، وكان عنده ولده ، فأخذ الكتاب وكرّر نظرَه فيه ، ثم قال له : يا أبتِ مكانَكَ ، فإن صديقك قد حذّرك وقال لا تَعُدْ ، فقال : وكيف ! قال : إنه قد كتب « إن شاء الله تعالى » فى آخر الكتاب ، وشدّد إنّ وكَسَرها ، وضبطها ضبطا صحيحا لا يَصْدُرُ مثله عن سَهْو ، ومعنى ذلك أنه يقول : « إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك »[1] وإن شككت فى ذلك فأرسِلْ إلى حلَبَ .

وهذه من أعجب ما بلغنى من حِدّة الذِّهْن وفطانة الخاطر ، ولولا أنه صاحبُ الحادثة المخوِّفة لما تَفَطّن إلى مثل ذلك أبداً ، لأنه ضَرْبٌ من علم الغَيْب ، وإنّما الخوف دَلّه على استنباط ما استنبطه

ووُجد لبعض الأدباء لُغزٌ فى حَمّام ، فمنه ما أجاد فيه كقوله : « وقد أظلّتها

(١) القصص ٢٠ .

سماء ذاتُ نجومٍ ، لا استراقَ لها ولا رُجوم ، وهى مُرَكّبة فى فلك تحت استدارَتُه ، وسكَنَتْ إدارته .

أعْجِبْ بها من أنجُمٍ عند الصّـباح ظاهرَهْ
لـكنهـا إذا بَدَا نَجْمُ الظـلام غارَهْ

فهى على القياس جَنّةُ نعيمٍ ، مَبْنِيّةٌ على لظَى جَحيمٍ ، لا خُلودَ فيها ولا مُقامَ ، ولا تزَاوُرَ بين أهلها ولا سَلام ، أنهارها مُتَدَفّقة ، ومياهها مُتَرَقْرِقة ، والأكواب بها موضوعة ، والنّمارق عنها مَنزوعة .

يُطيع بها المولى أوامرَ عَبْدِه ويُصبحُ طوعاً فى يديه مقاتِلُهْ
ويُرْفعُ عنه التاجُ عند دخوله وتُسْلَبُ من قَبْل الجلوس غلائِلُهْ

التّجمّل بها مَعْدوم ، والخادم فيها مَخْدوم ، يُنكَرُ بها التّستّرُ من البَرْد ، ويُكرَهُ حَرّها إذا جاوز الحَدّ .

هذا اللغز من فصيح الألغاز ، ولا يقال إن صاحبه فى العَمَى صانع العُكّاز ، وإذا تطرّز غيرُه بلمْعةٍ من الوَشْى فهذا كله طِراز .

ومما سمعتُهُ من الألغاز الحسان التى تجرى فى المحاورات ما يُحْكَى عن عمرَ ابن هُبَيْرَة وشُرَيْك النُّمَيْرىّ ، وذاك أن عمر بن هبيرة كان سائراً على بِرْذَوْن له وإلى جانبه شُرَيْكٌ النُّميرى على بَغْلة ، فتقدمه شُرَيك فى المسير، فصاح به عمر : اغضُضْ من لجامها ، فقال : أصلحَ اللهُ الأمير إنها مكتوبةٌ(١) . فتَبَسّم عمر ،

(١) كانت فى الاصل مكبوتة .

ثم قال : وَيْحكَ ، لم أُرِدْ هذا ، فقال له شُريك : ولا أنا أردتُهُ .

وكان عمر أراد قول جرير :

فغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ . فلا كعْبًا بَلغْتَ ولا كِلابا[1]

فأجابه شريك بقول الآخر :

لا تأمَنَنَّ فَزاريًّا خَلَوْتَ به على قَلُوصك واكْتُبْهَا بأَسْيار[2]

وهذا من الألغاز اللطيفة ، وتَلاطُفُ كلٍّ من هذين الرجلين لمِثْلِهِ ألطفُ وأحْسَنُ .

ومما يجرى هذا المَجرَى أن رجلا من تَميم قال لشُرَيْكٍ النميرى : ما فى الجوارح أحبُّ إلى من البازى . فقال له شريك : إن كان يَصيدُ القَطا .

وكان التميمى أراد قول جرير :

أنا البازى المُطِلُّ على نُمَيْرٍ أُتِيحَ من السماء لها انصبابا[3]

وأراد شُرَيك قول الطِّرِمَّاح .

تَميمٌ بطُرْقِ اللُّؤم أهْدَى من القطا ولو سَلَكَتْ طُرْقَ المكارم ضَلَّت

---

(١) ديوان جرير ٧٥ من قصيدة فى هجاء الراعى .

(٢) البيت لسالم بن دارة فى هجاء بنى فزارة (الشعر والشعراء ١/٣٦٤) .
القلوص : الناقة الشابة . اكتبها : قيدها .

(٣) الديوان ٧٢ من هجاء للراعى .

واعلم أن خواطر الناس تتفاضل كتفاضل الأشخاص ، ومن هنا قيل : سبحان خالق أبي موسى وعمرو بن العاص[١]

النوع الثاني والعشرون

في المبادىء والافتتاحات

هذا النوعُ هو أحدُ الأركان الخمسة البلاغية المشار إليها في الفصل التاسع من مقدمة الكتاب .

وحقيقةُ هذا النوع أن يُجعلُ مَطلَعُ الكلام من الشعر أو الرسائل دالاًّ على المعنى المقصود من هذا الكلام إن كان فتحاً ففتحا ، وإن كان هناء فهناء ، أو كان عَزاء فعزاء ، وكذلك يجرى الحكم في غير ذلك من المعاني .

وفائدته أن يُعرف من مَبْدَأ الكلام ما المرادُ به ، ولِمَ هذا النوع ؟

والقاعدةُ التي يُبْنَى عليها أساسُه أنه يجب على الشاعر إذا نظم قصيداً أن ينظر ، فإن كانت مديحا صِرْفا لا يختصُّ بحادثة من الحوادث فهو مُخَيَّر بين أن يفتتحها بغزل أو لا يَفتَتِحها بغزل بل يرتجل المديح ارتجالا من أولها كقول القائل :

(١) يحسن أن نعقب على ابن الأثير في الألغاز برأي ابن سنان الخفاجي ، وقد سبقه بنحو قرنين من الزمان ، قال الخفاجي : « فإن قيل : فما تقولون في الكلام الذي وضع لغزاً ، وقصد ذلك فيه ؟ قيل : إن الموضوع على وجه الإلغاز قد قصد قائله إغماض المعنى وإخفاءه ، وجعل ذلك فنا من الفنون التي تستخرج بها أفهام الناس وتمتحن أذهانهم . فلما كان وضعه على خلاف وضع الكلام في الأصل كان القول فيه مخالفا لقولنا في فصيح الكلام ، حتى صار يحسن فيه ما كان ظاهره يدل على التناقض ، أو ما جرى مجرى ذلك ..... وقد كان شيخنا أبو العلاء يستحسن هذا الفن ويستعمله في شعره كثيرا . (سر الفصاحة ٢١٥) .

إنْ حارتِ الألبابُ كيف تقولُ   فى ذا المقام فعُذْرُها مقبولُ
سامحْ بفضلك مادِحيك فما لَهُمْ   أبداً إلى ما تستحقُّ سبيلُ
إن كان لا يُرضيك إلا مُحْسِنٌ   فالمحسنون إذاً لَدَيْكَ قليلُ

فإن هذا الشاعر ارْتجَلَ المديحَ من أول القصيدة ، فأتى به كما ترى حَسَنا لائقا .

وأما إذا كان القصيدُ فى حادثة من الحوادث كفتحِ مَعْقِلٍ[1] أو هزيمة جيش أو غير ذلك فإنه لا ينبغى أن يَبْدأ فيها بغزَل ، وإن فعل ذلكٌ دَلَّ على ضَعْفِ قريحةِ الشاعر وقُصوره عن الغاية ، أو على جهله بوَضع الكلام فى مواضِعِهِ .

فإن قيل إنك قلت يجبُ على الشاعر كذا وكذا فلم ذلك ؟

قلت فى الجواب : إن الغزل رِقةٌ محْضهٌ ، والألفاظ التى تنظمُ فى الحوادث المشار إليها من فَحْل الكلام ومَتين القَول ، وهى ضِدُّ الغزل ، وأيضا فإن الأسماعْ تكون متطلعةً إلى ما يُقال فى تلك الحوادث والابتداء بالخَوْض فى ذكرها لا الابتداء بالغزل ، إذ المُهِمُّ واجبُ التَّقديم .

ومن أدب هذا النوع ألا يَذكر الشاعر فى افتتاح قصيدة بالمديح ما يُتطَيَّرُ منه ، وهذا يرجع إلى أدَبِ النفس لا إلى أدبِ الدَّرْس ، فينبغى أن يَحترِزَ منه فى مواضعه ، كوصف الديار بالدُّثُور والمنازل بالعَفاء وغير ذلك من تَشَتُّتِ الألاَّف وذم الزمان ، لا سيما إذا كان فى التهانى ، فإنه يكون أشَدَّ قُبْحا ، وإنما يَسْتَعمِلُ ذلك فى الخطوب النازلة والنوائب الحادثة ، ومتى كان الكلام فى المديح مفتتحا بشىء من ذلك تطير منه سامعه .

---

(١) كانت بالأصل مقفل .

وإنما خُصَّت الابتداءات بالاختيار ، لأنها أوّلُ ما يَطرُقُ السّمع من الـكلام ، فإذا كان الابتـداء لائقا بالمعنى الوارد بعده توَفَّرت الدواعى على استماعه .

ويكفيك من هذا البابِ الابتـداءاتُ الواردةُ فى القرآن الـكريم ، كالتحميدات المُفتَتَح بها أوائلُ السُّوَر ، وكذلك الابتداءاتُ بالنداء كقوله تعالى فى مفتتح سورة النساء ﴿ يا أيُّها الناسُ اتَّقُوا ربَّـكم الذى خلقكم من نفسٍ واحدة ﴾ وكقوله تعالى فى أول سورة الحج : ﴿ يا أيها الناسُ اتَّقُوا ربَّكم إنَّ زَلْزَلَةَ الساعةِ شىء عظيم ﴾ فإن هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه .

وكذلك الابتداءات بالحروف ، كقوله تعالى ﴿ ألم وطس وحم ﴾ وغير ذلك ، فإن هذا أيضاً يَبعَثُ الاستماعَ إليه ، لأنه يَقرَعُ السمعَ شىء غريبٌ ليس له بمثله عادة ، فيكون سببا للتَّطَلُّع نحوه والإصغاء إليه .

ومن قبيح الابتداءات قولُ ذِى الرُّمَّة : « ما بالُ عَيْنِك منها الماء يَنسَكِبُ »[1] ، لأن مقابلة للمدوح بهذا الخطاب لا خَفاء بقبحه وكراهته .

ولما أنشدَ الأخطلُ عبدَ الملكِ بنَ مَرْوَان قصيدته التى أولها « خَفَّ القَطِينُ فراحُوا منك أو بَكَّروا »[2] قال له عند ذاك : لا بل منك ، وتطيَّر

(١) كانت عين عبد الملك دائمة الدمع ، فلما افتتح ذو الرمة قصيدته فى مدحه بقوله :

ما بال عينك منها الدمع ينسكب   كأن من كلى مفرية سرب

وهو لا يخاطبه فى الحقيقة وإنما يخاطب نفسه على سبيل التجريد ، لم يسترح عبد الملك إلى قبح المواجهة بهذه الصورة ، لأنها توهم أنه هو المراد ، فقال له : وما سؤالك عن هذا يابن الفاعلة ، وكرهه وأمر بإخراجه .

(٢) الشطر الثانى : وأزعجتهم نوى فى صرفها غير (الديوان ١٠٤)

من قوله فنيرها ذو الرمة وقال : « خفَّ القَطينُ فراحُوا اليومَ أو بكروا » .

ومن شاء أن يذكر الديار والأطلال فى شعره فليتأدب بأدب القَطامِيِّ على جفاء طبعه وبُعدِه عن فطانة الأدب ، فإنه قال : إنّا مُحَيُّوكَ فاسْلَمْ أيُّها الطلل[1] » فبدأ قبل ذكر الطلل بذكر التحية والدعاء له بالسلامة .

وقد قيل إن امرأ القيس كان يجيد الابتداء كقوله : « ألا انْعَم صبَاحًا أيها الطَّلَلُ البالى »[2] وكقوله : « قِفا نَبْكِ من ذِكرَى حبيب ومَنزِل »[3]

ومما يُكرَهُ من الابتداءات قولُ أبى تَمّام : « تَجَرَّعْ أسًى قد أقفرَ الجَرَعُ الفرد »[4] . وإنما ألقى أبا تمام فى مثل هذا المكروه تَتَبُّعُهُ للتجنيس بين تَجَرَّعْ والجَرَع ، وهذا دأب الرجل ، فإنه كثيراً ما يقع فى ذلك .

وكذلك استُقْبِحَ قولُ البحترى : « فؤادٌ ملاه الحزنُ حتى تَصَدَّعا »[5] . فإن ابتداء المديح بمثل هذا طِيرَةٌ ينبو عنها السمع ، وهو أجدر بأن يكون ابتداء مرثية لا مديح ، وما أعلم كيف يخفى هذا على مثل البحترى وهو من مُفلِقى الشعراء .

---

(١) الشطر الثانى : وإن بليت وإن طالت بك الطيل (الأغانى ١٦/١٨) .

(٢) الشطر الثانى : وهل يعمن من كان فى العصر الخالى (الديوان ٢٧) .

(٣) الشطر الثانى : بسقط اللوى بين الدخول فحومل (الديوان ٨) .

(٤) تكملة البيت : ودع حسى عين يحتاب ماءها الوجد (الديوان ٢/٨٠) .
الجرع : ما سهل من الأرض . الحسى : ماء قليل فى الأرض .

(٥) ليس المطلع بديوانه .

وحُكِيَ أنه لما فرَغ المعتصم من بناء قصْره بالميدان جلس فيه ، وجميع أهله وأصحابه ، وأمرهم أن يخرجوا فى زينتهم ، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم ، فاستأذن إسحاقُ بن إبراهيم الموصلى فى الإنشاد ، فأَذِنَ له ،فأنشَدَ شعراً حسنا أجاد فيه ، إلا أنه استفتحه بذكر الديار وعَفائها فقال :

يا دارُ غيَّرَكِ البِلَى ومَحَاكِ   يا ليتَ شِعْرِى ما الذى أبلاكِ

فتَطيَّرَ المعتصمُ بذلك ، وتغامز الناس على إسحاق بن إبراهيم كيف ذهب عليه مثل ذلك مع مَعرفته وعِلمِهِ وطُول خِدْمَتِهِ الملوك ، ثم أقاموا يومهم وانصرفوا ، فما عاد منهم اثنان إلى ذلك المجلس ، وخَرَجَ المعتصمُ إلى سُرَّ مَنْ رأى وخَرِبَ القصر(١) .

فإذا أراد الشاعر أن يذكر داراً فى مديحه فليذكر كما ذكر أشجع السُّلَمِىّ ، حيث قال :

قصرٌ عليه تحيةٌ وسلامُ   خلَعت عليه جمالها الأيام(٢)

وما أجدر هذا البيت بمفتتح شعر إسحاق بن إبراهيم الذى أنشده للمعتصم ، فإنه لو ذكر هذا أو ما جرى مجراه لكان حسناً لائقا .

---

(١) الصناعتين ٤٣٢ وفى سر الفصاحة ١٧٥ أن أبا نواس أنشد الفضل بن يحيى قصيدته التى مطلعها :

أربع البلى إن الخشوع لبادى   عليك وإنى لم أخنك ودادى

فتطير الفضل من هذا الابتداء . فلما انتهى إلى قوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم   بنى برمك من رائحين وغاد

استحكم تطيره ، فلم يمض إلا أسبوع حتى نكب بنو برمك ، وقتل جعفر بن يحيى .
(٢) الصناعتين ٤٣٣ وبه (نشرت) .

وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء ، فقال : من أجاد الابتداء والمطلع ، ألا ترى إلى قصيدة أبى نواس التى أولها :

يا دارُ ما فَعَلَتْ بكِ الأيام لم تَبْقَ فيكِ بَشاشةٌ تُستام[1]

فإنها من أشْرَف شعره وأعلاه منزلةً ، وهى مع ذلك مُسْتَكْرَهَةُ الابتداء ، لأنها فى مدح الخليفة الأمين ، وافتتاحُ المديح مذكر الديار ودُثورها مما يُتَطَيَّرُ منه ، لا سيما فى مشافهة الخلفاء والملوك ، ولهذا يختار فى ذكر الأماكن والمنازل ما رَقّ لفظه وحَسُنَ النُّطْقُ به كالعُذَيْب والغُوَيْر وَرامة وبارق والعَقيق وأشباه ذلك[2] ، ويختار أيضاً أسماء النساء فى الغزل نحو سعاد وأميم وفوز وما جرى هذا المجرى .

وقد عيب على الأخطل فى تغزله بقَذُور وهو اسم امرأة ، فإنه مستقبح فى الذكر ، وقد عيب على غيره التغزل باسم تُماضر ، فإنه وإن لم يكن مستقبحاً فى معناه فإنه ثقيل على اللسان ، كما قال البحترى :

إن للبَيْن مِنّةً لا تُؤَدّى وَيداً فى تُماضِرٍ بَيْضاء[3]

فغزله بهذا الاسم مما يشوه رقة الغزل ، ويثقل من خفته ، وأمثال هذه الأشياء يجب مراعاتها والتحرز منها .

وقد استثنى من ذلك ما كان اسم موضع تضمن وقعة من الوقائع ، فإن

---

(١) الديوان ٤٠٧ .

(٢) أسماء أماكن ومياه يكثر ورودها فى الشعر وبخاصة فى الغزل .

(٣) من قصيدته فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف (الديوان ١/ ١٣) .

ذكره لا يكره ، وإن كان فى اسمه كراهة ، كما ذكر أبو تمام فى شعره مواضع مكروهة الأسماء لضرورة ذِكْرِ الوقائع التى كانت بها ، كذكر الحشال وعقوقس وأمثالهما ، وكذلك ذكر أبو الطيب المتنبى هنزيط وشميصاط وما جرى مجراهما ، وهذا لا عيب فى ذكره ، لمكان الضرورة التى تدعو إليه .

وهكذا يُسامَحُ الشاعر والكاتب أيضاً فى ذكر ما لا بد من ذكره وإن قبح ، ومهما أمكنه من التورية فى هذا المقام فليسلكها ، وما لا يمكنه فإنه معذور فيه .

واعلم أنه ليس من شرط الابتداء ألا يكون مما يتَطيَّرُ منه فقط ، فإن من الابتداءات ما يستقبح وإن لم يتطير منه ، كقول أبى تمام : « قَدْكَ اتَّئِبْ أرْبَيْتَ فى الغُلَواء »(١) . وكقوله : « تَقِي جَمَحاتى لسْتُ طوع مُؤَنِّبِى »(٢) . وكقول أبى الطيب المتنبى : « أَقَلُّ فَعَالِى بَلْهَ أكْثَرُه مَجْد »(٣)

---

(١) قدكَ اتئب أربيت فى الغلواء كم تعذلون وأنتم سجرائى

مطلع قصيدته فى مدح محمد بن حسان الضبى (الديوان ١/٢٢) . قدك : حسبك . اتئب : استحى . سجرائى : أصدقائى .

(٢) تقى جمحاتى لست طوع مؤنبى وليس جنبي ان عذلت بمصحبى

مطلع قصيدته فى مدح عياش بن لهيعة الحضرمى (الديوان ١/١٥٣) .

تقى : أمر للواحد من تقى المخفف . جمحاتى : المراد ثوراتى وعصيانى . الجنيب : المجنوب ، والمراد به هواه ونفسه . يقول لعاذلته إن عذلك لا يجدى نفعاً ، لأنى لا أطيع المؤنب . وليس قلبى منقاد إلى إذا لامنى أحد .

(٣) أقل فعالى بله أكثره مجد وذا الجد فيه نلت أم لم أنل جد

مطلع قصيدته فى مدح محمد بن سيار بن مكرم التميمى (الديوان ٢/١٠٧) .

الفعال : الفعل الحسن من الجود والكرم ونحوه . بله : اسم فعل بمعنى دع . الجد بكسر الجيم : الاجتهاد ، وبفتحها الحظ . يقول : أقل فعلى مجد ، دع أكثره ، فكل أفعالى قليلها وكثيرها فى سبيل المجد ، وهذا السعى الدائب فى سبيل المجد يعد حظا لى سواء نلت مطلوبى أم لم أنله .

وكقوله : « كُنِّى أرانى وَيْكِ لَوْمَكِ أَلْوَما »(١) .

والعجب أن هذين الشاعرين المفلقين يبتدئان بمثل ذلك ، ولهما من الابتداءات الحسنة ما أذكره .

أما أبو تمام فإنه افتتح قصيدته التى مدح بها المعتصم عند فتحه مدينة عَمُّورِيَّة فقال :

السيف أصدقُ أنباءً من الكتب — فى حَدِّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ
بِيضُ الصفائحِ لاسُودُ الصحائف فى — مُتُونهن جَلاء الشكِّ والرِّيَبِ

هذه الأبيات لها قصة ، وذاك أنه لما حضر المعتصم مدينة عمورية زعم أهل النِّجَامة أنها لا تُفْتَح فى ذلك الوقت ، وأفاضوا هذا حتى شاع وصار أحدوثة بين الناس ، فلما فتحت بنى أبو تمام مطلع قصيدته على هذا المعنى ، وجَعَلَ السيفَ أصْدَقَ من الكتب التى خَبَّرَتْ بامتناع البلد واعتصامها ، ولذلك قال فيها :

والعلمُ فى شُهُبِ الأرماحِ لامعةً — بَيْنَ الخميسَيْنِ لا فى السبعة الشُّهُبِ
أين الروايةُ أم أين النجوم وما — صاغوه من زُخْرُفٍ فيها ومن كَذِبِ
تخرُّصاً وأحاديثاً ملفقةً — ليستْ بنَبْعٍ إذا عُدَّت ولا غَرَبِ(٢)

وهذا من أحسن ما يأتى فى هذا الباب .

---

(١) كنى أرانى ويك لومك ألوما — هم أقام على فؤاد أنجما
مطلع قصيدته فى مدح إنسان مجهول (الديوان ٤/١٨٤) .
كُنى : دعى . أرانى : يريد عرفنى وأعلمنى . ويك : كلمة تعجب وإنكار . هم فاعل أرانى . أنجم : أقلع . يقول لعاذلة : اتركى عذلى ، فقد أرانى الهم المقيم على فؤادى الذاهب مع الحبيب أن لومك إياى أحق بأن يلام منى .
(٢) من قصيدته فى مدح المعتصم بعد فتح عمورية (الديوان ١/٤٥) .
الصفائح : السيوف . النبع : شجر صلب تتخذ منه القسى . الغرب : شجر ضعيف لاقوة له .

وكذلك قوله فى قصيدة يمدحه بها أيضا، ويذكر فيها خروج بابك الخُرّمى عليه وظفره به، وهى من أمهات شعره قال :

الحق أبلجُ والسيوف عَوارِ فحذارِ من أسَدِ العَرِين حَذارِ[١]

وكذلك قوله متغزلا :

عسى وطنٌ يدنو بهم ولعلما وأن تُعْتِبَ الأيام فيهم فرُبَّما[٢]

وهذا من الأغزال الحلوة الرائقة، وهو من محاسن أبى تمام المعروفة .

وكذلك قوله فى أول مرثية :

أصَمَّ بك الناعِى وإن كان أسْمَعا وأصبح مَغْنى الُجود بعدك بَلْقعا[٣]

وأما أبو الطيب فإنه أكثر من الابتداءات الحسنة فى شعره، كقوله فى قصيدة يمدح بها كافورا، وكان قد جرت بينه وبين سيِّده نَزْغَةٌ، فبدأ قصيدته بذكر الغرض المقصود فقال :

حَسَمَ الصُّلحُ ما اشتَهَتْهُ الأعادِى وأذاعَتْه ألْسُنُ الحُسَّـــاد[٤]

وهذا من بديع الابتداء ونادره

---

(١) فى مدح المعتصم (الديوان ٢/١٩٨) .

(٢) فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف (الديوان ٣/٢٣٢) تعتب : من أعتب إذا أعطاه العتبى أو طلبها إليه . فربما : فربما دنا البعيد .

(٣) الديوان ٣٧٤ طبعة محمد جمال والمطلع بالموازنة ٩٤ ومعجم البلدان ٨/٨٨ فى رثاء أبى نصر محمد بن حميد الطائى .

(٤) كان قوم من الغلمان اتصلوا بابن الإخشيد سيد كافور، وأرادوا أن يفسدوا الأمر على كافور، فطالبه بتسليمهم إليه، فسلمهم بعد أن امتنع مدة سببت وحشة، ولما تسلمهم كافور ألقاهم فى النيل واصطلحا (الديوان ٢/١٥٦) .

وكذلك ورد قوله فى سيف الدولة وكان ابن الشُّمُشْقِيق حلف ليلقينّه كِفاحاً ، فلما التقيا لم يطق ذلك وولى هاربا ، فافتتح أبو الطيب قصيدته بفحوى الأمر فقال :

عُقْبى اليَمينِ على عُقْبى الوغى نَدَمُ ماذا يَزيدك فى إقدامك القَسَمُ
وفى اليمين على ما أنت واعِدُه مادلٌ أنك فى الميعاد مُتَّهَمُ(١)

وكذلك قوله وقد فارق سيف الدولة إلى مصر ، فجمع بين ذكر فراقه إياه ولقائه كافوراً فى أول بيت من القصيدة فقال :

فِراقٌ وَمَنْ فارقتُ غيرُ مُذَمَّمِ وَأَمٌّ ومن يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ(٢)

ومن البديع النادر فى هذا الباب قوله متغزلا فى مطلع قصيدته القافية وهى :

أتُراها لكثرة العشّاق تَحْسَبُ الدمعَ خِلْقَةً فى المآقى(٣)؟

وله مواضع أخر كثيرة لا حاجة إلى ذكرها .

ومن محاسن الابتداءات التى دلت على المعنى من أول بيت فى القصيدة ماقرأته فى كتاب الروضة لأبى العباس المبرّد ، فإنه ذكر غزوة غزاها الرشيد هارون رحمه الله فى بلاد الروم ، وأن نِقفور ملك الروم خضع له وبذل الجزية ، فلما عاد عنه

(١) (الديوان ٤/١٦٧) يقول : من حلف أن عاقبة الحرب له كانت عاقبته الندم ، لأنه ربما لا يظفر ، والقسم لا يزيد فى الإقدام ، لأن الجبان لا يقدم وإن حلف . يشير إلى أن البطريق المسمى ابن شمشقيق أقسم عند ملك الروم أنه لابد أن يظفر بسيف الدولة ، وسأله أن ينجده ببطارقته وبالعدد والمدد ، ففعل ، فخاب ظنه وانهزم .

(٢) الديوان ٤/٣٢٣ .

(٣) مطلع قصيدته فى مدح أبى العشائر الحسين بن على بن الحسين بن حمدان (الديوان ٣/١٢١) يريد أنها لكثرة عشاقها الباكين تتوهم أن الدمع خلقة فى العيون فلا ترحم من يبكى .

واستقر بمدينة الرّقة وسقط الثلج نقض نقفور العهد ، فلَمْ يجسُرْ أحدٌ على إعلام الرشيد ، لمكان هيبته فى صدور الناس ، وبذل يحيى بن خالد للشعراء الأموال على أن يقولوا أشعاراً فى إعلامه ، فكلهم أشْفَق من لقائه بمثل ذلك ، إلا شاعراً من أهل جُدّة يكنى أبا محمد ، وكان شاعراً مُفْلِقاً . فنظم قصيدة وأنشدها الرشيد ، أولها :

نَقَضَ الذى أعطيتَه نَقْفُورُ   فعليــه دائرةُ البَوارِ تَدُور
أبشِرْ أميرَ المؤمنــين فإنه   فتحٌ أتاك به الإله كبير
نقفور إنك حين تَغْدِرُ أنْ نَأى   عنك الإمام لجاهلٌ مغرور
أظننت حين غدرتَ أنك مُفْلِتٌ   هَبِلَتْكَ أُمُّكَ ، ما ظننتَ غُرور

فلما أنهى الأبيات قال الرشيد : أو قد فعل ؟ ثم غزاه فى بقية الثلج وفتح مدينة هِرَقْلَة .

وقرأت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ما رواه من شعر سُدَيْف فى تحريض الخليفة السفاح رحمه الله على بنى أمية فقال : قدم سُدَيْف من مكة إلى الحيرة والسفاح بها ، ووافق قدومه جلوس السفاح للناس ، وكان بنو أمية يجلسون على الكرامى تكْرِمةً لهم ، فلما دخل عليه سُدَيْفٌ حسَر لثامه ، وأنشده أبياتاً من الشعر ، فالتفت رجلٌ من أولاد سليمان بن عبد الملك ، وقال لآخر إلى جانبه : قَتَلَنَا والله العَبْدُ . فلما أنهى الأبيات أمر بهم السفاح فأخرجوا من بين يديه ، وقُتِلوا عن آخرهم ، وكتب إلى عماله بالبلاد يأمرهم بقتل من وجدوه منهم .

ومن الأبيات :

أصبح الدين ثابتا فى الأساس   بالبهاليل من بنى العبّاس
أنت مهدىُّ هاشمٍ وهُـــداها   كم أناسٍ رجوك بعـــد إياس
لا تُقيلنَّ عَبْدَ شمس عِثاراً   واقطعَنْ كُلَّ رَقْلَةٍ وغِراسِ
أنزلُوها بحيث أنزلهـــا اللـــه   بدار الهَوان والإتْعاس
خوفُهم أظهر التودُّد منهم   وبهم منكمُ كحَزِّ المَواسى
أقْصِهِم أيها الخليفة واحْسِمْ   عنك بالسيف شَأْفَةَ الأَرْجاس
واذكُرَنْ مَصْرَعَ الحسين وزيدٍ   وقتيـــلا بجانب المِهْراس
ولقـــد ساءنى وساء سَوائى   قُرْبُهم من منابرٍ وكراسى(١)

وهذه الأبيات من فاخر الشعر ونادره افتتاحا وابتداء وتحريضاً وتأليباً ، ولو وصفتها بما شاء الله وشاء الإسهاب والإطناب لما بلغت مقدار مالها من الحسن .

ومن لطيف الابتداءات ما ذكره مِهْيار ، وهو :

أما وهـــواها عِذْرَةً وتنصُّلا   لقد نقل الواشى إليها فأمْحَـــلا
سَعَى جُهْدَه لـكن تجاوز حَدَّه   وكثَّر فارتابَتْ ولو شاء قَلَّلا(٢)

---

(١) الأبيات من قصيدة بالأغانى ٤/٩٢ مع تغيير طفيف . زيد : المراد زيد بن على زين العابدين بن الحسين . وكان قد خرج بالكوفه على هشام بن عبد الملك ، فقتل وصلب سنة ١٢١ أو ١٢٢ هـ . القتيل الذى بجانب المهراس (وكانت بالأصل الهرماس) المراد حمزة بن عبد المطلب ، قتله وحشى غلام جبير بن مطعم يوم أحد ، والمهراس ماء بأحد ، وقد نسب الشاعر قتل حمزة إلى بنى أمية لأن قائد الناس يوم أحد كان أبا سفيان بن حرب ، ولأن وحشياً قتله بتحريض هند أم معاوية ، وقالوا إنها لاكت قطعة من كبد حمزة . رقله : نخلة . طالت وفاتت اليد . والمراد القض على كبيرهم وعلى صغيرهم .

(٢) الديوان ٣/١٩٤ عذرة : معذرة . أمحل : بالغ فى مكره وكيده .

كان قد وشى به بعض حساده فى أمر يتصل بالملك شاهنشاه جلال الدولة أبى طاهر بن بويه ، ثم تبينت براءته وأنعم الملك عليه ، فأنشأ قصيدة يمدحه بها ويعرض بالواشى .

فإنه أبرز الاعتذار فى هيئة الغزل ، وأخرجه فى معرض النسيب ، وكان قد وُشِىَ به إلى الممدوح ، فافتتح قصيدته بهذا المعنى فأحسن .

ومما جاء على نحو ذلك قول بعض المتأخرين من العراقيين :

وَراءكَ أقوالَ الوُشاةِ الفواجرِ وَدُونَك أحوالَ الغَرامِ المُخامرِ
ولولا وَلوعٌ منك بالصدِّ ما سَعَوْا ولولا الهَوَى لم أنتَدِب للمعاذرِ

فسلك فى هذا القول مسلك مهيار ، إلا أنه زاد عليه زيادة حسنة ، وهى المعاتبة على الإصغاء إلى أقوال الوشاة والاستماع منهم ، وذلك من أغرب ما قيل فى هذا المعنى .

ومن الحذاقة فى هذا الباب أن تُجْعَلَ التحميداتُ فى أوائل الكتب السلطانية مناسبةً لمعانى تلك الكتب ، وإنما خَصَصْتُ الكتب السلطانية دون غيرها لأن التحاميد لا تصدر فى غيرها ، فإنها تكون قد تضمنت أموراً لائقة بالتحميد ، كفتح معقل[1] أو هزيمة جيش أو ما جرى هذا المجرى .

ووجدت أبا إسحاق الصابى على تقدمه فى فن الكتابة قد أخل بهذا الركن الذى هو من أوكد أركان الكتابة ، فإذا أتى بتحميدة فى كتاب من هذه الكتب لا تكون مناسبةً لمعنى ذلك الكتاب ، وإنما تكون فى وادٍ والكتاب فى واد ، إلا ما قلَّ من كتبه . فمما خالف فيه معناه أنه كتب كتاباً يتضمن فتح بغداد وهزيمة الأتراك عنها ، وكان ذلك فتحاً عظيما ، فابتدأ بالتحميد فقال : « الحمد لله ربِّ العالمين ، الملك الحق المبين ، الوحيد الفريد ، العلىّ المجيد

(١) كانت بالأصل مقفل .

الذى لا يوصف إلا بسَلْب الصفات ، ولا يُنعتُ إلا برَفع النعوت ، الأزلى بلا ابتداء ، الأبدى بلا انتهاء ، القديم لا مُنـذ أمدٍ محدود ، الدائم لا إلى أجَلٍ ممْدود ، الفاعل لا من مادة استمدها ، ولا بآلة استعملها ، الذى لا تدركه الأعين بلحاظها ، ولا تحدُّه الألسن بألفاظها ، ولا تُخْلِقُه العصور بمرورها ، ولا تُهرِمُهُ الدهور بكُرورها ، ولا تصارعه الأجسام بأقطارِها ، وَلا تجانسه الصُّوَر بأعراضها ، وَلا تجاريه أقدام النظر أو الأشكال ، ولا تزاحمه مناقب القرناء والأمثال ، بل هو الصَّمَد الذى لا كُفْء له ، وَالفَذُّ الذى لا توأم معه ، وَالحى الذى لا تَخْرِمه المَنُون ، والقَيُّوم الذى لا تَشْـغَلُهُ الشئون ، وَالقدير الذى لا تَؤُدُه المعضِلات ، والخبير الذى لا تعييه المشكلات » .

وَهذه التحميدة لا تناسب الـكتاب الذى افتتح بها ، وَلـكنها تصلح أن توضع فى صدر مصنَّف من مصنفات أصول الدين ، كـكتاب الشامل للجُوَينى أو كتاب الاقتصار أو ما جرى مجراها ، وأما أن توضع فى صَـدْر كتاب فَتح فلا .

وَهو وَإن أساء فى هذا الموضع فقد أحسن فى مواضع أخرى ، وَذلك أنه كتب كتاباً عن الخليفة الطائع — رحمه الله تعالى إلى الأطراف ، عند عَوْده إلى كرسى ملكه وَزوَال ما نزل به وَبأبيه المطيع — رحمه الله تعالى - من فادحة الأتراك فقال : « الحمد لله ناظم الشمل بعد شَتاته ، ووَاصل الحبل بعد بَتاته ، وَجابر الوَهْن إذا انثلم(١) ، وكاشف الخطب إذا أظلم ، وَالقاضى للمسلمين بما يَضُمُّ نَشْرهم ، ويَشُدُّ أزْرَهم ، وَيصلح ذاتَ بينهم ، وَيحفظ الأئمة عليهم ، وإن

---

(١) كانت بالأصل (ثلم) .

شابت ذلك فى الأحيان شوائب من الحَدَثان ، فلن تتجاوز بهم الحدّ الذى يُوقِظُ غافِلَهم ، ويُنَبِّهُ ذاهلهم ، ثم إنهم عائدون إلى فضل ما أولاهم الله وعوّدهم ، وَوَثَّق لهم وَوعدهم ، من إيمان سِربهم وإعذاب شِربهم ، وَإعزاز جانبهم ، وَإذلال مُجانِبهم ، وَإظهار دينهم على الدين كله ولو كره المشركون » .

وهذه تحميدة مناسبة لموضوع الكتاب ، وإن كانت المعانى فيها مكررة كالذى أنكرته عليه وعلى غيره من الكتاب ، وقدمتُ القول فيه فى باب السجع ، فليؤخذ من هناك .

ومن المبادىء التى قد أَخْلَقَتْ وصارت مزدراة أن يقال فى أوائل التقليدات إن أَحَقّ الخِدَمِ بأن تُرْعَى خدمة كذا وكذا ، وإن أحق من قُلِّد الأعمال من اجتمع فيه كذا وكذا ، فإن هـذا ليس من المبادىء المستحسنة ، ومن استعمله أولا فقد ضَعّف فكرته عن اقتراح ما يحسن استعماله من المبادىء ، والذى تبعه فى ذلك إما مُقَلِّدٌ ليس عنـده قدرةٌ على أن يختار لنفسه ، وإما جاهلٌ لا يفرق بين الحسن والقبيح والجيد والردىء .

وأهل زماننا هـذا من الكتاب قد قَصَرُوا مبادىء تقاليدهم على هذه الفاتحة دون غيرها ، وإن أتوا بتحميدة من التحاميد كانت مباينة لمعنى التقليد الذى وُضِعَتْ فى صدره .

وكذلك قد كان الكتاب يستعملون فى التقليدات مبدأ واحد لا يتجاوزونه إلى غيره ، وهو « هـذا ما عَهِدَ فلان إلى فلان » والتحميد خير ما افتتح به التقليداتُ وكُتُبُ الفتوح وما جرى مجراها ، وقد أنـكرتُ ذلك على ستعمله فى مفتتح تقليد أنشأته بولاية والٍ فقلت : « كانت التقليدات تفتتح بكلام ليس

بذى شان ، ولا يوضع فى ميزان ، ولا يُجْتَنَى من أفنان ، وغايةُ ما يقال هذا ما عَهِدَ فلان إلى فلان ، وتلك فاتحة لم تكن جديدةً فتَخْلُقَ(١) بتطاول الأيام ، ولا حَسَنَةَ النَّظْم فيُضَاهَى بمثلها من ذوات النِّظام ، وهذا التقليد مفتتحٌ بحمد الله الذى تكفّل لحامده بالزيادة ، وبَدَأَ النعمة ثم قرَنَها من فضله بالإعادة ، وهو الذى بلغَ بنا من مآرب الدنيا منتهى الإرادة ، وسلَّم إلينا مَقَادَها فذلل لنا بها كلَّ مَقادة ، وَوسّد الأمر منا إلى أهله فاستوطأت الرعايا منه على وِسادة ، ونرجو أن يجمع لنا بين سعادة الأولى والأخرى حتى تتصل هذه السعادة بتلك السعادة . ثم نصلى عَلَى نبيه محمد الذى ميزه الله عَلَى الأنبياء بشرف السيادة ، وجعل انشقاقَ القمرِ له من آيات النبوة وَانشقاقَ الإيوان من آيات الولادة ، وعَلَى آله وأصحابه الذين شادوا الدين من بعده فأحسنوا فى الإشادة ، وبُسِطَتْ عليهم الدنيا كما بُسِطت عَلَى الذين من قبلهم فلم يحُولوا عن خُلُق الزهادة . أما بعد كذا وكذا » ثم أنهيت التقليد إلى آخره .

ومن الحذاقة فى هذا الباب أن يُجعَل الدعاء فى أول الكتاب من السلطانيات والإخوانيات وغيرها متضمناً من المعنى ما بُنِيَ عليه ذلك الكتاب ، وهذا شيء انفردت بابتداعه ، وتراه كثير فيما أنشأتُه من المكاتبات ، فإنى توخيته فيها وقصدته .

فمن ذلك ما كتبته فى الهناء بفتح وهو « هذا الكتاب مُشافِهٌ بخدمة الهناء للمجلس السامى الفلانى جدد الله له فى كل يوم فتحا ، وبدّل عَرْشَ كلِّ ذى سلطان لديه صَرْحا ، وجعل كل موقف من مواقف جوده وبأسه يوم فطر ويوم أضحى ، وكتب له على لسان الإسلام ولسان الأيام ثناء خالدا ومدحا ،

---

(١) تخلق : تبلى .

وأسكنه بعد العمر الطويل داراً لا يظمأ فيها ولا يَضحَى » ثم أخذت بعد ذلك في إنشاء الكتاب المتضمن معاني ما يقتضيه ذلك الفتح .

ومن ذلك ما ذكرته في الهناء بمولود وهو « جَدَّدَ اللهُ مَسَرَّاتِ المجلس السامي الفلاني ووصل صَبُوحَ هنائه بغَبُوقه ، وَأَمْتَعَهُ بسليله المبشِّر بطُروقه ، وَأبقاه حتى يستضيء بنوره ، وَيَرْمِي عن فوقِهِ ، وسَرَّ به أبكار المعاني حتى تَخَلَّقُ أعطافها بخُلوقه ، وَجعله كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سُوقه » ثم أخذت في إتمام الكتاب بالهناء بالمولود على حسب ما اقتضاه ذلك المعنى .

فتأمل ما أوردته ها هنا من هذين المثالين ، وانسج على منوالهما فيما تقصده من المعاني التي تبنى عليها كتبك ، فإن ذلك من دقائق هذه الصناعة .

وَأما فواتح الكتب التي أنشأتها فمنها ما اخترعته اختراعا وَلم أُسْبَقْ إليه ، وهي عِدَّة كثيرة ، وَقد أوردت ها هنا بعضها .

ومن ذلك مفتتح كتاب إلى ديوان الخلافة وَهو « نشأت سحابة من سماء الديوان العزيز النبوي ، جعل الله الخلود لدولته أوطاناً ، وَالحدود لها أركاناً ، وَنَصَبَ أيامها في أيام الدهر أعياناً ، وصورها في وجهه عيناً وفي عينه إنساناً ، ومدَّ ظلها على الناس عدلا وَإحساناً ، وَجمع الأمم على دين طاعتها وَإن تفرقوا أدياناً ، وَآتاها من معجزات سلطانه مالم يترك به لغيرها سلطاناً ، فارتاح الخادم لالتقائها ، وَبَسَطَ يده لاستسقائها ، وَقال رحمةٌ مرسلة لا تُخْشَى رُعودُها ، وَلا تُخْلَفُ وعودُها ، وَمن شأنها تَرويض الصنائع التي تبقى آثارها ، لا الخمائل التي تَذْوِي أزهارها ، وَقد يُعَبَّرُ عن الكتاب وَنائله بالسحاب وَوابله ، فإن صَدَرَ عن يدِ كيد الديوان العزيز فقد وَقع التشبيه موقع الصواب ، وَصدق حينئذ قول القائل : إن البحر عنصر السحاب ،

لكنْ فَرْقٌ بين ما يجود بمائه وَما يجود بنَعْمائه ، وَبيْنَ ما يَسِمُ الأرضَ الماحِلة ، وَبين ما يُنْمِي الأقدار الخاملة ، وما زالت كتب الديوان العزيز تُضْرَبُ لها الأمثال ، وتُصْرَفُ نحوها الآمال ، وَيُرى الحسد فيها حسناً وَإن عد فى غيرها من سيء الأعمال » وَهذا فصل من أول الكتاب .

وَمن جملة الكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان ، وَأرسلته إليه من الموصل إلى أرض الشمال من بلاد الروم ، وهو « طلع كوكب من أفق المجلس السامى لا خلَتْ سيادته من عدو وحاسد ، وَلا شِينتْ بتوأم يُخرجها من حكم الواحد ، وَلا عَدِمتْ صُحْبَة الجدود المتيقظة فى الزمن الراقد ، ولا أوْحَشَتْ الدنيا من ذكره الخالد ، الذى هو عمر خالد ، ولا زال مرفوعاً إلى المحل الذى يُعْلَمُ به أن الدهر للناس ناقد ، وَالكواكب تختلف مطالعها فى الشمال وَالجنوب ، فمنها ما يطلع دائماً فى أحدهما وَهو فى الآخر دائم الغروب ، وكتاب المجلس كوكبٌ لم يُرَ بهذه الأرض مَطْلَعُهُ ، وَإن عُلِمَ من السماء أين موضعه ، وَلما ظهر الآن للخادم سبّح له حامداً ، وَخرَّ له ساجداً ، وَقال قد عُبِدَت الكواكب من قبل فلا عَجَبَ أن أكون لهذا الكوكب عابدا ، وها أنا قد أصبحت بالعكوف على عبادته مُغْرَى ، وَقال الناس هذا ابن أبى كبْشَة الكتاب لا ابن أبى كبشة الشعْرى » وَهذا مطلع غريب ، وَالسياقة التالية لمطالعه أغرب .

وَمن أغرب ما فيها قولى « وها أنا قد أصبحت بالعكوف على عبادته مغرى ، وَقال الناس هذا ابن أبى كبشة الكتاب لا ابن أبى كبشة الشعرى » وَالمراد بذلك أن أبا كبشة كان رجلا فى الجاهلية يعبد الشعرى ، فخالف بذلك دين قومه ، ولما بعث النبى صلى الله عليه وسلم قالت قريش هذا قد خالف ديننا ، وَسموه

ابن أبى كبشة ، أى أنهُ قد خالفنا كما خالف أبو كبشة قومهُ فى عبادة الشعرى »
فأخذت أنا هذا المعنى وَأودعتهُ كتابى هذا فجاء كما تراه مبتدعاً غريبا .

وَمن جملة الـكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبتهُ إلى بعض الإخوان وَهو « طَلَعتْ من الغرب شمسٌ فقيل قد آذنت أشراطُ الساعة بالاقتراب ، ولم يُعلَمْ أن تلك الأنوار إنما هى أنوارُ الـكتاب ، لم تألف الأبصارُ من قبله أن تطلُعَ لشمسُ من المغرب ، وَليس ذلك إلا كتاب المجلس لا سلبه الله مزية هذا الوصف الـكريم ، وآتاه من الفضل مايقال معه وَفوق كل ذى علم عليم ، وَأحْيَ النفوس من كَلمها برُوح كَلِمه كما شفى غليلها من أقلامه بسُقْيا الـكليم ، ولما وَرد عن الخادم صار ليله نهاراً ، وَأصبح الناس فى الحديث به أطواراً ، وَالمنصف منهم يقول قد جرت الشمس إلى مستقرِّها ، والشمس لا تجد قَراراً » وَهذا الـكتاب فى الحسن وَالغرابة كالذى قبله .

وَمن جملة الـكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى الإخوان وَهو « تأوَّبَ زَوْرٌ من جانب المجلس السامى أدنى الله داره ، وَجعل كلماته التامة جاره ، وأشهَدَ أفعالَ التقوى ليـله وأفعالَ المـكارم نهـاره ، وَوَهبه من أعمار العمر طِواله ، ومن أعمار العيش قِصاره ، وَلا أقْدَرَ السابقين إلى المعالى أن يَجرُوا معه ، وَلا أن يَشُقُّوا غُباره ، وليس ذلك الزَّوْرُ إلا سطوراً فى قِرطاس ، ولا فرق بين الـكتاب وبين مرسله فى ملاطفة الإيناس ، وَالله لا يُعْدِمُ تمشّى هذا الزائر ويُقِرُّ عينى برؤيته حتى لا أزال به قرير الناظر ، ومع هذا فانى عاتب لتأخره ، وها هنا مظنة العتاب ، وَمن تأخر عنه كتابُ صديقه فلابد أن يخطر له خاطر الارتياب ، وَالظنين بالمودة لا يُرى الا ظنينا ، وَقد قيل إنها وَديعة وَقليلا ما تجد على الودائع أميناً » وَهذا فصل من الـكتاب .

وَمن جملة الكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان وَهو « سنحت روضة من جانب المجلس السامى جعل الله المعالى له رداء ، وَنهايات المساعى له ابتداء ، وَفداه بمن يُقصِّر عن درجته حتى تكون الأكارم له فِداء ، وَهَدَى المحامدَ لأفعاله وَأهْدَى البقاء لأيامه ، حتى يجتمع له الأمران له هُدًى وَإهْداء ، وآتاه من السيادة ما يجعل أعداءه أصادق ، وَمن السعادة ما يجعل أصدقاءه أعداء ، فاستنشق الخادم رَيّاها[1] ، وَتَلَقَّى بالتحية مُحَيَّاها ، وَاستمتع بأزهارها التى أنبتها سُقْيا الأقلام ، لا سَقْىُ الْغَمام ، وَقال هذا ربيع الأروَاح لا ربيع الأجسام ، وَلو رام الإحاطة بوصفها لكانت الأقوال المطوَّلةُ فيها مختصرة ، وَلكنه اكتفى بأن رفعها على رأسه حتى يتمثل أن الجنة فى شجرة ، وَمن أوصافها أنها جاءت رائدة ، وَمِنْ شأن الروض أن يُرتادَ ، وحَلَّتْ محاسنها التى هى فى غيرها من حظ البصر ، وَفيها من حظ السمع وَالبصر وَالفؤاد ، وَلما سرح فيها نظره وَجد شوقه حمامة تُغَرِّدُ فى أكنافها ، وَردد الشَّجَا لبُعْد أليفها ، إذا رددته الحائم لقرب ألآفها ، وهذا قول عند إخوان الصفاء علامة ، وإذا تمثل كتاب الحبيب روضة فهل يتمثل شوق محبه إلا حمامة ؟ وأى فرق بين هذه وبين أخواتها من ذوات الأطواق ، إلا أنها تُمْلِى شَجْوَها على صفحات القلوب وتلك تملية على عَذَبات الأوراق » .

وهذا فصل من الكتاب وهو غريب عجيب ، وفيه معنيان مبتدعان ، وأعجبهما وأغربهما قولى « حتى يتمثل أن الجنة فى شجرة » وهذا مستخرج من الحديث النبوى .

ومن جملة الكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان وهو « تضوَّعَتْ نَفْحَةٌ من تلقاء المجلس السامى رعى الله عهده وسقاه ، وصان وده

(١) كانت بالأصل (رباها).

ووَقَاه ، ويسّرلى إلقاء العصّا بمُلْقاه ، فَعطِرَت الطريق التى سايرتُها ، والريح التى جاورتُها ، فأفرشتُها خدّى ، وضممت عليها وُدّى ، وجعلتها رُدْنا(١) لحبيبى ولطيمةً لرُدْنى ، وسِخَاباً(٢) لمعقدى ،وعلمت أنها ليست بنفحة طِيب ، ولكنها كتاب حبيب ، فإن مناشق الأرواح غير مناشق الأجسام ، ولا يستوى عَرْف الطِّيب وعَرْف الأقلام ، ثم مددت يدى إلى الكتاب بعد أن صافحات يد مُوصّله كما صافحت عَبَق مَنْدَله(٣) ، وقلتُ أهلا بمن أدنى من الحبيب مزارا ، وأهدى لعينى قُرةً ولقلبى قرارا » .

وهذا فى الغرابة كأخواته التى تقدمت ، ولم أستقص ما اخترعته من هذا الباب فى مطالع الكتب .

وأما ما أتيتُ فيه بالحسن من المعانى ولكنه غير مخترع ، فمن ذلك مطلع كتاب كتبته عن الملك نور الدين أرسلان بن مسعود صاحب الموصل إلى الملك الأفضل على بن يوسف يتضمن تعزية وتهنئة ، أما التعزية فبوفاة أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر ، وأما التهنئة فبوراثة الملك من بعده وهو « لا يعلم القلم أينطق بلسان التعزية أم بلسان التهنئة ، لكنه جمعهما جميعا فأتى بهما على حُكم التثنية ، وفى مثل هذا الخطاب يظل القلم حائرا ، وقد وقف موقف السخط والرضا فسخط أولا ثم رضى آخرا ، وهذا البيت الناصرىّ يتداول درجات العلا فما تمضى إلا وإليه ترجع ، وشموسه وأقماره تتناقل مطالع السعود فما يغيب منها غائب إلا وآخر يطلع ، والناس إن فجعوا بماجد ، رَدَفهُ من بعده ماجد ، وإن قيل إن الماضى كان واحدا

---

(١) كانت فى الأصل ردعاً

(٢) السخاب على وزن كتاب قلادة من مسك (نوع من الطيب) وقرنفل ومحلب بلا جوهر .

(٣) العبق : مصدر عبق الطيب إذا فاحت رائحته ، وكانت فى الأصل (عبقة) المندل : على وزن مقعد العود أو أجوده كالمندلى .

تخيل بل الآتي هو الواحد » وهذا فصل من أول الكتاب .

ثم كتبت في هذا المعنى كتابين آخرين وفي الذي أوردته من هذا الفصل مقنع .

ومن هذا الأسلوب ما كتبته إلى بعض الإخوان جوابا عن كتابه ، وكانت الكتب قد انقطعت بيني وبينه زمانا وهو (لقاء كُتُبِ الأحباب كلقاء الأحباب ، وقد تأتي بعد يأس منها فيشتبه دمع السرور بدمع الاكتئاب ، ومن أحسنها كتاب المجلس السامي الفلاني جعل الله الليالي له صَحْبا ، والمعالي له عَقِبا ، ورفع مجده فوق كل ماجد حتى تكون حسناتهم لدى حسناته ذنبا ، ولا زال اسمه في الأفواه عذبا ، وذكره في الألسنة رَطْباً ، ووده لكل إنسان إنسانا ولكل قلب قلبا » ثم انتهيت إلى آخر الكتاب على هذا النسق ، وإنما ذكرت ها هنا مبتدأه لأنه الغرض المقصود في هذا الموضع .

ومن ذلك ما كتبته إلى بعض الإخوان جوابا عن كتابه وهو « البُشْرَى تعطى للكتاب كما تعطى لمرسله ، وكل منهما يُوَفَّى حَقَّ قدره ويُنْزِلُ في مَنْزِلِه ، وكذلك فعل الخادم بكتاب المجلس السامي الفلاني لازال محله أنيسا ، وذكره للفرقدين جليسا ، وسَعْيُه على المكارم حبيسا ، ومجده جديد الملابس إذا كان المجد لبيسا » وها هنا ذكرت في هذا الكتاب كما ذكرته من الذي قبله ، فإني لم أذكر إلا مبدأه الذي هو الغرض .

ومما ينتظم هذا السلك ما كتبته في صدر كتاب يتضمن تعزية وهو « لو لم يلبس قلمي ثوب الحداد لهجر مداده ، ونَضَا عنه سواده ، وبَعُدَ عن قرينته ، وعاد إلى طينته ، وحرم على نفسه أن يمتطي يداً ، أو يجري إلى مَدىً ، لكنه أحَسَّ فندبَ وبَكى فسكَبَ ، وسطر هذا الكتاب من دموعه ، وضمّنه ما حملته أحناء ضلوعه ، وإنما استعار ذلك من صاحبه الذي أعداه ، وأبدى إليه من عزمه

ما أبداه ، وهو نائب عنه فى تعزية سيدنا أحمد الله صبره، ويسر أمره ، وأرضى عنه دهره » ثم أنهيت الكتاب إلى آخره .

ومن محاسن هذا الباب أن يفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم ، أو بخبر من الأخبار النبوية ، أو ببيت من الشعر ، ثم يبنى الكتاب عليه ، فمن ذلك ما كتبته فى ابتداء كتاب يتضمن البشرى بفتح وهو :

ومنْ طَلبَ الفتح الجليل فإنما　　مفاتيحُهُ البيضُ الخِفافُ الصَّوارم (١)

وقد أخذنا بقول هذا الشاعر الحكيم ، وجعلنا السيف وسيله إلى استفتاح المُلك المقيم ، وراية الجدلا تُنصَبُ إلاّ على النَّصَب ، والراحة الكبرى لاتنال إلا على جسر من التعب (٢) ، وكتابنا هذا وقد استولينا على مملكة فلانة وهى للمملكة التى تُمسى الآمال دونها صَرْعَى ، وإذا قيس إليها غيرها من الممالك كانت أصلا وكان غيرها فرعا » وهذا فصل من أول الكتاب .

ومن ذلك ما كتبته فى مفتتح تقليد بالحِسْبة وهو « ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (٣)

---

(١) من قصيدة المتنبي فى مدح سيف الدولة ، التى مطلعها .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم　　وتأتى على قدر الكرام المكارم

الديوان ٤/١٢٢ .

(٢) من قول أبى تمام :

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها　　تنال إلا على جسر من التعب

من قصيدته فى مدح المعتصم بعد فتح عمورية التى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب　　فى حده الحد بين الجد واللعب

الديوان ١/٤٥ .

(٣) قرآن كريم سورة آل عمران ١٠٤ .

هذا أمر يشتمل على معنى الخصوص دون العموم ، ولا يختص به إلا ذوو الأوامر المطاعة وذوو العلوم ، وقد جمع الله لنا هذين الوصفين كليهما ، وجعلنا من المسْتَخْلَفين عليهما ، فنبدأ أولا بحمده الذى هو سبب للمزيد ، ثم لنأخذ فى القيام بأمره الذى هو على كل نفس منه رقيْب عتيد ، ولاريب أن إصلاح العباد يسرى إلى الأرض حتى تزكو بطونها ، وتنام عيونها ، ويشترك فى بركات السماء ساكنها ومسكونها ، والأمر بذلك حِمْلٌ إن لمَ تتوزّعْه الأكفُّ ثَقُل على الرقاب ، وإذا انتشرت أطراف البلاد فإنها تفتقر إلى مساعدة من مستنيب وَمُسْتَناب ، وقد اخترنا لمدينة فلانة رجلا لم نأل فى اختياره جهدا ، وقدّ منافيه خيرة الله التى إذا صدقت نيتّها صادفَتْ رُشْدا ، وهو أنت أيها الشيخ فلان ، فابسط يدك بقوة إلى أخذ هذا الكتاب ، وكن كحسنة من حسناتنا التى يَرْجَح بها ميزان الثواب ، وحقق نظرنا فيك فإنه من الله الذى ليس دونه حجاب » .

فتأمل كيف فعلت فى هذه الآية التى بنيت التقليد عليها ، وهو من محاسن المبادئ الافتتاحات .

وكذلك فعلت فى موضع آخر وهو مفتتح كتاب كتبته إلى شخص كُلفته السفارة إلى مخدومه فى حاجة عرضت وهو « إن أولَى الناس بإبراهيم َلَلذِينَ اتبعوه وهذا النبىُّ والذين آمنوا[1] » . هذا القول تُتْبِع آثاره ، وتُحْمَلُ عليه أنظاره ، وأولى الناس بسيدنا من شاركه فى لُحمْة أدبه ، وإن لم يشاركه فى لُحْمة نسبه ، فإن المناقب أقارب ، والمــآثر أواصر :

وليسَ يَعْرِفُ لى فضلى ولا أدبى إلا امرؤ كان ذا فضل وذا أدب

(١) قرآن كريم سورة آل عمران ٦٨ .

ونتيجة هذه المقدمة بَعْثُ خُلُقه الكريم على عوارف أفضاله ، واستهداء صَنيعة جاهه التي هي أكرم من صنيعة ماله ، ولا تجارة أربحُ من هذه التجارة ، والساعي فيها شريك في الكسب برىء من الخسارة » .

وأما الأخبار النبوية فيُسْلَكُ بها هذا المسلك ، بأن يذكر الخبر في أصدر الكتاب ، ثم يُبْنَى عليه ، ولنذكر منها ولو مثالا واحدا ، وهو توقيع كتبته لولد رجل من أصحاب السلطان ، وتوفي والده ونقل ما كان باسمه إليه فقلت : « قال النبي صلى الله عليه وسلم أنا أوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن مات وترك مالا فَلِوَرَثَتِهِ ، ومن ترك دَيْنا أو كَلًّا أو ضِياعاً فإليّ وعليّ » وهذا خُلُق من الأخلاق النبوية لا مزيد على حسنه ، وأساليب المكارم بأسرها موضوعة في ضمنه ، ونحن نرجو أن نمشي على أثره ، فَنَتَنَزَّل منزلة رَدِيفه ، أو نتشبه به فنبلغ مبلغ مُدِّه أو نَصِيفه ، وقد أرانا الله ذلك في قوم صحبونا فأسعفناهم بمباغي الإنعام ، وأحمدناهم صُحْبَةَ الليالي والأيام ، وتكلفنا أيتامهم من بعدهم حتى ودوا أن يكونوا هم الأيتام ، وهذا ابن فلان رحمه الله ممن كان له في خدمة الدولة قَدَمُ صِدْقٍ وأوّلية سَبْق ، وحَفِظَ كِتَاب المحافظة عليها ، فقيل له في تلاوته اقرأ وارقَ » .

ثم أنهيت التوقيع إلى آخره ، فتأمل مفتتح هذا التوقيع ، فإنه تضمن نص الخبر من غير تغيير ، وقد ضمنته بعض خبر آخر من الأخبار النبوية ، وهو قوله اقرأ وارقَ ، قال النبي صلى الله عليه يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها .

وقد مثلت لك ها هنا أمثالا يُقْتَدَى بها فاحْذُ حَذوها وامض على نهجها ، والله الموفق للصواب .

النوع الثالث والعشرون

فى التخلص والاقتضاب

وهذا النوع أيضا كالذى قبله فى أنه أحد الأركان الخمسة التى تقدمت الإشارة إليها فى الفصل التاسع من مقدمة الكتاب ، وينبغى أيها المتوشح لهذه الفضيلة أن تصرف إليه جل همتك ، فإنه مهم عظيم من مهمات البلاغة . .

[التخلص]

اما التخلص فهو أن يأخذ مؤلف الكلام فى معنى من المعانى ، فبينما هو فيه إذ أخذ فى معنى آخر غيره ، وجعل الأول سببا إليه ، فيكون بعضه آخذا برقاب بعض ، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر ، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغا ، وذلك مما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه من أجل أنّ نطاق الكلام يضيق عليه ، ويكون متبعا للوزن والقافية فلا تواتيه الألفاظ على حسب إرادته ، وأما الناثر فإنه مطلق العنان يمضى حيث شاء ، فلذلك يشق التخلص على الشاعر أكثر مما يشق على الناثر .

وأما الاقتضاب فإنه ضد التخلص ، وذاك أن يَقْطَعَ الشاعر كلامه الذى هو فيه ، ويَسْتَأْنِفَ كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ، ولايكون للثانى علاقة بالأول ، وهو مذهب العرب ومن يليهم من الُمخَضْرَمِين .

وأما المُحدَثون فإنهم تصرفوا فى التخلص فأبدعوا وأظهروا منه كل غريبة ، من ذلك قول أبى تمام :

يَقُولُ فى قُومَسٍ صَحْبِى وقدْ أخَذَتْ ... منا السُّرَى وخُطا المهرِيَّة القُود

أمَطْلَعَ الشمسِ تبغِى أن تَؤُمَّ بنا ... فقلتُ كلاّ ولكنْ مَطْلَعَ الجُود(١)

وهذان البيتان من بديع ما يأتى فى هذا الباب ونادره .

وكذلك قوله أيضاً فى وصف أيام الربيع ثم خرج من ذكره وما وصفه به من الأوصاف فقال :

خُلقٌ أطَلَّ من الربيع كأنه ... خُلُق الإمام وهَدْيُهُ المتيسِّرُ

فى الأرض من عَدْلِ الإمام وجُودِه ... ومن النَّبات الغضِّ سُرْجٌ تُزْهِرُ

تَنْسَى الرياضُ وما يُروِّضُ جودُه ... أبداً على مَرِّ الليالى يُذكَرُ(٢)

وهذا من ألطف التخلصات وأحسنها .

---

(١) فى مدح عبد الله بن طاهر لما خرج إليه (الديوان ٢/١٣٢) قومس : بلد بين العراق وخراسان وطبرستان بالقرب من أصفهان . المهرية : الإبل الكريمة نسبة إلى مهرة ابن حيدان . قود : طويلات الأعناق للفرد قوداء . والذى بالديوان (تبغى أن تؤم بنا) .

(٢) من قصيدته فى مدح المعتصم (الديوان ٢/١٩١) والذى بالديوان (يروض فعله) بدلا من جوده ، وفى الأصل (على مر الزمان ويذكر) فأصلحنا الشطر من الديوان . يريد أن الرياض تنسى وتذبل أما فعله فلا ينقص ولا ينسى .

وكذلك قوله فى قصيدته الفائية التى أولها « أما الرسوم فقد أذكرن ماسلفا » فقال فيها(١) :

غَيْداء جادَ وَلِىُّ الحسن سُنّتَها فصاغهـــا بيديه جَنّةً أُنُفا
يُضحِى العذول على تأنيبه كلِفاً بعذر مَنْ كان مَشْغوفاً بها كَلِفا
ودع فؤادَك توديعَ الفِراق فما أراه من سَفَرِ التوديع مُنْصَرِفا
يُجاهد الشوقَ طوراً ثم يَجْذِبه جِهادُه للقوافِى فى أبى دُلَفا

وهذا أحسن من الذى قبله ، وأدخل فى باب الصنعة .

وكذلك جاء قوله :

زَعَمَت هواكَ عفَا الغداةَ كما عفَت منها طلول باللِّوى ورسوم
لا والذى هـــو عالم أن النَّوى صَبرٌ وأن أبا الحُسَيْنِ كريم
مازُلت عن سَنن الوداد ولا غدَت نفسى على إلفٍ سواكَ تحوم(٢)

وهذا خروج من غزل إلى مديح أغزل منه .

---

(١) من قصيدته فى مدح أبى دلف القاسم بن عيسى العجلى (الديوان ٢/٣٠٩) ، التى مطلعها :

أما الرسوم فقد أذكرن ما سلفا فـــلا تكفن عن شانيك أو يكفا

وفى الديوان (روضة أنفا)

ولى الحسن : الحسن المتوالى المتتابع ، من الولى وهو المطر بعد المطر .

(٢) من قصيدته فى مدح أبى الحسين محمد بن الهيثم بن شبانة (الديوان ٣/٢٨٩) ، التى مطلعها :

أسقى طلولهـــم أجش هزيم وغدت عليهـــم نضرة ونعيم

كان الأصل (النوى أجل) و (ما حلت عن سنن الوداد) .

ومن البديع فى هذا الباب قول أبى نواس من جملة قصيدته المشهورة التى أولها « أجارة بَيْتَيْنا أبوك غيور » فقال عند الخروج إلى ذكر الممدوح : .

تقول التى من بيتها خَفَّ مَرْكَبى ... عزيزٌ علينا أن نراك تَسِير
أما دون مِصْرٍ للغنى مُتَطَلَّبُ ... بَلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستَعْجَلَتْها بوادرٌ ... جَرَتْ فجرى فى جَرْيِهن عَبير
ذرينى أُكثِّرْ حاسِدِيك برحلة ... إلى بلد فيها الخصيب أمير (١)

ومما جاء من التخلصات الحسنة قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته الدالية التى أولها « عواذلُ ذات الخال فىَّ حواسد » :

وأورِدُ نَفْسِى والمُهَنَّدُ فى يَدِى ... مواردَ لا يُصْدِرْنَ مَنْ لا يُجالِدُ
ولكنْ إذا لم يحمل القلبُ كفَّه ... على حالة لم يَحْمل الكفَّ ساعدُ
خليلىَّ إنى لا أرى غيرَ شاعرٍ ... فلِمْ منهمُ الدَّعْوَى ومنِّى القصائدُ ؟
فلا تَعْجَبا إن السيوفَ كثيرةٌ ... ولكنَّ سيف الدولة اليومَ واحدُ (٢)

---

(١) الديوان ٤٨٠) من قصيدته فى مدح الخصيب . بالديوان (عن بيتها) و فيه (الخصيب) . بوادر : دموع مستبقات . عبير : رائحة ذكية ، أى اختلط همها بعبيرها .

(٢) من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :

عواذل ذات الخال فى حواسد ... وإن ضجيع الخود منى لماجد

(الديوان ١/٣٠٥) .

لا يصدرن من لا يجالد : أورد نفسى فى الحرب موارد هلاك لا يرجع واردها حيا . ومعنى البيت الثانى أن قوة الضرب إنما تكون بالقلب لا بالكف ؛ فإذا لم تقو الكف بقوة القلب فإنها لا تقوى بقوة الساعد .

وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض .

ألا ترى إلى الخروج إلى مدح الممدوح فى هذه الأبيات كأنه أفرغ فى قالب واحد ، ثم إن أبا الطيب جمع بين مدح نفسه ومدح سيف الدولة ببيت واحدهو من بدائعه المشهورة .

وكذلك قوله أيضاً وهو من أحسن ما أتى به من التخلصات ، وهو فى قصيدته التائية التى أولها « بِسِرْبٌ محاسنهُ حُرِمْتُ ذَواتِها » فقال فى أثنائها :

وَمَطالبٍ فيها الهلاكُ أتيتُها ثَبْتَ الجَنانِ كأننى لم آتِها
ومقانِبٍ بمقانِبٍ غادرتُها أقواتَ وَحْشٍ كنَّ من أقواتِها
أقبلتُها غُرَرَ الجيادِ كأنما أيدِى بنى عِمْرانَ فى جَبَهاتِها
الثَّابتين فروسةً كجلودها فى ظهرها والطَّعْنُ فى لبَّاتِها
فكأنها نُتِجتْ قياماً تحتهم وكأنهم وُلِدُوا على صَهَواتِها
تلك النفوسُ الغالباتُ على العلا والمجدُ يغلبها على شَهَواتِها
سُقِيَتْ منابتُها التى سَقَتِ الورَى بيدَىْ أبى أيوبَ خيرِ نَباتِها(١)

= ومعنى البيت الرابع أنه فى الشعراء ممتاز كسيف الدولة فى السيوف ، فكل منهما منقطع النظير وإن كان له أشباه ونظائر فى التسمية .

(٢) من قصيدته فى مدح أبى أيوب أحمد بن عمران (الديوان ١/٢٥٥) .

مقانب : جمع مقنب وهو الطائفة من الخيل تجتمع للغارة . أقوات : مفعول ثان لغادرتها يقول رب جيش من الفرسان لقيته بمثله من صحبى فتركته قوتا للوحوش التى كانت قوتا له يصيدها ويذبحها ويأكلها .

أقبلتها غرر الجياد : جعلتها تقبل غرر جيادها التى أوصلتها إلى أعدائها وشفت صدورها منهم ، كأن هذه الغرر أيدى بنى عمران . نتجت : ولدت . صهواتها : جمع صهوة وهى مقعدا لفارس على الحصان .

فانظر إلى هذين التخلصين البديعين ، فالأول خرج به إلى مدح قوم الممدوح، والثانى خرج به إلى نفس الممدوح ، وكلاهما قد أغرب فيه كل الإغراب .

وعلى هذا جاء قوله :

إذا صُلْتُ لم أترُكْ مَصَالاً لصائل وإن قُلْتُ لم أترك مقالاً لعالم
وإلا فخانَتْنِى القوافِى وعاقَنِى عن ابن عُبَيْدِ الله ضَعْفُ العزائم(١)

والشعراء متفاوتون فى هذا الباب ، وقد يُقَصِّرُ عنه الشاعر المفلق المشهور بالإجادة فى إيراد الألفاظ واختيار المعانى ، كالبحترى فإن مكانه من الشعر لا يُجْهل ، وشعره هو السهل الممتنع الذى تراه كالشمس قريباً ضوؤها بعيداً مكانها ، وكالقناة ليِّناً مسها خشِناً سِنانها ، وهو على الحقيقة قَيْنَةُ الشعراء فى الإطراب، وعَنْقاؤهم فى الإغراب ، ومع هذا فإنه لم يُوَفَّقْ فى التخلص من الغزل إلى المديح ، بل اقتضبه اقتضابا .

ولقد حفظت شعره فلم أجد له من ذلك شيئاً مرضياً إلا اليسير ، كقوله فى قافية الباء من قصيدة .

وكفانى إذا الحوادثُ أظلمـ ـنَ شهابا بغرّة ابن شِهابِ(٢)

وكقوله فى قافية الدال من قصيدة :

قَصَدَتْ لنَجْرانِ العراقِ ركابُنا يَطْلُبْنَ أرْحَبَها محلَّةَ ماجدِ

---

(١) من قصيدته فى مدح أبى محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج (الديوان ٤ / ٣٠٢) كان الأصل (مصالا لقائلك) .

(٢) من قصيدته فى مدح أحمد ابن اسماعيل بن شهاب التى مطلعها :

ما على الركب من وقوف الركاب فى مغانى الصبا ورسم التصابى

الديوان ١/٧١) .

آلَيتُ لا تَلْقَيْنَ جَدًّا صاعداً   فى مَطْلب حتى تُنَخْنَ بصاعد(١)

وكقوله فى قصيدته التى أولها « حَلَفْتُ لها بالله يوم التفرق » فإنه تشوق فيها إلى العراق من الشام ، ووصف العراق ومنازله ورياضه فأحسن فى ذلك كله ، ثم خرج إلى مدح الفتح بن خاقان بسياقة آخذة بعضها برقاب بعض فقال :

رِباعٌ من الفتح بن خاقانَ لم تَزَلْ   غنىً لِعَديمٍ أو فكاكاً لِموثقِ(٢)

ثم أخذ فى مدحه بعد ذلك بضروب من المعانى ، وكذلك ورد قوله فى قصيدته التى أولها : « ميلوا إلى الدار من لَيْلى نُحَيِّيها » فإنه وصف البركة فأبدع فى أوصافها ، ثم خرج منها إلى مدح الخليفة المتوكل فقال :

كأنها حِينَ لجَّتْ فى تدفُّقِها   يَدُ الخليفة لما سال واديها(٣)

وأحسن ما وجدته له ، وهو مما تَلَطَّفَ فيه كل التَّلَطُّف قوله فى قصيدته التى يمدح بها ابن بَسْطام ومطلعها « نَصِيبُ عينيك من سَحٍّ وتَسْجام » فقال عند تخلصه إلى المديح :

هل الشبابُ مُلِمٌّ بى فراجعةٌ   أيامُهُ لِيَ فى أعقاب ايام ؟

لو أنه بابل عمر يجاذبه   إذاً تطلبته عند ابن بسطام(٤)

---

(١) من قصيدته فى مدح صاعد بن مخلد (الديوان ١/١٥٨)
فى الأصل (ففنلك أزجيها علة ما جد) ولا معنى له ، وبه (حتى تناخ) والديوان أصوب .

(٢) تكملة للطلع : وبالوجد من قلبى بها المتعلق (الديوان ٢/١٢٢ وبالديوان (تسكاكا لمرهق) .

(٣) تكملة المطلع : نعم ونسألها عن بعض أهليها (الديوان ٢/٣١٨) .

(٤) لم نعثر على الشطر ولا على البيتين فى ديوانه . وقوله (لو أنه بابل عمر) فيه تحريف وغموض .

وهذا من الملائم فى هذا الباب .

وله مواضع أخرى يسيرة بالنسبة إلى كثرة شعره .

وقال أبو العلا محمد بن غانم المعروف بالغانمى[1] إن كتاب الله خال من التخلص . وهذا القول فاسد لأن حقيقة التخلص إنما هى الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره بلطيفة تلائم بين الكلام الذى خرج منه والكلام الذى خرج إليه ، وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة كالخروج من الوعظ والتذكير والإنذار والبشارة بالجنة إلى أمر ونهى ووعد ووعيد ، ومن محكم إلى متشابه ، ومن صفة لنبى مرسل ومَلَك مُنَزَّل إلى ذم شيطان مَرِيد وجبار عنيد ، بلطائف دقيقة ومعانٍ آخذٍ بعضها برقاب بعض .

فما جاء من التخلص فى القرآن الكريم قوله تعالى واتلُ عليهم نبأ إبراهيم. إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا نَعْبُدُ أصناما فنَظَلُّ لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذْ تَدْعون أو ينفعونكم أو يَضُرُّون ؟ قالوا بل وَجَدْنا آباءنا كذلك يَفْعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عَدُوٌّ لى إلا ربَّ العالمينْ الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يُطْعمنى ويَسْقين ، وإذا مَرِضْتُ فهو يَشْفين ، والذى يُميتنى ثم يُحْيين ، والذى أَطْمَعُ أن يَغْفِرَ لى خطيئتى يومَ الدِّين ، ربِّ هَبْ لِىَ حُكْمًا وألحِقْنى بالصالحين ، واجعل لى لسانَ صدقٍ فى الآخِرين، واجعلنى من وَرَثةِ جَنَّة النعيم ، واغفرْ لأبى إنه كان مِنَ الضالين ، ولا تُخزِنى يومَ يبعثون . يومَ لا يَنْفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وأُزْلِفَت الجنةُ للمتقين ، وبُرِّزَتِ الجحيم للغاوين ، وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون

---

(١) أبو العلا محمد بن غانم ، كان من شعراء عصره وفضلائه ، وهو من شعراء نظام الملك (اللباب لابن الأثير ٣/١٦٦) .

من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ، فكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود إبليس أجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين ، وما أضلنا إلا المجرمون ، فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ، فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين »(١) .

هذا كلام يبهر العقول ، ويسحر الألباب ، وفيه كفاية لطالب البلاغة ، فإنه متى أنعم فيه نظره ، وتدبر أثناءه ومطاوى حكمته علم أن فى ذلك غنى عن تصفح الكتب المؤلفة فى هذا الفن ، ألا ترى ما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا سؤال مستفهم ، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، وعلى تقليد آبائهم الأقدمين فكسره ، وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ، ثم أراد الخروج من ذلك إلى ذكر الإله الذى لا تجب العبادة إلا له ، ولا ينبغى الرجوع والإنابة إلا إليه ، فصور المسألة فى نفسه دونهم بقوله : « فإنهم عدو لى » ، على معنى أنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو وهو الشيطان فاجتنبتها ، وآثرت عبادة من الخير كله فى يده ، وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه ، لينظروا فيقولوا ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، فيكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله ، وأبعث على الاستماع منه ، ولو قال فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ، فتخلص عند تصويره المسألة فى نفسه إلى ذكر الله تعالى ، فأجرى عليه تلك الصفات العظام من تفخيم

---

(١) الشعراء ٦٩ — ١٠٢ .

شأنه ، وتعديد نِعَمه ، من لَدُنْ خَلَقَه وأنشأه إلى حين وفاته ، مع ما يُرَجِّى في الآخرة من رحمته ، ليعلم من ذلك أن مَنْ هذه صِفاتُه حقيقٌ بالعبادة ، واجب على الخلق الخضوعُ له والاستكانةُ لعظمته .

ثم خرج من ذلك إلى ما يلائمه ويناسبه ، فدعا الله بدعوات المخلصين ، وابْتَهَلَ إليه ابتهالَ الأوابين ، لأن الطالبَ من مَوْلاه إذا قدم قبل سؤاله وتضرعه الاعترافَ بالنعمة كان ذلك أَسْرَعَ للإجابة ، وأَنْجَحَ لحصول الطَّلِبَةَ .

ثم أدرج في ضمن دعائه ذِكْرَ البَعْثَ ، ويومَ القيامة ومجازاةَ الله تعالى من آمن به واتقاه بالجنة ومن ضَلّ من عباده بالنار ، فجمع بين الترغيب في طاعته ، والترهيب من معصيته .

ثم سأل المشركين عما كانوا يعبدون سؤالا ثانيا عند معاينة الجزاء ، وهو سؤالُ موبِّخ لهم مستهزىء بهم ، وذكر ما يُدْفَعُون إليه عند ذلك من النـــدم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال ، وتَمَنّى العودة ليؤمنوا . .

فانظر أيها المتأمل إلى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضُهُ برقاب بعض ، مع احتوائه على ضروب من المعاني ، فَيَتَخَلَّصُ من كل واحد منها الى الآخر بلطيفة ملائمة ، حتى كأنه أُفْرِغَ في قالب واحد ، فخرج من ذكر الأصنام وتنفير أبيه وقومه من عبادتهم إياها ، مع ما هي فيه من التعرى عن صفات الإلهية ، حيث لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، إلى ذكر الله تعالى ، فوصفه بصفات الإلهية ، فعَظَّمَ شأنَه ، وعدَّد نِعمه ، ليُعْلَمَ بذلك أن العبادة لا تصحُّ إلا له .

ثم خرج من هذا إلى دعائه إياه وخضوعه له ، ثم خرج منه إلى ذكر يوم

القيامة وثواب الله وعقابه ، فتدبر هذه التخلصات اللطيفة المودعة فى أثناء هذا الـكلام .

وفى القرآن مواضعُ كثيرةٌ من التخلصات ، كالذى وَرَدَ فى سورة الأعراف، فإنه ذكر فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية من آدم إلى نوح عليهما السلام ، وكذلك إلى قصة موسى عليه السلام ، حتى انتهى إلى آخرها الذى هو :

﴿واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِين رَجُلاً لميقاتنا ، فلما أخَذَتْهم الرَّجفة قال ربِّ لو شئتَ أهلـكتهم من قَبلُ وإياى ، أَتُهلـكنا بما فَعَلَ السُّفهاء منا ، إن هى إلا فتنتك تُضل بها من تشاء وتَهدى من تشاء ، أنت وليُّـنا فاغْفِرْ لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنةً وفى الآخرة إنا هُدنا إليك ، قال عذابى أُصيبُ به من أشاء ، ورحمتى وَسِعَتْ كلَّ شىء ، فسأكتبها للذين يَتَّقُونَ ويُؤتُونَ الزكاةَ ، والذين هم بآياتنا يُؤْمنون ، الذين يَتَّبِعُونَ الرَّسولَ النبى الأُمِّى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحلُّ لهم الطيبات ويحرِّم عليهم الخبائثَ ، ويَضَعُ عنهم إصرَهم والأغلالَ التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعَزَّرُوه ونَصَرُوه واتَّبَعُوا النورَ الذى أُنزلَ معه أولئك هم المفلحون[1]﴾ .

هذا تخلص من التخلصات الحسان ، فإن الله تعالى ذكر الأنبياء والقرون

(١) الأعراف ١٥٥ — ١٥٧ .

للماضية إلى عهد موسى عليه السلام ، فلما أراد ذِكْرَ نبينا صلوات الله عليه وسلامه ذَكَرَهُ بتخلص انتظم به بعض الكلام ببعض .

ألا ترى أنه قال قال موسى عليه السلام « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة » فأجيب بقوله تعالى قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين مَنْ حالهم كذا وكذا ، ومَنْ صفتهم كيت وكيت ، وهم الذى يتبعون الرسول النبى الأمى ، ثم وصفه صلوات الله عليه بصفاته إلى آخر الكلام .

ويالله للعجبُ كيف يزعم الغانمى أن القرآن خالٍ من التخلص ؟ ألم يكفه سورة يوسف عليه السلام ، فإنها قصة برأسها ، وهى مضمّنة شرح حاله مع إخوته من أول أمره إلى آخره ، وفيها عدّة تخلصات فى الخروج من معنى إلى معنى ، وكذلك إلى آخرها .

ولو أخذت فى ذكر مافى القرآن الكريم من هذا النوع لأطلت ، ومن أنعم نظره فيه وجد من ذلك أشياء كثيرة[1] .

وقد جاءنى من التخلصات فى الكلام المنثور أشياء كثيرة ، وسأذكر هاهنا نبذة يسيرةً منها ، فمن ذلك ما أوردتُهُ فى كتاب إلى بعض الإخوان أصِفُ فيه الربيع ثم خرجت من ذلك إلى ذكر الأشواق فقلت « وكما أن هذه

---

(١) أورد الزركشى فى كتابه البرهان فى علوم القرآن ١/ ٤٣ — ٥٥ دعوى الغانمى التى ذكرها ابن الأثير ، وذكر أمثلة من التخلص فى القرآن الكريم ، بعضها ذكره ابن الأثير ، ونرجح أن الزركشى نقل من ابن الأثير لأنّ الزركشى توفى سنة ٧٩٤ وابن الأثير توفى سنة ٦٣٧ .

الأوصاف فى شأنها بديعة ، فكذلك شوق فى شأنه بديع ، غير أنه لحرِّه فصلُ صيف وهذا فصل ربيع ، فأنا أملى أحاديثه العجيبةَ على الشوَى ، وقد عرَفْتُ حديثَ من قتله الشوقُ فلا أستغضُّ حديثَ من قتله الهوى » .

ومن هذا الأسلوب ما كتبته إلى بعض الإخوان أيضا وأرسلته إليه من بلاد الروم ، وهو كتاب يشتمل على وصف البَرْد وما لاقيتُهُ منه ، ثم خرجت من ذلك إلى ذكر الشوق فقلت « ومما أشكوه من بَرْدها أن الفرْو لا يُلْبَسُ إلا فى شهر ناجر ، وهو قائم مقام الظل الذى يُتَبَرَّدُ به من لَفْح الهواجر ، ولفرط شدته لم أجد ما يخففه ، فضلا عما يذهبه ، فإن النار المعدَّة له تطلب من الدفء أيضا ما أطلبه ، لكنْ وجدتُ نار أشواق أشدَّ حرًّا ، فاصطليت بجمْرها التى لا تُذْكَى بزناد ، ولا تؤُولُ إلى رماد ، ولا يدفَع البردُ الواردُ على الجسد بأشدَّ من حَرِّ الفؤاد . غير أنى كنت فى ذلك كمن سَدَّ خَلَّةً بخَلَّة ، واستشْفَى من عِلَّة بعلة ، وأقتلُ ما أعلَّكَ ما شفاك ، فما ظنك بمن يصطلى نار الأشواق . وقد قنع من أخيه بالأوراق ، فضَنَّ عليه بالأوراق » .

ومما ينتظم فى هذا العقد ما ذكرته فى مفتتح كتاب يتضمن عناية ببعض المتظلمين فاستطردت فيه إلى ذكر المكتوب إليـــــه وهو « هدايا المكارم أنفسُ من هدايا الأموال ، وأبقَى على تعاقب الأيام والليال ، وقد حمل هذا الكتاب منها هدية تُورِثُ حَمْداً ، وتُكْسِبُ مَجْداً ، وهى خيرٌ ثوابا وخير مَرَدًّا ، ولا يسير بها الا سَجِيةٌ طبعت على الكرم ، وخُلِقَتْ من عُنْصُرِ الدِّيَم ، كسَجِية مولانا أعلاه الله علوا تفخر به الأرض على السماء ، وتحسدُه شمسُ النهار ونجومُ الظلماء ، ولازالت أياديه مُخْجلةً صَوْبَ الغَمام، مُعْدِيةً على نُوَب الأيام، مغنية بشرف فضلها على شرف الأخوال والأعمام . وتلك الهديةُ هى تجديد الشفاعة فى أمر

فلان ، ومن إيمان المرء سعيُه في حاجة أخيه ، وإن لم يمسه بشيء أسباب أَوَاخيه ، فإن المؤمنين إخوةٌ وإن تباينت مَناسِبُهُمْ ، وتفاوتت مراتبهم ، ومن صِفَتِهم أنه يَسْعَى بذمتهم أدناهم ، وخَيْرُهُمْ من عَنَاه من الأمر ما عناهم » . ثم مضيتُ على هذا النهج إلى آخر الكتاب .

ومن ذلك ما كتبته من كتاب إلى صديق استحدثتُ مودته ، وهو من أهل العراق وكنت اجتمعت به بالموصل ، ثم سار عَنِّى فكتبت إليه أستهد به رُطَبًا ، فقلت « هذه المكاتبة ناطقة بلسان الشوق الذى تَزِفُ كَلِمُهُ زَفِيفَ الأوراق ، وتَسْجَعُ سَجْعَ ذوات الأطواق ، وتهتف وهى مقيمةٌ بالموصل فتُسْمِع من هو مقيم بالعراق ، وأَبْرَحُ الشَّوقِ ما كان عن فراقٍ غيرِ بعيد ، ووُدٍّ استجدّت حُلَّتُهُ ، واللذة مقترنةٌ بكل شيء جديد . وأرجو ألا يُبْلِى قدم الأيام لهذه الجِدَّةَ لباسا ، وأن يعاذ فى نظرة الجنّ والإنس حتى لا يخشى جِنَّةً ولا باسا . وقد قيل إن للمودات طعما ، كما أن لها وَسْما ، وأن ذا اللب يصادق نفسا قبل أن يصادق جسما . وإنى لأجد لمودة سيدنا حلاوة يُسْتَلَذُّ دوامُها ، وقد أذْكَرَتْنِى الآن بحلاوة الرُّطب الذى هو من أرضها ، وغير عجيب لمناسبة الأشياء أن يُذَكِّرَ بعضُها بعضها ، إلا أن هذه الحلاوة تنال بالأفواه ، وتلك تنال بالأسرار ، وفرق بين ما يُغْتَرَسُ بالأرض وما يُغْتَرَسُ بالقلب فى شرف الثمار ، فلا ينظر سيدنا علىّ فى هذا التمثيل ، ولربما كان ذلك تعريضاً ينوب مناب التطفيل » .

وهذا من التخلصات البديعة ، فانظر أيها المتأمل كيف سقت الكلام إلى استهداء الرطب ، وجعلت بعضه آخذاً برقاب بعض ، حتى كأنه أفرغ فى قالب واحد ، وكذلك فليكن التخلص من معنى إلى معنى .

وهذا القدر من الأمثلة كاف للتعلم .

ومما أستظرف من هذا النوع فى الشعر قول (ابن الزمكرم)[١] الموصلى وهو :

وليلٍ كوَجْهِ البَرْقَعيدىّ مظلمٍ وَبرْدِ أغانيه وطُول قرونه
سَرَيْتُ ونومى فيه نومُ مشرَّدٍ كعقل سليمانَ بن فَهْدٍ ودينه
على أوْلَقٍ فيه التفاتٌ كأنه أبو جابر فى خَبْطه وجنونه[٢]
إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه سَنَا وجه قرْواش وضوء جَبينه[٣]

وهذه الأبيات لها حكاية ، وذلك أن هذا الممدوح وهو شرف الدولة قرواش مَلِكَ العرب وكان صاحب الموصل ، فاتفق أنه كان جالساً مع ندمائه فى ليلة من ليالى الشتاء وفى جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر ، وكان البرقعيدى مغنيا

---

(١) ذكر ياقوت هذه الأبيات غير منسوبة إلى قائلها (مادة برقعيد) .

ورجعنا إلى كثير من كتب الأدب ، لعلنا نهتدى إلى تصويب اسم القائل (ابن الزمكرم) كما ذكره المؤلف ، فلم نعثر على ضالتنا . ثم رجعنا إلى الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، وتعقبنا كل ما ذكر عن قرواش الذى جاء ذكره فى الأبيات ، فوجدناه يذكر أن الشاعر اسمه ابن الزمكرم (الكامل لابن الأثير ٧/٣٠٨) أما فوات الوفيات لابن شاكر ٢/٢٦٥ فهو يذكر الأبيات منسوبة للطاهر الجزرى .

(٢) أولق : الولق : الناقة السريعة ، والأولق : الجنون وشبهه ، ولعله ذكر (الأولق) مريدا به التذكير ليدل به على الجمل السريع ، وإن كانت اللغة لا تطاوعه فى هـــذا .

(٣) البرقعيدى : منسوب إلى برقعيد ، بلد من أعمال الموصل ، منه بنو حمدان التغلبيون سيف الدولة وأهله . والأبيات فى هجاء سليمان بن فهد الموصلى ومدح قرواش ابن المقلد أمير بنى عقيل ، مع تغيير يسير (معجم البلدان مادة برقعيد) .

والأبيات فى الكامل لابن الأثير ٧/٣٠٨ كما هى ، عدا ظلمة بدلا من مظلم . وهى كما قال فى قرواش وابن فهد والبرقعيدى وأبى جابر ، وقد أجمع أهل البيان على أنها غاية فى الجودة ، لم يقل أحد خيرا منها فى معناها .

وقد مات قرواش أو قتل سنة ٤٤٤ (فوات الوفيات ٢/٢٦٥) ، أو سنة ٤٤٢ (البداية والنهاية ١٢/٦٢) .

وسليمان بن فهد وزيراً ، وأبو جابر حاجباً ، فالتمس شرف الدولة من هذا الشاعر أن يهجوه المذكورين ويمدحه ، فأنشد هذه الأبيات ارتجالا ، وهى غريبة فى بابها لم يُسْمَعْ بمثلها ، ولم يَرْضَ قائلها صناعة التخلص وحدها حتى رَقِىَ فى معانيه المقصودة إلى أعلى منزلة ، فابتدأ البيت الأول بهجو البرقعيدى ، فجاء فى ضمن مراده ذِكْرُ أوصاف ليل الشتاء جميعها ، وهى الظلمة والبرد والطول ، ثم إن هذه الأوصاف الثلاثة جاءت ملائمة لما شُبِّهَتْ به مطابقةً له ، وكذلك البيت الثانى والثالث ، ثم خرج إلى المديح بألطف وجه وأدق صنعة، وهذا يسمى الاستطراد ، وما سمعت فى هذا الباب بأحسن من هذه الأبيات .

ومما يجرى على هذا الأسلوب ماورد لابن الحجّاج البغدادى وهى أبيات لطيفة جداً :

ألا يا ماء دِجْلَةَ لستُ أدرى　　　بأنى حاسِدٌ لك طول عمرى
ولو أنى استطعت سَكِرْتُ سُكراً　　　عليك فلم تكن يا ماء تجرى
فقال الماء : ما هــذا عجيبٌ　　　بما استوجبتَهُ ياليت شعرى
فقلت له : لأنك كلّ يوم　　　تمُرُّ على أبى الفضل بن بشر
تراه ولا أراه وذاك شىء　　　يَضيقُ عن احتمالك فيه صبرى[1]

وما علمت معنى فى هذا القصد ألطف ولا أرق ولا أعذب ولا أحلى من هذا اللفظ ، ويكفى ابن الحجاج من الفضيلة أن يكون له مثل هذه الأبيات .

---

(١) معاهد التنصيص ٢٠٣/٤ وفيه البيت الثالث هكذا :

فقال الماء قل لى كل هــذا　　　بم استوجبته ياليت شعرى

وفى البيت الأخير كلمة صدرى بدلا من صبرى .

ولا تظن أن هذا شيء انفرد به المحدَّثون لما عندهم من الرقة واللطافة ، وفات من تقدمهم لما عندهم من قَشَف العيش وغلظ الطبع ، بل قد تقدم أولئك إلى هذا الأسلوب وإن أقلوا منه وأكثر منه المحدثون ، وأى حُسْنٍ من محاسن البلاغة والفصاحة لم يُسْبَقُوا إليه ؟ وكيف لا وهم أهله ومنهم عُلِمَ وعنهم أُخِذَ ؟

فمن ذلك ماجاء للفرزدق وهو :

ورَكْبٍ كأنّ الريح تطلب عندهم لها تِرَةً من جَذْبِها بالعَصَائب
سَرَوْا يَخْبطون الليل وهى تَلُفُّهم على شُعَبِ الأكْوار من كلّ جانب
إذا ما رأوا نارا يقولون ليتها وقد خَصِرَتْ أيديهمُ نارُ غالب[(١)]

فانظر إلى هذا الاستطراد ما أحله وأفخمه .

واعلم أنه قد يقصد الشاعر التخلص فيأتى به قبيحاً ، كما فعل أبو الطيب المتنبى فى قصيدته التى أولها [مُلِثّ القَطْرِ أَعْطِشْها رُبوعاً] فقال عند الخروج من الغزل إلى المديح :

غدا بك كل خِلْوٍ مُسْتهاما وأصبح كلُّ مَسْتورٍ خَلِيعاً
أُحبك أو يقولوا جَرّ نَمْلٌ ثَبِيراً وابن إبراهيم رِيعا[(٢)]

---

(١) الديوان ١/٣٠ وكان البيت الأول بالأصل (عندها ، لها قوة) والبيت الثانى (يخطبون) أما البيت الثالث فقد كان بالأصل (إذا آنسوا) وهى رواية معاهد التنصيص وفى الأغانى (إذا استوضحوا) .

(٢) الديوان ٢/٤٢٧ فى مدح على بن إبراهيم التنوخى . ملث القطر : المطر الدائم . الخلو : الخالى من الهوى . المستهام : الذاهب اللب من الهوى . الخليع : الذى ترك الحياء وتهتك فى الهوى . أو يقولوا : إلى أن يقولوا . ثبير : جبل بالحجاز . ريع : أخيف . ابن إبراهيم . هو على الممدوح .

هذا تخلص كما تراه بارد ليس عليه من مسحة الجمال شيء ، وها هنا يكون الاقتضاب أحسن من التخلص .

فينبغي لسالك هذه الطرق أن ينظر إلى ما يصوغه ، فإن واتاه التخلص حسنا كما ينبغي ، وإلا فليدعه ولا يستكرهه حتى يكون مثل هذا كما فعل أبو الطيب .

ولهذا نظائر وأشباه ، وقد استعمل ذلك في موضع آخر في قصيدته التي أولها :

« أحيا وأيسرُ ما قاسيتُ ما قَتَلا » فقال :

عَلَّ الأميرَ يرَىَ ذُلِّي فيشفعَ لي ... إلى التي تركتني في الهوى مَثَلا(١)

والإضراب عن مثل هذا التخلص خيرٌ من ذِكْره ، وما ألقاه في الهُوّة إلا أبو نواس فإنه قال :

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد ... هواكِ لعل الفضل يجمع بيننا(٢)

على أن أبا نواس أخذ ذلك من قيس بن ذُرَيح ، لكنه أفسده ولم يأت به كما أتى به قيس ، ولذلك حكاية وهو أنه لما هام بلُبْنَى في كل واد وجُنَّ بها رق له الناس ورحموه ، فسعى له ابن أبي عَتِيق إلى أن طلقها من زوجها وأعادها إلى قيس ، فزوجها إياه ، فقال عند ذلك :

جَزَى الرحمن أفضلَ ما يُجازِي ... على الإحسان خيراً من صديق

فقد جرَّبتُ إخواني جميعا ... فما ألفَيتُ كابن أبي عتيق

سعى في جمع شَمْلِي بعد صَدْعٍ ... ورأيٍ حِدْتُ فيه عن طريق

وأطفَا لوعةً كانت بقَلبي ... أغصّتني حرارتُها بريقي(٣)

---

(١) الديوان ٣/٣٠٢ في مدح سعيد بن عبد الله بن الحسن الكلابي المنبجي .
(٢) الديوان ٤٧٤ .
(٣) الأغاني ٨/١٢٩ كان في الأصل (وقد جربت) و (رأى حرت)

وبين هذا الكلام وبين كلام أبي نواس بَوْنٌ بعيد ، وقد حكى عن ابن أبي عتيق أنه قال : ياحبيبي أمسِكْ عن هذا المديح ، فما يسمعه أحد إلا ظنني قوّادا .

[الاقتضاب]

وأما الاقتضاب فهو الذي أشرنا إليه في صدر هذا النوع ، وهو قطع الكلام واستئناف كلام آخر غيره بلا علاقة تكون بينه وبينه .

فمن ذلك ما يقرب من التخلص وهو فصل الخطاب ، والذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه أما بعد ، لأن المتكلم يفتتح كلامه في كل أمر ذي شأن بذكر الله وتحميده ، فإذا أراد أنَ يخرُجَ إلى الغرضَ المسوق إليه فَصَلَ بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله أما بعد .

ومن الفصل الذي هو أحَسَنُ من الوصل لفظة هذا ، وهي علاقة وكيدة بين الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره كقوله تعالى : ﴿ واذكر عِبادنا إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوبَ أولي الأيد والأبصار ، إنا أخْلَصْناهم بخالصة ذِكْرَى الدار وإنهم عندنا لمن المُصْطَفَيْن الأخيار ، واذكر إسماعيل واليَسَعَ وذَا الكِفْلِ وكلٌّ من الأخيار ، هذا ذِكْرٌ وإن للمتقين لحُسْنَ مآب ، جناتِ عَدنٍ مفتَّحَةً لهم الأبواب[1] ﴾ .

ألا ترى إلى ما ذكَرَ قبل (هذا) ؟ ذكَرَ مَنْ ذكَرَ من الأنبياء عليهم السلام ، وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر غيره وهو ذكر الجنةَ وأهلها ، فقال « هذا ذكر » ثم قال « وإن للمتقين لحسن مآب » ثم لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد

(١) سورة ص ٤٩ — ٥٠ .

أن يعقبه بذكر أهل النار قال « هذا وإن للطاغين لشرَّ مآب » وذلك من فصل الخطاب الذى هو ألطف موقعا من التخلص .

وقد وردت لفظة هذا فى الشعر ، إلا أن ورودها فيه قليل بالنسبة إلى الكلام المنثور ، فمن ذلك قول الشاعر المعروف بالخبّاز البلدى[1] فى قصيدة أوّلها .

« العيش غَضٌّ والزمان غرير » .

إنى ليعجبنى الزّنا فى سُحْرةٍ وَيروق لى بالجاشِرِيّة زير[2]
وأكاد من فَرَح السرور إذا بدا ضوء الصباح من الستور أطير
وإذا رأيتُ الجوّ فى رِفضيَّة الغَيْم فى جنباتها تكسير
منقوشةٍ صَدْرَ البُزاة كأنه فيروُزَجٌ قــــد زانه بلور
نادت بى اللذات وَيحَك فانتهزْ فُرَصَ المُنَى يا أيها المغرور
مِلْ بى إلى جَوْر السقاةِ فإننى أهْوَى سُقاةَ الكأس حين تَجُورُ
هذا وكم لى بالجُنَيْنة سَكْرةٍ أنا من بقايا شُرْبها مخمور
باكرتُها وغصونها مغزورةٌ والماء بين مُروزِها[3] مذعور
فى رِفقة : أناد والنديمُ وقَيْنةٌ والكأسُ والمزمار والطنبور

---

(١) من بلدة يقال لها بلد من بلاد الجزايرة التى فيها الموصل . اسمه أبو بكر محمد بن أحمد بن حمدان . وكان أميا ، وشعره كله ملح وتحف وطرف ، ولا تخلو مقطوعة له من معنى حسن أومثل سائر (يتيمة الدهر ٢ /٢٠٨) .

(٢) الجاشرية : شرب مع الصبح ، وهى أيضا السحر . الزير : وترمن أوتار العود .

(٣) المرز بالفتح الحباس الذى يحبس الماء ، فارسى معرب (هامش القاموس مادة مرز) والمروز جمع مرز ، يريد أن الأغصان متشابكة تحبس الماء . مغزورة : أصابها مطر غزير أو ماء كثير .

هذه الأبيات حسنة وخروجها من شِدق هذا الرجل المجاز عجيب ، ولو جاءت فى شعر أبى نواس لزانت ديوانه .

والاقتضاب الوارد فى الشعر كثير لا يحصى ، والتخلص بالنسبة إليه قطرة من بحر ، ولا يكاد يوجد التخلص فى شعر الشاعر المجيد الاقليلا بالنسبة إلى المقتضب من شِعره .

فمن الاقتضاب قولُ أبى نواس فى قصيدته النونية التى أولها .

« يا كثير النَّوح فى الدِّمَنِ »

وهذه القصيدة هى عين شِعره ، والملاحة للعيون ، وهى تنزل منه منزلة الألف لامنزلة النون ، إلا أنه لم يُكْمِل حسنها بالتخلص من الغزل إلى المديح ، بل اقتضبه اقتضابا ، فبينا هو يصف الخمر ويقول :

فاسقِنِى كأسا على عَذَلٍ ... كرهَتْ مَسْمُوعَه أذُنى
من كُمَيْتِ اللون صافيةٍ ... خيرِ ما سَلْسَلْتَ فى بَدَنى
ما استقَرَّتْ فى فؤاد فتىً ... فدَرَى ما لوعة الحَزَنَ

حتى قال .

تضحك الدنيا إلى مَلِكٍ ... قام بالآثار والسُّنَنِ
سَنَّ للناس النَّدى فَنَدُوا ... فكأن البخل لم يَكُنِ (١)

فأكثر مدائح أبى نواس مقتضبة هكذا ، والتخلص غير ممكن فى كل الأحوال ، وهو من مستصعبات علم البيان .

ومن هذا الباب الذى نحن بصدد ذكره قول البحترى فى قصيدته المشهورة بالجودة التى مدح بها الفتح بن خاقان وذكر لقاءه الأسد وقتله إياه ، وأولها

---

(١) الديوان ٤١٢ ومطلعها :

يا كثير النوح فى الدمن ... لا عليها بل على السكن

« أجدَّك ما ينفك يسرى لزينبا »

وهى من أمهات شعره ، ومع ذلك لم يوفق فيها للتخلص من الغزل إلى المديح ، فإنه بينما هو فى تغزله وهو يقول :

عهدتكَ إن مَنَّيتَ مَنَّيتَ مُوعِدًا جَهاماً وإن أبرقتَ أبرقتَ خُلَّبا
وكنتُ أرى أن الصُّدودَ الذى مَضَى دلالٌ فما إن كان إلا تجنُّبا
فوا أسفًا حتّامَ أسألُ مانعاً وآمَنُ خَوّاناً وأعتِبُ مُذنِباً ؟

حتى قال فى أثر ذلك :

أقول لرَكْبٍ مُعتَفِين تَدَرَّعوا على عَجَلٍ قِطعاً من الليل غَيْهَبا
رِدُوا نائِلَ الفتح بن خاقان إنه أعم ندًى فيكم وأيسر مطلبا[1]

فخرج إلى المديح بغير وصلة ولا سبب .

وكذلك قوله فى قصيدته المشهورة بالجودة التى مدح بها ابن خاقان أيضا ، وذكر نجاته عند انخساف الجسر به وقد أغرب فيها كل الإغراب ، وأحسن كل الإحسان ، وأولها (متى لاح برق بدا طَلَلٌ قفرْ) :

فبينا هو فى غزلها حتى قال :

لعمرك ما الدنيا بنا قصةِ الجَدى إذا بقى الفتح بين خاقان والقَطرْ[2]

فخرج إلى المديح مقتضبا له متعلقا به ، وأمثال هذا فى شعره كثير .

---

(١) الديوان ١/٥٥ وفى الديوان (علمتك إن منيت) و (أقرب مطلبا) .

(٢) الديوان ١/٢١٧ ومطلع القصيدة .

متى لاح برق أو بدا طلل قفر جرى مستهل الدمع لا بكىء ولا نزر

النوع الرابع والعشرون

في التناسب بين المعاني

وينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول في المطابقة، وهذا النوع يسمى " البديع " أيضا ، وهو في المعاني ضد التجنيس في الألفاظ ، لأن التجنيس هو أن يتحد اللفظ مع اختلاف المعنى، وهذا هو أن يكون المعنيان ضدين

وقد أجمع أرباب هذه الصناعة على أن المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده ، كالسواد والبياض و الليل والنهار ، وخالفهم في ذلك قُدامة بن جعفر الكاتب ، فقال: المطابقة إيراد لفظين متساويين في البناء والصيغة مختلفين في المعنى. وهذا الذي ذكره هو التجنيس بعينه ، غير أن الأسماء لا مشاحَّة فيها إلا إذا كانت مشتقة .

ولننظر نحن في ذلك وهو أن نكشف عن أصل المطابقة في وضع اللغة، وقد وجدنا الطِّباق في اللغة من طابق البعيرُ في سيره إذا وضع رجله موضع يده ، وهذا يؤيد ماذكره قدامةُ ، لأن اليد غير الرجل لا ضدُّها ، والموضع الذي يقعان فيه واحد ، وكذلك المعنيان يكونان مختلفين واللفظ الذي يجمعهما واحد ، فقدامة سمى هذا النوع من الكلام مطابقا حيث كان الاسم مشتقا مما سُمِّيَ به ، وذلك مناسب وواقع في موقعه ، إلا أنه جعل للتجنيس اسما آخر وهو المطابقة ، ولا بأس به إلا إن كان مَثَّله بالضدين كالسواد والبياض ، فإنه يكون قد خالف الأصل الذي أصَّله بالمثال الذي مَثَّله(١) .

---

(١) ذكر قدامة أن الناس يضعون من صفات الشعر المطابق والمجانس ، وهما داخلان في باب ائتلاف اللفظ والمعنى . ومعناهما أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة =

وأما غيره من أرباب هذه الصناعة فإنهم سموا هذا الضَّرْبَ من الكلام مطابقة لغير اشتقاق ولا مناسبة بينه وبين مُسَمَّاه ، هذا الظاهر لنا من هذا القول ، إلا أن يكونوا قد علموا لذلك مناسبةً لطيفة لم نعلمها نحن .

ولنرجع إلى ذكر هذا القسم من التأليف وإيضاح حقيقته فنقول : الأليق من حيث المعنى أن يُسمّى هذا النوع المقابلة ، لأنه لا يخلو الحال فيه من وجهين ، إما أن يقابل الشيء بضده ، أو يقابل بما ليس بضدّه ، وليس لنا وجه ثالث ،

فأما الأول وهو مقابلة الشيء بضدّه كالسواد والبياض وما جرى مجراهما فإنه ينقسم قسمين : أحدهما مقابلة في اللفظ والمعنى ، والآخر مقابلة في المعنى دون اللفظ .

(المقابلة في اللفظ والمعنى)

أما المقابلة في اللفظ والمعنى فكقوله تعالى « فَلْيَضْحَكُوا قليلاً وَلْيَبْكُوا كثيرا[1] » فقابل بين الضحك والبكاء والقليل والكثير .

وكذلك قوله تعالى « لكيلا تأسَوْا على مافاتكم ولا تفرَحُوا بما آتاكم[2] » وهذا أحسن ما يجيء في هذا الباب .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير المال عين ساهرة لعين نائمة .

= واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة . ثم عرف (المطابق) بأنه ما يشترك في لفظة واحدة بعينها ، وعرف (المجانس) بأن تكون المعاني اشتراكها في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق (نقد الشعر ٩٢ طبعة برل . ليدن) .

وقد سبق الآمدي ابن الأثير إلى نقد قدامة في تصرفه في المصطلحات ، قال الآمدي : وهذا باب — أعني المطابق — لقبه قدامة (المتكافئ) وسمى ضربا من المتجانس (المطابق) وما علمت أن أحدا فعل هذا غيره ... ولم أكن أحب له أن يخالف من تقدمه مثل عبد الله ابن المعتز وغيره ممن تكلم في هذه الأنواع وألف فيها (الموازنة بين أبي تمام والبحتري ١ / ٢٧٥ طبعة دار المعارف) .

(١) التوبة ٨٢ .

(٢) الحديد ٢٣ .

ومن الحسن المطبوع الذى ليس بمتكلف قول على رضى الله عنه لعثمان رضى الله عنه : « إن الحق ثقيل مَرِئٌ ، والباطل خفيف وَبِئٌ ، وأنت رجل إن صُدِقْتَ سَخِطْتَ ، وإن كُذِبْتَ رَضِيتَ » فقابل الحق بالباطل ، والثقيل المرى بالخفيف الوبى ، والصدق بالكذب ، والسخط بالرضا ، وهذه خمس مقابلات فى هذه الكلمات القصار .

وكذلك ورد قوله رضى الله عنه لما قال الخوارج لاحكمَ إلا لله تعالى : « هذه كلمة حق أريد بها باطل » . وقال الحجاج بن يوسف لسعيد بن جُبَيْر رضى الله عنه وقد أحضره بين يديه ليقتله ، فقال له ما اسمك ؟ قال سعيد بن جبير ؟ قال ، بل أنت شَقِىُّ بن كُسَيْرٌ . وقد كان الحجاج من الفصحاء المعدودين ، وفى كلامه هذا مطابقة حسنة ، فإنه نقل الاسمين إلى ضدّهما ، فقال فى سعيد شقى وفى جُبَيْر كُسَيْر .

وهذا النوع من الكلام لم تختص به اللغة العربية دون غيرها من اللغات .

ومما وجدته فى لغة الفرس أنه لما مات قباذ أحد ملوكهم قال وزيره : « حَرَّكَنا بسكونه » .

وأوّل كتاب الفصول لأبقراط فى الطب قوله : العمر قصير والصناعة طويلة وهذا الكتاب على لغة اليونان .

ومن كلامى فى هذا الباب ما كتبته فى صدر مكتوب إلى بعض الإخوان وهو : « صدر هذا الكتاب عن قَلْبٍ مُقِيمٍ ، وَجَسَدٍ سائر ، وصَبْرٍ مُلِيم ، وَجَزَعٍ عاذر ، وخاطراً دهشته لوعة الفراق فليس بخاطر » .

وكذلك كتبت إلى بعض الإخوان أيضا فقلت : « صدر هذا الكتاب عن قلب مأنوس بلقائه ، وطرف مستوحش لفراقه ، فهذا مروّع بكآبة إظلامه ، وهذا ممتع ببهجة إشراقه ، غير أن لقاء القلوب لقاء عُنِيَتْ بمثله خواطر

الأفكار ، وتتناجى به وراء الأستار ، وذلك أخو الطيفِ الملمّ فى المنام ، الذى يموّه بلقاء الأرواح على لقاء الأجسام » .

ومن هذا النوع ماذكرته فى كتاب أصف المسير من دمشق إلى الموصل عن طريق المناظر فقلت فى جملته : « ثم نزلت أرض الخابور فغرّبَتِ الأرواح وشرّقَتِ الجسوم ، وحصل الإعدام من المسارِّ والإنزال من الهموم ، وطالبتنى النفس بالعود والقدرةُ مفلسة ، وأويت إلى ظل الآمال والآمال مُشْمِسة » .

ومن ذلك ما ذكرته فى جملة كتاب إلى بعض الإخوان وعرّضت فيه بذكر جماعة من أهل الأدب فقلت : « وهم مستولون آلا ينسونى فى نادى فضلهم الذى هو منبع الآمال وملتقط اللآل ، فوجوه ألفاظه مشرقة بأيدى الأقلام المتسوّدة ، وقلوب معانيه مستنبطة بنار الخواطر المتوقّدة ، والواغل إليه يَشْكُرُ من خمرته التى تنبه العقول من إغفائها ، ولا يشعر بها أحدٌ غير أكفائها » وهذه الفصول المذكورة لاخفاء بما تضمنته من محاسن المقابلة .

ومما ورد من هذا النوع شعراً قول جرير :

وأعور من نَبهَانَ أمَّا نهارُه فأعمى وأمّا لَيلُهُ فبصير(١)

وكذلك ورد قول الفرزدق :

قبحَ الإِله بنى كُلَيْبٍ إنهم لا يَغدِرُون ولا يَفون لجار
يستيقظون إلى نَهِيقِ حمارهم وتنامُ أعينهم عن الأوتار(٢)

فقابل بين الغدر والوفاء ، وبين التيقظ والنوم ، وفى البيت الأول معنى يسأل عنه .

---

(١) من قصيدته فى هجاء أعور نبهان (الديوان ٢٦٤) يريد أنه فى النهار أعمى عن الخيرات ، وفى الليل يصير بالسيئات .

(٢) ديوان الفرزدق ٢ / ٤٤٨ فى هجائه لجرير من قصيدة مطلعها :

يابن المراغة إنما جاريتنى بمسبقين لدى الفعال قصار

كان بالأصل (بجار) .

وكذلك ورد قول بعضهم :

فلا الجودُ يُفْنِى المالَ والَجدُّ مقبلٌ ... ولا البخل يُبْقِى المالَ والَجدُّ مُدْبِرُ

وقد أكثر أبو تمام من هذا فى شعره فأحسن فى موضع وأساء فى موضع ، فمن إحسانه قوله :

ما إن تَرى الأحسابَ بِيضًا وُضَّحًا ... إلا بحيث تَرَى المنايا سودا

وكذلك قال من هذه القصيدة أيضا :

شَرَفٌ على أُولَى الزَّمانِ وإنما ... خَلَقُ المَنَاسِبِ أن يكون جديدا(١)

وعلى هذا المنهج ورد قوله :

إذا كانت النُّعْمَى سَلُوبًا من امرىء ... غدت من خليجَىْ كَفّه وهى مُتْبِعُ

وإن عَثَرَتْ سودَ الليالى وبيضها ... بوَحْدَتِه أَلْفَيْتَها وهى مَجْمَعُ

ويوم يظل العزُّ يُحْفَظُ وَسْطَه ... بسُمْرِ العَوالى والنفوسُ تُضَيَّعُ

مَصِيفٍ من الهَيْجا ومن جَاحِمِ الوَغَى ... ولكنه من وابل الدم مَرْبَعُ(٢)

ومن هذا الأسلوب قوله أيضاً :

تُقَرِّبِ الشُّقَّةَ القُصْوَى إذا أَخَذَتْ ... سِلاحَها وهو الإرْقَالُ والرَّمَلُ

إذا تَظَلَّمْتُ من أرض فصَلْتُ بها ... كانت هى العزَّ إلا أنها ذُلُلُ

---

(١) من قصيدته فى مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، ومطلعها :

طلل الجميع لقد عفوت حميدا ... وكفى على رزئى بذاك شهيدا

(الديوان ١/٤١٠) كان فى الأصل (سوف) بدلا من شرف ، يريد أن ما كان حديثا جديدا كان خلقا لا يتفكر فيه

(٢) من قصيدته فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى (الديوان ٢/٣٠٧) كان فى الأصل (وهو تبع) و (هيجاء) و (حاجم) ، السلوب : التى سلب منها ولدها . المتبع التى يتبعها ولدها . خليجى كفه المراد الكف الواحدة . يقول : إذا كانت النعمة من نعم واحدة فإن نعمة هذا الممدوح يتبعها غيرها من النعم . مصيف من الهيجا : هذا اليوم صيف من حر الحرب . مربع : مجتمع .

المُرْضِياتُك ما أرْغَمْتَ آنُفَهَا   والهادِيانُك وهى الشُّرَّدُ الضُّلُلُ (١)

وعلى هذا النحو ورد قوله :

وناضرةِ الصِّبا حين اسْبَكَرَّتْ   طِلاعَ المِرْطِ والدرعِ اليَدِيِّ
تَشَكَّى الأَيْنَ من نِصْفٍ مريعٍ   إذا قامَتْ ومنَ نِصفٍ بَطِيِّ (٢)

وقد جاء لأبى نواسٍ ذلك فقال :

أقلنى قد نَدِمْتُ على الذنوب   وبالإقرار عُذْتُ من الجحود
أنا استهديت عفوك من قريب   كما استعفيتُ سخطك من بعيد (٣)

فقابل بين الأضداد من الجحود والإقرار والعفو والسخط والقرب والبعد .

وعلى نحو من ذلك ورد قول علىّ بن جَبَلَه فى أبى دُلَفٍ العِجْلِى (٤) وهو :

أيْمُ المَهِيرِ ونِـكاحُ الأَيِّمِ   يوماك يوم أبْؤُسٍ وأنْعُمِ
وجَمْعُ مَجْـــدٍ ونَدًى مقسَّمِ

وكذلك قوله أيضا :

هو الأمل المبسوط والأجل الذى   يُمِرُّ على أيامه الدهر أو يَحْلُو

---

(١) من مقطوعة يصف فيها شدة البرد بخراسان ويصف الإبل (الديوان ٣٦٠) والبيت الأخير بالديوان قبل الأول . والذى بالديوان (وهى الرشد والضلل) والإرقال والرمل ضربان من السير . ذلل : مطيعة منقادة .

(٢) من قصيدته فى مدح الحسن بن وهب (الديوان ٣ / ٣٥١) .
اسبكرت : تم شبابها . طلاع المرط : ملؤه يعنى مرط المرأة .
اليدى : الواسع ، ويروى البدى بالباء وهو البديع العجيب .
نصف مريع : يريد خصرها الرقيق . نصف بطىء يريد ردفها الثقيل

(٣) الديوان ٤٥٣ وليس البيت الثانى به ، وبعد البيت الأول :
وإن تصفح فإحسان جديد   سبقت به إلى شكر جديد

(٤) يعرف على بن جبلة بالعكوك ، كان مداحا مجيدا ووصافا بارعا ، وكان ضريرا ، مدح المأمون وحميد بن عبد الحميد الطوسى وأكثر من مدح أبى دلف وأجاد ومدح غير هؤلاء (طبقات الشعرا لابن المعتز ١٧٠ والشعر والشعراء ٥٥٠ وتاريخ بغداد ١١/٣٥٩ وشذرات الذهب ٢/٣٠) .

ولا تحسنُ الأيام تفعلُ فِعْلَه وإن كان في تصريفها النَّقْضُ والفعل
فعِشْ واحداً أمّا الثَّراء فَمُسْلَمٌ مُباحٌ وأمّا الجار فهو حِمًى بَسْلُ

ومما جاء من هذا القسم قول البحترى :

أحسنَ اللهُ في ثوابك عن ثغـــر مضاع أحسنتَ فيه البَلاء
كان مستضعفا فَعَزَّ وبحرو مًا فأجْدَى ومُظْلِمًا فأضاء(١)

ومن أحسن ما ورد له فى هذا الباب قوله :

أشكو إليك أنامِلاً مَا تَنْطَوِى بُخْلاً وإملاقا تُقَصِّفُها اليَـدُ
أرضيهمُ قولاً ولا يُرْضُونَنى فِعْـلاً وتلك قضيةٌ لا تُقْصَدُ
فأذمُّ منهمْ ما يُذَمُّ وربمـــا سامحتُهم فحَمِدْتُ مالا يُحْمَدُ(٢)

وعلى هذا النهج ورد قوله :

وتَوَقُّعِى منك الإساءَةَ جاهدًا والعـدلُ أن أتوقعَ الإحسانا
وكما يسرّك لينُ مَسِّى راضيا فـكذاك فاخْشَ خُشُونتى غضبانا(٣)

وأما أبو الطيب المتنبى فإنه استعمل هـذا النوع قليلا فى شعره ، فمن ذلك قوله :

ثِقالٌ إذا لاقَوْا خِفافٌ إذا دُعُوا كثيرٌ إذا شَدُّوا قليلٌ إذا عُدُّوا(٤)

---

(١) من قصيدته فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف (الديوان ١/٢) .
(٢) من قصيدته فى مدح أبى أيوب بن أخت أبى الوزير الديوان (١٧٦/١) والنص بالديوان (ما تنطوى يبسا) والضمير فى أرضيهم عائد على الناس فى قوله :

الناس حولك روضة ما ترتقى ريا النبات ومنهل ما يورد

(٣) من قصيدته فى عتاب أبى العباس بن بسطام الديوان (٢٧٩/٢) .
(٤) من قصيدته فى مدح محمد بن سيار بن مكرم التميمى ، التى مطلعها : =

وكذلك قوله :

إلى ربِّ مالٍ كلمـــا شَتَّ شَمْلُه   تجمع فى أشتيته لِلْعُلا شَمْل[١]

بما استعذبته قوله فى هذا الباب :

كأن سُهادَ الليل يَعْشَقُ مُقْلتي   فبينهما فى كلِّ هَجْرٍ لنا وَصْل[٢]

ومما جاء من هذا الباب :

لمـا اعتنقنا للوداع وأعْرَبَتْ   عَبَراتنُا عَنَّا بدمـــع ناطق
فَرَّقْنَ بين مَعَاجرٍ ومَحاجر   وجَمَعْنَ بين بَنَفْسَجٍ وشقائق[٣]

وهذا تحته معنى يسأل عنه غير المقابلة ، وذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالبنفسج والشقائق هو عارض الرجل وخد المرأة ، لأن من العادة أن يشبه العارض بالبَنَفْسَج . وهذا قول غير سائغ ، لأن العارض إنما يشبه بالبنفسج عند أول ظهوره ، فإذا طرّ وظهرت خضرته فى ابتداء سن الشباب شُبِّه بالبنفسج ، لأنه يكون بين الأخضر والأسود ، وليس فى الشعر ما يدل على أن المُوَدِّع كان شابا قد طرّ عارضه ، والذى يقتضيه المعنى أن المرأة قامت للوداع فنزعت خمارها ، ولطمت

= أقل فعالى بله أكثره مجد   وذا الجد فيه نلت أم لم أنل جد

الديوان ٢/١٠٨) ثقال : نعت لمشايخ فى البيت السابق له ، يريد أنهم ثقال الوطأة على العدو . خفاف : سريعو الإجابة للنجدة . كثير إذا شدوا دلالة على أن الواحد منهم يسد مسد الجماعة .

(١) من قصيدته فى مدح شجاع بن محمد الطائى المنبجى ، التى مطلعها :

عزيز أسى من داؤه الحدق النجل   عياء به مات المحبون من قبل

(الديوان ٣/٣٧٠) شت : تفرق . الشمل : الاجتماع ، أى كلما تفرق شمل ماله اجتمعت معاليه .

(٢) من القصيدة نفسها .

(٣) المعاجر : جمع معجر على وزن منبر ثوب تعتجر به المرأة .
المحاجر : جمع محجر على وزن مجلس وهو للعين .

حدّها ، فجمعت بين أثر اللطم ، وهو شبيه بالبنفسج ، وبين لون الخد وهو شبيه الشقائق ، وفرّقت بين خمارها وبين وجهها بالتمزيق ولهاً وموجدةً على الوداع ، هذا هو معنى البيت لا ماذهب إليه هذا الرجل .

[المقابلة في المعنى دون اللفظ] :

وأما المقابلة في المعنى دون اللفظ في الأضداد فمما جاء منه قول المقنّع الكندي من شعراء الحماسة :

لهم جُلُّ مالى إن تتابعَ لى غِنًى وإن قلَّ مالى لم أُكلِّفْهم رِفْدا(١)

فقوله تتابع لى غنى بمعنى قوله كثر مالى ، فهو إذا مقابلة من جهة المعنى لا من جهة اللفظ ، لأن حقيقة الأضداد اللفظية إنما هى فى المفردات من الألفاظ نحو قام وقعد وحل وعقد وقل وكثر ، فإن القيام ضد القعود ، والحل ضد العقد ، والقليل ضد الكثير ، فإذا تُرِكَ المفرد من الألفاظ وتوصل إلى مقابلته بلفظ مركب كان ذلك مقابلة معنوية لا لفظية ، فاعرف ذلك .

[مقابلة الشيء بما ليس بضده] :

وأما مقابلة الشيء بما ليس بضده فهى ضربان : أحدهما ألا يكون مثلا والآخر أن يكون مثلا ، فالضرب الأول يتفرع إلى فرعين :

الأول : ما كان بين المقابِلِ والمقابَلِ نوع مناسبة وتقارب ، كقول قُرَيْط ابن أُنَيْفٍ :

---

(١) اسم الشاعر محمد بن ظفر بن عمير ، من شعراء الدولة الأموية وكان فيما قالوا جميلا مشرق الوجه ، فكان يستر وجهه لجماله ، فسمى المقنع . وهذا البيت من أبيات اختارها أبو تمام فى الحماسة ، أولها .

يعاتبنى فى الدين قومى وإنما ديونى فى أشياء تكسبهم حمدا

(شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٣/١١٧٨ .

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ومِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا(١)

فقابل الظلم بالمغفرة ، وليس ضدًّا لها ، وإنما هو ضد العدل ، إلا أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حسنت المقابلة بينهما وبين الظلم ، وعلى هذا جاء قوله تعالى « أشِدَّاءُ على الكفار رُحَماء بينهم »(٢) فإن الرحمة ليست ضد الشدة ، وإنما ضد الشدة اللين ، إلا أنه لما كانت الرحمة من مسبَّبات اللين حَسُنَتِ المقابلة بينها وبين الشدة .

وكذلك ورد قوله تعالى « إن تُصِبْكَ حسنة تَسُؤْهُمْ ، وإن تصِبْكَ مصيبةٌ يقولوا قد أَخَذْنا أَمْرنا من قَبْلُ »(٣) . فإن المصيبة سيئة ، لأن كل مصيبة سيئة وليس كل سيئة مصيبة ، فالتقابل ها هنا من جهة العام والخاص .

النوع الثاني : ما كان بين المقابِل والمقابَل به بُعْدٌ ، وذلك مما لا يحسن استعماله كقول أم النُّحَيْف وهو سعد بن قُرْط وقد تزوج امرأة كانت نهته عنها فقالت من أبيات تذمها فيها :

تَرَبَّصْ بها الأيامَ علَّ صُروفَها سترمِي بها فى جَاحِمٍ مُتَسَعِّر
فكم من كريم قد مَنَاه إلهُه بمذمومةِ الأخلاقِ واسِعَةِ الحِرِ(٤)

---

(١) من أبيات فى الحماسة ، يقرع فيها قومه على تخليهم عن نصرته ، أولها :
لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
(شرح الحماسة للمرزوقى ١/٢٢ والتبريزى .
(٢) الفتح ٢٩ .
(٣) التوبة ٥٠ .
(٤) فى الأصل أم الحنف ، وابن قرظ ، لكن الذى فى شرح الحماسة للتبريزى ٤/٣٠٢ وفى شرحها للمرزوقى ٤/١٨٦٢هو ما أثبتناه .

فقولها بمذمومة الأخلاق واسعة الحر من المقابلة البعيدة ، بل الأولى أن كانت قالت بضيقة الأخلاق واسعة الحر ، حتى تصح المقابلة ، وهذا مما يدل على أن العربي غير مهتد إلى استعمال ذلك بصنعته ، وإنما يجيء له منه ما يجيء بطبعه لا بتكلفه ، وإذا أخطأ فإنه لا يعلم ولا يشعر به ، والدليل على ذلك أنه لو أبدلت لفظة مذمومة بلفظة ضيقة لصح الوزن وحصلت المقابلة ، وإنما يُعْذَرُ من يُعْذَرُ في تَرك المقابلة في مثل هـذا المقام إذا كان الوزن لا يواتيه . .

وأما المحْدَثون من الشعراء فإنهم اعتنوا بذلك خلاف ما كانت العرب عليه ، لا جَرَمَ أنهم أشدُّ ملامة من العرب .

فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي :

لمَنْ تَطْلُبُ الدنيا إذا لم تُرِدْ بها   سرورَ محب أو إساءة مجرم(١)

فإن المقابلةَ الصحيحةَ بين المحبِّ والمبْغِض لا بين المحب والمجرم ، وليست متوسطة أيضا حتى يقرب الحال فيها ، وإنما هي بعيدة ، فإنه ليس كل من أجرم إليك كان مبغضا لك .

[المواخاة بين المعاني .]

ومما يتصل بهذا الضرب ضربٌ من الكلام يسمّى المواخاة بين المعاني والمواخاة بين المباني ، وكان ينبغي أن نعقد له بابا مفردا ، لكنا لما رأيناه يَنْظُرُ إلى التقابل من وجه وَصَلْناه به .

---

(١) هذه هي رواية الديوان (٣٤٣/٤) وفي الأصل يطلب ويرد ومساءة . والبيت من قصيدة في مدح كافور .

أما المواخاة بين المعانى فهو أن يذكر المعنى مع أخيه ، لا مع الأجنبي ، مثاله أن تذكر وصفا من الأوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به ، فإن ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قدحا فى الصناعة ، وإن كان جائزا .

فمن ذلك قول الكميت :

أم هل ظعائنُ بالعَلْياء رافعةٌ   وإن تكامل فيها الدَّلُّ والشَّنَبُ(١)

فإن الدّل يذكر مع الغَنَج وما أشبهه ، والشنب يذكر مع اللَّعَس وما أشبهه ، وهذا موضع يغلط فيه أرباب النظم والنثر كثيرا ، وهو مظنة الغلط ، لأنه يحتاج إلى ثاقب فكرة وحذق ، بحيث توضع للمعانى مع أخواتها لا مع الأجنبي منها .

وقرأت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج أنه اجتمع نُصَيْبٌ والكميت وذو الرمة فأنشد الكميت « أم هل ظعائن » البيت ، فعَقَدَ نُصَيْبٌ واحدة ، فقال له الكميت : ماذا تحصى ؟ قال خطأك ، فإنك تباعدت فى القول ، أين الدّل من الشنب ؟ ألا قلت كما قال ذو الرُّمة :

لَمياء فى شَفَتَيها حُوَّةٌ ، لَعَسٌ   وفى اللِّثاث وفى أنيابها شَنَبُ(٢)

ورأيت أبا نواس يقع فى ذلك كثيرا كقوله فى وصف الديك :

له اعتـــدالٌ وانتصابُ قَدٍّ   وجلده يشبه وَشْىَ البُرْد

---

(٢) ليس البيت بالهاشميات . الشنب : ماء ورقة وعذوبة وبرد فى الأسنان .

(١) الأغانى ١/١٣٤ مع بعض تغيير . الشنب : ماء ورقة وعذوبة وبرد فى الأسنان . لمياء : سمراء الشفة . الحوة : حمرة مشوبة بسواد . اللعس : سواد مستحسن فى الشفة .

كأنها الهُدّابُ في الفِرِنْدِ مُحْدَوْدبُ الظّهرِ كريمُ الجَدِّ(١)

فإنه ذكر الظهر وقرنه بذكر الجدّ ، وهذا لا يناسب هذا ، لأن الظهر من جملة الخَلْق ، والجدّ من النسب ، وكان ينبغي أن يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويواخيه .

وكذلك أخطأ أبو نواس في قوله أيضاً :

وقد حَلَفْتُ يميناً مَبْرورةً لا تُكَذَّبْ
بربِّ زمزمَ والحَوْ ضِ والصّفاوالمحَصَّبْ(٢)

فإن ذكر الحوض مع زمزم والصفا والمحصب غير مناسب ، وإنما يذكر الحوض مع الصراط والميزان وماجرى مجراهما ، وأمازمزم والصفا والمحصب فيذكر معها الركن والحطيم وماجرى مجراهما .

وعلى هذا الأسلوب ورد قوله أيضا :

أحْسَنُ من منزل بذي قارِ منزلُ خَمّارة وخَمّارِ
وشمُّ ريحانِهِ ونرجسِهِ أحْسَنُ من أيْنُقٍ بأكْوارِ(٣)

فالبيت الثاني لامقارنة بين صدره وعجزه ، وأين شم الريحان من الأينق

(١) في الديوان تحقيق الغزالي (٦٤٥) مقطوعة في وصف ديك هندي ، أولها :
أنت ديكا من ديوك الهند كريم عم وكريم جـد
وليس بها هذان البيتان . لكنهما في ديوانه من قصيدة في وصف ديك (المطبعة العمومية)
(٢) من مقطوعة مطلعها :
حمدان مالك تغضب على في غير مغضب
(الديوان ٧٢٤) .
(٣) المطلع في الديوان (١٦٠) :
أحسن من منزل بذي قار منزل خمارة بالانبار
الأكوار : جمع كور وهو الرحل .

بالأكوار ؟ وكان ينبغى له أن يقول شمُّ الريحان أحسن من شم الشيح والقيصوم ، وركوبُ الفتيات الرُّود أحسن من ركوب الأينق بالأكوار ، وكل هذا لا يُتَفَطَّنُ لوضعه فى مواضعه فى كل الأوقات . وقد كان يغلب علىَّ السَّهوُ فى بعض الأحوال حتى أسلك هذه الطريق فى وضع المعانى مع غير أنسابها وأقاربها ، ثم إنى كنت أتأمل ماصنعته بعد حين فأُصْلِحُ ماسهوتُ عنه .

[المؤاخاة بين المبانى]

وأما المواخاة بين المبانى فإنه يتعلق بمبانى الألفاظ .

فمن ذلك قول أبى تمام فى وصف الرماح :

مُثَقَّفاتٌ سَلَبْنَ العُرْبَ سُمْرَتَها والرُّومَ زُرْقَتَها والعاشق القَضَفا[1]

وهذا البيت من أبيات أبى تمام الأفراد ، غير أن فيه نظرا ، وهو قوله العرب والروم ، ثم قال العاشق ، ولوصح أن يقول العشاق لكان أحسن ، إذ كانت الأوصاف تجرى على (نهج) واحد ، وكذلك قوله سمرتها رزرقتها ، ثم قال القضفا ، وكان ينبغى أن يقول قضفها أودقتها .

وعلى هذا ورد قول مسلم بن الوليد :

نَفَضَتْ بكَ الأحْلاسُ نَفْضَ إقامةٍ واسْتَرجَعَتْ نُزّاعها الأمْصارُ
فاذهَبْ كما ذَهَبَت غَوادِى مُزْنَةٍ يُثْنِى عليها السهلُ والأوْعارُ[2]

---

(١) البيت من قصيدة فى مدح أبى دلف القاسم بن عيسى العجلى (الديوان ٣/٣٠٩) ونصه فى الديوان :

مثقفات سلبن الروم زرقتها والعرب سمرتها والعاشق القضفا

مثقفات مقومات . القضف : النحافة والضمور ، يقول إنها مقومات معدلات ، سمر كالعرب ، زرق الأسنة كالروم ضامرة كالعاشق .

(٢) من رثائه ليزيد بن مزيد ، والبيتان فى الديوان ٣١٣ :=

والأحسن أن يقال السهل والوعر ، أو السهول والأوعار ، ليكون البناء اللفظي واحدا ، أي أن يكون اللفظان واردين على صيغه الجمع أو الإفراد ، ولا يكون أحدهما مجموعا ، والآخر مفردا :

وكذلك ورد قول أبي نواس في الخمر :

صَفْراء مَجْدُهَا مَرَازِبُها جَلَّتْ عن النُّظَراء والمِثْلِ (١)

فجمع وأفرد في معنى واحد ، وهو أنه قال النظراء مجموعا ، ثم قال المثل مفردا ، وكان الأحسن أن يقول النظير والمثل ، أو النظراء والأمثال .

وعلى ذلك ورد قوله أيضا ، والإنكار يتوجه فيه أكثر من الأول ، وهو :

ألا يا ابن الذين فَنُوا فماتوا أما والله ما ماتوا لتَبْقَى
ومالك فاعْلَمَنْ فيها مُقامٌ إذا استكملت آجالا ورزقا (٢)

وموضع الإنكار هاهنا أنه قال آجالا ورزقا ، وكان ينبغي أن يقول أرزاقا أو أن يقول أجلا ورزقا ، وقد زاده إنكارا أنه جمع الأجل فقال آجالا ، والإنسان ليس له إلا أجل واحد ، ولو قال أجلا وأرزاقا ، لما عيب ، لأن الأجل واحد والأرزاق كثيرة ، لاختلاف ضروبها وأجناسها .

= نقضت بك الآمال أحلاس الغنى واسترجعت نزاعها الأمصار
فاذهب كما ذهبت غوادى مزنة أثنى عليها السهل والأوعار
الأحلاس : جمع حلس وهو الذى يوضع تحت الرحل

(١) من قصيدته التي مطلعها :
كان الشباب مطية الجهل ومحسن الضحكات والهزل
(الديوان ٤٢) المرازب والمرازبة جمع مرزبان وهو أحد الحكام والقواد الفرس .

(٢) رواية الديوان ٩٨ (المطبعة العمومية)
ألا يابن الذين فنوا وبادوا أما والله ما بادوا لتبقى
ومالك فاعلمن بها مقام إذا استكملت آجالا ورزقا

وإذا أنصفنا فى هذا الموضع وجدنا الناثر مطالبا به دون الناظم، لمكان إمكانه من التصرف . وقد كنت أرى هذا الضرب من الكلام واجبا فى الاستعمال ، وأنه لا يحسن المحيد عنه ، حتى مرّ بى فى القرآن الكريم ما يخالفه ، كقوله تعالى فى سورة النحل ﴿ أو لم يَرَوْا إلى ما خَلَقَ الله من شىء يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عن اليمين وعن الشمائل ﴾(١) . ولو كان الأحسن لزوم البناء اللفظى على سنن واحد لجمع اليمين كما جمع الشمال ، أو أفرد الشمال كما أفرد اليمين .

وكذلك ورد قوله تعالى :

﴿ أولئك الذين طَبَعَ الله على قلوبهم وسَمْعِهِم وأَبْصارهم وأولئك هم الغافلون ﴾(٢) فجمع القلوب والأبصار وأفرد السمع .

وكذلك ورد قوله تعالى ﴿ حتى إذا ما جاءوها شَهِدَ عليهم سَمْعُهُم وأبصارُهم وجُلُودهم(٣) ﴾ فذكر السمع بلفظ الإفراد وذكر الأبصار والجلود بلفظ الجمع .

وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة هكذا ، ولو كان هذا معتبرا فى الاستعمال لورد فى كلام الله تعالى الذى هو أفصح من كل كلام ، والأخذ فى مقام الفصاحة والبلاغة إنما يكون منه والمعول عليه .

وينبغى أن يقاس على هذا قوله تعالى ﴿ وأوحَيْنا إلى موسى وأخيه أن تَبَوَّآ لقومكما بمصرَ بيوتا واجعلوا بيوتكم قِبْلَةً وبشر المؤمنين(٤) ﴾ .

---

(١) النحل ٤٨ .
(٢) النحل ١٠٨
(٣) فصلت ٢٠ .
(٤) يونس ٨٧

وربما قيل إن هذه الآية اشتملت على تثنية وجمع وإفراد ، وظُنّ أنها من هذا الباب ، وليس كذلك لأنها مشتملة على خطاب موسى وهارون عليهما السلام أولا فى اتخاذ المساجد لقومهما ، ثم ثَنّى الخطاب لهما ولقومهما جميعا ، ثم أفرد موسى عليه السلام ببشارة المؤمنين ، لأنه صاحب الرسالة .

[مقابلة الشىء بمثله]

الضرب الثانى فى مقابلة الشىء مثله وهو يتفرع إلى فرعين : أحدهما مقابلة المفرد بالمفرد ، والآخر مقابلة الجملة بالجملة .

النوع الأول كقوله تعالى « نسوا الله فنسيهم »[1] وكقوله تعالى «ومكروا مكراً ومكرنا مكراً »[2] وقد روعى هذا الموضوع فى القرآن الكريم كثيرا ، فإذا ورد فى صدر آية من الآيات ما يحتاج إلى جواب كان جوابه مماثلا ، كقوله تعالى « من كفر فعليه كفره »[3] وكقوله تعالى : « وجزاء سَيِّئةٍ سَيِّئةٌ مثلها »[4] ، وهذا هو الأحسن ، وإلا فلو قيل من كفر فعليه ذنبه ، كان ذلك جائزا . لكن الأحسن هو ما ورد فى كتاب الله تعالى ، وعليه مدار الاستعمال .

وهذا الحكم يجرى فى النظم والنثر من الأسجاع والأبيات الشعرية ، فأما إن كان ذلك غير جواب ، فإنه لا يلتزم فيه هذه المراعاة اللفظية . ألا ترى أنه قد قوبلت الكلمة بكلمة هى فى معناها وإن تكن مساويةً لها فى اللفظ ، وهذا يَقَعُ فى الألفاظ المترادفة ، ولذا يُسْتَعمَلُ ذلك فى الموضع الذى تَرِدُ فيه الكلمةُ غير جواب .

---

(١) التوبة ٦٧
(٢) النمل ٥٠
(٣) الروم ٤٤ .
(٤) الشورى ٤٠

فمما جاء منه قوله تعالى تعالى : « وَوُفِّيَتْ كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ وهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ »(١) ولو كان لا تورد الكلمة إلا مِثلا لقيل وهو أعلم بما تعملون .

وكذلك قوله تعالى : « وهل أتاك نَبَأُ الخَصْمِ إذ تَسَوَّروا المحراب ، إذ دَخَلُوا على دَاوُدَ فَفَزِعَ منهم ، قالوا لا تَخَفْ ، خَصْمان ، بَغَى بعضنا على بعض »(٢) فقال لا تخف بعد قوله ففزع ، ولما كان هذا فى معنى هذا قوبل أحدهما بالآخر ، ولم يقابل اللفظ بنفسه .

وكذلك جاء قوله تعالى : « لئن سألتهم ليقولُنَّ إنما كنا نَخوضُ ونَلْعَبُ ، قل أَبِاللهِ وآياته ورَسُولِهِ كنتم تستهزئون(٣) » فذكر الاستهزاء الذى هو فى معنى الخوض واللعب ، وقابل به الخوض واللعب ، ولو ذكره على حدّ المماثلة والمساواة لقال : أفى الله وآياته ورسوله كنتم تخوضون وتلعبون . .

فإن قيل إنك قد احتججت بالقرآن الكريم فيما ذكرته ، ونرى قد ورد فى القرآن الكريم ما ينقضه كقوله تعالى « والذين كَسَبُوا السيئاتِ جزاء سيئةٍ بمثلها(٤) » ولم يقل جزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها ، فالجواب على ذلك أنى أقول أردت أن تنقض على ما ذكرته فلم تنقضه ، ولكنك شَيَّدتَه ، والذى ذكرته هو

---

(١) الزمر ٧٠

(٢) ص ٢١ — ٢٢ .

(٣) التوبة ٦٥ .

(٤) يونس ٢٧

دليل لى لا لك ، ألا ترى أنه لا فرقَ بين قوله تعالى « جزاء سيئةٍ بمثلها » وبين قوله « جزاء سيئةٍ سيئة مثلها » ، إذا المعنى واحد لا يختلف ، ولو جاء عِوَضًا عن السيئة لفظةٌ أخرى فى معناها كالأذى والسوء أو ماجرى مجراها لصح لك ما ذهبت إليه .

وقد ذهب بعض المتصدِّريين فى علم البيان أنه إذا ذكرت اللفظة فى أوّل كلام يحتاج إلى تمام وإن لم يكن جوابًا كالذى تقدم ، فينبغى أن تُعادَ بعينها فى آخره ، ومتى عُدل عن ذلك كان مَعِيبًا ، ثم مَثّلَ ذلك بقول أبى تمام وقول أبى الطيب المتنبى ، فقال إن أبا تمام أخطأ فى قوله :

بَسَطَ الرَّجاء لنا بِرَغْمِ نَوائبٍ كَثُرَتْ بهنّ مصارع الآمال(١)

فحيث ذكر الرجاء فى صدر البيت فكان ينبغى أن يعيد ذكره أيضا فى عجزه ، أو كان ذكرَ الآمالَ فى صدر البيت وعجزه .

وكذلك أخطأ أبو الطيب المتنبى فى قوله :

إنى لأعلمُ واللبيبُ خبير أن الحياةَ وإن حَرَصْتَ غُرور(٢)

فإنه قال إنى لأعلم واللبيب خبير ، وكان ينبغى أن يقول إنى لأعلم واللبيب عليم ، ليكون ذلك تقابلا صحيحا .

وهذا الذى ذكره هذا الرجل ليس بشىء ، بل المعتمد عليه فى هذا الباب أنه

---

(١) من قصيدة فى مدح الحسن بن رجاء ، مطلعها :
كفى وغاك فإننى لك قالى ليست هوادى عزمتى بتوالى
(الديوان ٣/٧٦)
(٢) من رثائه لمحمد بن إسحاق التنوخى (الديوان ٢/ ٢٧٨)

إذا كانت اللفظة فى معنى أختها جاز استعمالها فى المقابلة بينهما ، والدليل على ذلك ما قدمناه من آيات القرآن الكريم ، وكفى به دليلا ، وهذه الرموز التى هى أسرار الكلام لاَ يَتَفَطَّنُ لاستعمالها إلا أحد رجلين : إما فقيه فى علم البيان قد مارسه ، وإما مَشْقُوق اللسان فى الفصاحة قد خُلِقَ عارفا بلطائفها ، مستغنيا عن مطالعة صحائفها ، وهذا لا يكون إلا اعرابى الفطرة يقول ما يقوله طبعا ، على أنه لاَ يُسدَّد فى جميع أقواله ، ما لم تكن معرفته الفطرية ممزوجةً بمعرفته العُرْفية .

الفرع الثانى فى مقابلة الجملة بالجملة :

اعْلَمْ أنه إذا كانت الجملة من الكلام مُسْتَقْبَلَةً قوبلتْ بمستقبلة ، وإن كانت ماضيةً قوبلت بماضية ، وربما قوبلتْ الماضيةُ بالمستقبلة ، والمستقبلة بالماضيةَ ، إذا كانت إحداهما فى معنى الأخرى .

فمن ذلك قوله تعالى : « قل إن ضَلَلْتُ فإنما أَضِلُّ على نفسى ، وإن اهتديت فَبِما يُوحِى إلىَّ ربى[(1)] » فإن هذا تقابل من جهة المعنى ، ولو كان التقابل من جهة اللفظ لقال وإن اهتديت فإنما أهتدى لها .

وبيان تقابل هذا الكلام من جهة المعنى هو أن النفس كل ما عليها فهو بها ، أعنى أن كل ما هو وبال عليها وضارٌ لها فهو بسببها ومنها ، لأنها الأمّارة بالسوء ، وكل ما هو لها مما ينفعها ، فبهداية ربها وتوفيقه إياها ، وهذا حُكْمٌ عام لكل مكلَّف ، وإنما أَمَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَسْنُدَ ذلك إلى نفسه ، لأن الرسول إذا دخل تحته مع علوِّ محله وسداد طريقته كان غيره أولى به .

ومن هذا الضرب قوله تعالى : « ألم يَرَوْا أنا جَعَلْنَا الليلَ لِيَسْكُنُوا فيه والنهارَ مُبْصِرا[(2)] » فإنه لم يراع التقابل فى قوله « ليسكنوا فيه ومبصرا » ، لأن

---

(١) سورة سبأ ٥٠ .
(٢) سورة النمل ٨٦ .

القياس يَقْتَضِي أن يكون « والنهار ليُبصروا فيه » وإنما هو مراعى من جهة المعنى لا من جهة اللفظ ، وهذا النظم المطبوع غير المتكلف ، لأن معنى قوله مبصراً لتبصروا فيه طُرُقَ التقلب فى الحاجات .

واعلم أن فى تقابل المعانى باباً عجيب الأمر يحتاج إلى فضل تأمل ، وزيادة نظر ، وهو يختص بالفواصل من الكلام المنثور وبالأعجاز من الأبيات الشعرية .

فمما جاء من ذلك قوله تعالى فى ذم المنافقين : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مُصْلِحون ، ألا إنهم هم المُفْسِدون ولكنْ لاَ يشْعرون[1] » . وقوله تعالى : « وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمَنَ الناسُ قالوا : أنؤمنُ كما آمن السُّفهاء ، ألا إنهم هم السُّفهاء ولكنْ لاَ يعْلمون[2] » .

ألا ترى كيف فصل الآية الأخرى بيعلمون ، والآية التى قبلها بيشعرون ، وإنما فعل ذلك لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهُمْ على الباطل ، يحتاج إلى نظر واستدلال ، حتى يكتسِبَ الناظرُ العلمَ والمعرفة بذلك ، وأما النِّفاقُ وما فيه من البَغْيِ المؤدِّى إلى الفِتْنَةِ والفساد فى الأرض فأمرٌ دنيوىٌ مبنىٌّ على العادات ، معلوم عند الناس ، خصوصاً عند العرب وما كان فيهم من التحارب والتَّغاور ، فهو كالمحسوس عندهم ، فلذلك قال فيه «يشعرون» ، وأيضاً فإنه لما ذكر السَّفَه فى الآية الأخيرة وهو جهل ، كان ذكر العلم معه أحْسَنَ طباقاً ، فقال «لا يعلمون» .

وآيات القرآن جميعها فُصِّلَتْ هكذا ، كقوله تعالى : « ألم تَرَ أن الله أنْزَلَ من السماء ماء فتُصْبِحُ الأرضُ مُخْضرَّةً إن الله لطيفٌ خبير[3] » . وكقوله تعالى :

(١) سورة البقرة ١١ — ١٢ .
(٢) سورة البقرة ١٣ .
(٣) سورة الحج ٦٣ .

«له ما فى السماوات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنىُّ الحميد[1]» . وكقوله : «ألم تر أن الله سخَّر لكم ما فى الأرض والفُلْكَ تجرى فى البحر بأمره ، ويُمسكُ السماء أن تقعَ على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم[2]» .

فإنه إنما فُصِلَت الآية الأولى بلطيف خبير ، لأن ذلك فى موضع الرحمة لخلقه بإنزال الغيث وغيره . وأما الآية الثانية فإنما فصلت بغنى حميد ، لأنه قال: «له ما فى السموات وما فى الأرض» له لا لحاجة ، بل هو غنىٌّ عنها جوادٌ بها ، لأنه ليس كل غَنِىٍّ نافعا اغناه ، إلا إذا كان جوادًا مُنعما ، وإذا جاد وأنعم حمده المنْعَمُ عليه واستحق عليه الحمد ، فذكر الحميد ليدل على أنه الغنى النافع بغناه خَلْقَه .

وأما الآية الثالثة فإنها فصلت برءوف رحيم ، لأنه لما عدّد للناس ما أنعم به عليهم من تَسخير ما فى الأرض لهم ، وإجراء الفلك فى البحر بهم ، وتسييرهم فى ذلك الهول العظيم ، وخَلْقِهِ السماء فوقهم ، وإمساكه إياها عن الوقوع ، حَسُنَ أن يَفْصِل ذلك بقوله رءوف رحيم ، أى أن هذا الفعل فعل رءوف بكم رحيم لكم .

واعلم أيها المتأمل لكتابنا هذا أنه قلما تُوجَدُ هذه الملاءمةُ والمناسبةُ فى كلام ناظِمٍ أو ناثِرٍ .

ومن الآيات ما تُشْكِل فاصلته فتحتاج إلى فكرة وتأمل ، كقوله تعالى : «والذينَ يرمُون أزواجَهم ولم يكُنْ لهم شُهَداء إلا أنفسُهم فشهادةُ أحدِهم أربعُ شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسةُ أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ويَدرأُ عنها العذابَ أن تشهد أربعَ شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضبَ الله عليها إن كان من الصادقين ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم[3]» .

---

(١) سورة الحج ٦٤ (٢) سورة الحج ٦٥
(٣) سورة النور ٦ — ١٠

فإنه قدوردت الفاصلة فى غيرهذا الموضع بتواب رحيم ، ويظنّ الظانّ أن هذا كذلك ، ويقول إن التوبة مع الرحمة لامع الحكمة ، وليس كما يظن ، بل الفاصلة بتواب حكيم أوْلَى من توّاب رحيم ، لأن الله عز وجل حكم بالتّلاعن على الصورة التى أمر بها ، وأراد بذلك ستر هذه الفاحشة على عباده ، وذلك حكمة منه ، فصارَتْ الآية الواردة فى آخر الآيات بتواب حكيم ، فجمع فيها بين التوبة المرجوة من صاحب المعصية و بين الحكمة فى سترها على تلك الصورة .

وهذا الباب ليس فى علم البيان أكثر منه نفعا ولا أعظم فائدة

ومما جاء من هذا الباب قول أبى الطيب المتنبى :

وقفتَ وما فى الموت شكٌ لواقف ... كأنك فى جَفْنِ الرّدَى وَهْوَ نائمُ

تمرُّ بك الأبطال كَلْمَى هزيمةً ... ووجْهُك وضّاحٌ وثَغْرُكَ باسمُ

وقد أوخذ على ذلك ، وقيل لو جعل آخر البيت الأول آخرا للبيت الثانى وآخر البيت الثانى آخرا للبيت الأول لكان أولى .

ولذلك حكاية ، وهى أنه لما استنشده سيف الدولة يوما قصيدته التى أولها : « على قَدْرِ أهل العزم تأتى العزائم »[1].

فلما بلغ إلى هذين البيتين قال قد انتقدتّهما عليك ، كما انْتُقِد على امرىء القيس قوله :

كأنىْ لم أرْكَبْ جودا للَذّةٍ ... ولم أتبطّنْ كاعِباذاتَ خَلْخال

---

(١) مطلع القصيدة فى مدح سيف الدولة لما بنى ثغر الحدث ٣٤٣ هـ
على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكرام المكارم
الديوان ٤/١٢٢

• ولم أسْبَأِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ ولَم أقُلْ   لخيليَ كُرِّي كَرَّةً بعد إجفال[1]

فبيتاك لم يلتئم شطراهما ، كما لم يلتئم شطرا بيتى امرىء القيس ، وكان ينبغى لك أن تقول :

وقفتَ وما فى الموت شك لواقف   وَوَجْهك وَضَّاحٌ وثغرك باسم

تمرُّ بك الأبطال كَلْمَى هزيمةً   كأنك فى جَفْنِ الرَّدَى وهو نائم

فقال المتنبى : إن صَحَّ أن الذى استَدرك على امرىء القيس هذا أعْلَمَ بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزَّازَ كما يعلمه الحائك ، لأن البزَّاز يعرف جملته والحائك يعرف تفاصيله ، وإنما قَرَنَ امرؤ القيس النساء بلذة الركوب الصيد ، وقرن السماحة بسباء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء ، وكذلك لما ذكرتُ الموت فى صدر البيت الأول أتبعتُه بذكر الرَّدَى فى آخره ، ليكون أحسن تلاؤما ، ولما كان وَجْهُ المنهزم الجريح عَبُوساً وعَيْنُهُ باكية قلت ووجهك وضاح وثغرك باسم ، لأجمع بين الأضداد .

القسم الثانى فى صحة التقسيم وفساده :

ولسنا نريد بذلك هاهنا ما تقتضيه القسمة العقلية كما يذهب إليه المتكلمون ، فإن ذلك يقتضى أشياء مستحيلة ، كقولهم الجواهر لا تخلو إما تكون مجتمعة أو مفترقة ، أو لا مجتمعة ولا مفترقة ، أو مجتمعة ومفترقة ، أو بعضها مجتمعة وبعضها مفترقة .

ألا ترى أن هذه القسمة صحيحة من حيث العقل ، لاستيفاء الأقسام جميعها ، وإن كان من جملتها ما يستحيل وجوده .

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى   وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

(الديوان ٢٧)

وإنما نريد بالتقسيم هاهنا مايقتضيه المعنى مما يمكن وجوده ، من غير أن يُترك منها قسم واحد ، وإذا ذُكِرَتْ قام كل قسم منها بنفسه ، ولم يشارك غيره ، فتارة يكون التقسيم بلفظة إمّا ، وتارة بلفظة بين ، كقولنا بين كذا وكذا ، وتارة بلفظة منهم كقولنا منهم كذا ومنهم كذا ، وتارة بأن يذكر العدد للمراد أولا بالذكر ثم يقسم ، كقولنا : فانشعب القوم شُعَبًا أربعاً : فشعبة ذهبت يمينا ، وشعبة ذهبت شمالا ، وشعبة وقفت بمكانها ، وشعبة رجعت إلى ورائها .

فمما جاء من هذا القسم قوله تعالى : « ثم أَوْرَثْنا الكتاب الذين اصطَفَينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مُقتَصِدٌ ، ومنهم سابقٌ بالخيرات »[1] .

وهذه قسمة صحيحة ، فإنه لا يَخلو العباد من هذه الثلاثة ، فإما عاصٍ ظالم لنفسه ، وإما مطيع مبادر إلى الخيرات ، وإمّا مقتصد بينهما

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : «وكنتم أزواجا ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحابُ الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحابُ المشأمة والسابقون السابقون[2] » . وهذه الآية منطبقة المعنى على الآية التى قبلها ، فأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم ، وأصحاب الميمنة هم المقتصدون ، والسابقون هم السابقون بالخيرات .

وعلى نحو ذلك جاء قوله تعالى : «هو الذى يُريكم البَرْقَ خوفا وطمعا »[3] فإن الناس عند رؤيَةِ البرق بين خائف وطامع ، وليس لنا قسم ثالث .

فإن قيل إن استيفاء الأقسام ليس شرطا ، وتَرْكُ بعض الأقسام لا يَقدحُ فى الكلام ، وقد ورد فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : « لايستوى أصحابُ

(١) سورة فاطر ٣٢
(٢) سورة الواقعة ٧ — ١٠
(٣) سورة الرعد ١٢

النار وأصحاب الجنة ، أصحابُ الجنَّةِ هم الفائزون »(١) فذكر أصحاب الجنة دون أصحاب النار ، فالجواب على ذلك أنى أقول هذا لاينقضُ علىَّ ما ذكرته ، فإن استيفاء الأقسام يلزم فيما استُبْهِم الإجمال فيه ، ألاترى إلى قوله تعالى «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم » فإنه حيث قال (فمنهم) لزم استيفاء الأقسام الثلاثة ، ولو اقتصر على قسمين منها لم يجز ، وأما هذه الآية التى هى « لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة » فإنه إنما خص أصحاب الجنة بالذكر ، للعلم بأن أصحاب النار لافوز لهم ، ولو خص أصحاب النار بالذكر لعلم أيضا مالأصحاب الجنة

وكذلك كل ما يجرى هذا المجرى ، فإنه إنما يُنْظَرُ فيه إلى المُستَبْهِم وغير المستبهم فاعرفه .

وكان جماعة من أرباب هذه الصناعة يُعجَبون بقول بعض الأعراب ، ويزعمون أن ذلك من أصح التقسيمات وهو قولهم : « النِّعمُ ثلاث : نعمة فى حال كَوْنِها ، ونعمةٌ تُرْجَى مستقبلة ، ونعمة تأتى غير مُحْتَسَبة ، فأبقى الله عليك ما أنت فيه ، وحقق ظنك فيما ترتجيه ، وتفضل عليك بما لم تحتسبه » .

وهذا القول فاسدٌ ، فإن فى أقسام النعم التى قَسَّمها نقصا لابد منه ، وزيادة لاحاجة إليها ، فأما النقصُ فإغفال النعمة الماضية ، وأما الزيادة فقوله بعد المستقبلة «ونعمة تأتى غير محتسبة» ، لأن النعمة التى تأتى غير محتسبة داخلة فى قسم النعمة المستقبلة ، وذاك أن النعمة المستقبلة تنقسم قسمين : أحدهما يُرْجَى حصوله ، والآخر لا يُحتَسَب ، فقوله «ونعمة تأتى غير محتسبة» يوهم أن هذا القسم غير المستقبل ، وهو داخل فيه .

---

(٢) سورة الحشر ٢٠

وعلى هذا فكان ينبغى له أن يقول: النعم الثلاث نعمة ماضية، ونعمة فى حال كونها، ونعمة تأتى مستقبلة، فأحسن الله آثار النعمة الماضية، وأبقى عليك النعمة التى أنت فيها، ووفّر حظك من النعمة التى تستقبلها.

ألا تراه لو قال ذلك لكان قد طبّق به مَفْصلِ الصواب؟

وقد استوفى أبو تمام هذا المعنى فى قوله:

جُمِعتْ لنا فِرَقُ الأمانِى منكمُ ... بأبرّ من رُوح الحياة وأوْصَلِ

فصنيعة فى يومهــــا وصنيعة ... قد أحْوَلَتْ وصنيعة لم تحْوِل

كالمُزْنِ من ماضِى الرَّباب فمُقْبِل ... مُتَنَظَّرٍ ومُخَيِّمٍ مُتَهَلِّلِ (١)

ووقف أعرابى على مجلس الحسن البصرى رضى الله عنه فقال: «رحم الله عبدا أعطى من سَعَة، أو آسَى من كَفاف، أو آثر من قِلّة» فقال الحسن البصرى: ما ترك لأحد عذرا.

وقد عاب أبو هلال العسكرى على جميل قوله:

لو كان فى قلبى كَقَدْرِ قُلامَةٍ ... حُبًّا وصلتُك أو أتتك رسائلى (٢)

فقال أبو الهلال إن إتيان الرسائل داخل فى جملة الوصل (٣)، وليس الأمر

---

(١) من مدحه لأحمد بن أبى دواد الإيادى (الديوان ٣/٤٩) فى الأصل فوق بدلا من فرق.

(٢) قبل هذا البيت أبيات منها:

فلرب عارضة علينا وصلها ... بالجد تخلطه بقول الهازل

فأجبتها بالرفق بعد تستر ... حبى بثينة عن وصالك شاغلى

(الديوان ٨٣)

(٣) الصناعتين ٣٤٨.

كما وقع له ، فإن جميلا إنما أراد بقوله وصلتك أى أتيتك زائرا وقاصدا ، أو كنت واسلتك مراسلة ، والوصل لايخرج عن هذين الوصفين ، إما زيارة وإما رسالة .

ومن أعجب ما وجدته فى هذا الباب ما ذكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمى وهو قول العباس بن الأحنف :

وِصالكمُ هَجْرٌ وحبكم قِلًى وعَطْفكم صَدٌّ وسِلْمكم حَرْبُ(١)

ثم قال الغانمى : هذا والله أصحُّ من تقسيمات إقليدس(٢) .

ويالله العجب ، أين التقسيم من هذا البيت ؟ هذا والله فى واد والتقسيم فى واد ، ألا ترى أنه لم يذكر شيأ تحضُره القسمة ، وإنما ذمّ أحبابه فى سوء صنيعهم به ، فذكر بعض أحواله معهم ، ولو قال أيضا :

ولِينُكمُ عُنفٌ وقُرْبكم نَوًى وإعطاؤكُمْ مَنْعٌ وصِدْقكم كِذب

لكان هذا جائزا . وكذلك لو زاد بيتا آخر لجاز ، ولو أنه تقسيم لما احتمل زيادة ، والأولى أن يضاف هذا البيت الذى ذكره الغانمى إلى باب المقابلة ، فإنه أولى به ، لأنه قابل الوصل بالهجر ، والعطف بالصدّ ، والسلم بالحرب .

ومن فساد التقسيم قول البحترى فى قصيدته التى مطلعها :

« ذاك وادى الأراك فاحْبِسْ قليلا » فقال :

---

(١) الديوان ١٣

(٢) سبق التعريف بالغانمى . إقليدس : رياضى هندسى يونانى قديم .

قِفْ مَشُوقًا أو مُسْعِداً أو حزينا ... أو مُعِيناً أوِ عاذرا أو عَذُولا[١]

فإن المشوق يكون حزينا ، والمسعد يكون معينا ، وكذلك يكون عاذرا . وكثيرا ما يقع البحترى فى مثل ذلك .

وكذلك ورد قول أبى الطيب المتنبى وهو .

فافْخرْ فإن الناسَ فيك ثلاثةٌ ... مُسْتَعظِمٌ أو حاسِد أو جاهل[٢]

فإن المستعظم يكون حاسدا والحاسد يكون مستعظما ، ومن شرط التقسيم ألا تتداخل أقسامه بعضها فى بعض .

ومن هذا الأسلوب ما ورد فى أبيات الحماسة[٣] وهو :

وكنتَ امرأً إمّا ائتمنْتُكَ خاليا ... فَخُنْتَ وإمّا قلتَ قولاً بلا عِلْمِ

فأنتَ من الأمر الذى قد أتيْتَهُ ... بمنزلةٍ بين الخيـــانة والإثْمِ

فإن الخيانة من الإثم ، وهذا تقسيم فاسد .

---

(١) فى مدح محمد بن على عيسى القمى . والشطر الثانى هو : « مقصرا من صبابة أو مطيلا » الديوان ٢١٠/٢

(٢) من قصيدة فى مدح القاضى أبى الفضل أحمد بن عبد الله الأنطاكى ، مطلعها :

لك يامنازل فى القلوب منازل ... أقفرت أنت وهن منك أو اهل

(الديوان ٤٥٥/٢)

وفى الديوان (يا أفخر) يريد ياهذا افخر ، فحذف المنادى كقراءة على بن حمزة (ألا يا اسجدوا لله الذى يخرج الخبء) أو أن حرف النداء هنا للتنبيه مثل ألا ، كقول ذى الرمة:

ألا يا اسلمى يادارى على البلى ... ولا زال منهلا بجرعائك القطر

(٣) ذكر التبريزى أن القائل عبد الله بن همام السلولى ، وكان قد وشى به واش إلى زياد بن أبى سفيان ، ثم جمع بينهما زياد ، فقال عبد الله للواشى هذين البيتين وفى الحماسة (وأنت امرؤ إما ائتمنتك)

(شرح التبريزى لديوان الحماسة ١٤٢/٣ وشرح المرزوق ١١٣٩/٣)

ومما جاء من ذلك نثرا قول بعضهم فى ذكر منهزمين «فمن جريح مُتَضَرِّج بدمائه ، وهارب لا يلتفت إلى ورائه» فإن الجريح قد يكون هاربا ، والهارب قد يكون جريحا . ولو قال فمنْ بين قتيل ومأسور وناج ، لصح له التقسيم ، أو لو قال فمن بين قتيل ومأسور لصح له التقسيم أيضا ، لعدم الناجى بينهما .

وقد أحسن البحترى فى هذا المعنى حيث قال :

غادَرَتْهُم أَيْدِى المَنِيَّة صُبْحاً ... بالقَنَا بَيْنَ رُكَّعٍ وسُجُود

فهمْ فرقتان بين قتيل ... قُنِصَتْ نفسُه بحَدِّ الحديد

أو أسيرٍ غداه السجنُ لحْداً ... فهو حَىٌّ فى حالةِ المَلْحُود

فِرْقَةٌ للسيوف يَنْفُذُ فيها الحُكْمُ قَصْداً أو فِرْقَةٌ للقيود[1]

ومن فساد التقسيم قول أبى تمام :

وَمَوقِفٌ بين حُكْمِ الذُّل منقطعٌ ... صَالِيه أو بحبال الموت مُتَّصِلُ[2]

فإنه جعل صَالِىَ هذا الموقف إمّا ذليلا عنه أو هالكا فيه ، وهاهنا قسم ثالث وهو ألا يكون ذليلا ولا هالكا ، بل يكون مُقْدِما فيه ناجيا . وفى هذا نظر على من ادعى فساد تقسيمه ، فإن أبا تمام قصد الغُلُوّ فى وَصْفِ هذا الموقف ، فقال إن الناس فيه أَحَدُ رجلين : إما ذليل عن مَوْرِدِه ، وإما هالك فيه ، أى أنه لا ينجو منه أحد يَرِدُه .

وهذا تقسيم صحيح لا فساد فيه .

(١) ليست بديوانه .

(٢) من قصيدته فى مدح المعتصم بالله والذى فى الديوان (ومشهد بين حكم القتل) الديوان ٣/ ١٦

ترتيب التفسير

والقسم الثالث فى ترتيب التفسير وما يصح من ذلك وما يفسد .

اعلم أن صحة الترتيب فى ذلك أن يُذْكَرَ فى الكلام معان مختلفة ، فإذا أعيد إليها بالذكر لتفسَّر قُدِّم للقدَّم وأُخِّرَ المؤخَّر ، وهو الأحسن ، إلا أنه قد ورد فى القرآن الكريم وغيره من الكلام الفصيح ، ولم يُراعَ فيه تقديم للقدم ولا تأخير المؤخر ، كقوله تعالى : « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خَلْفَهُمْ من السماء والأرض إن نَشَأ نَخْسِفْ بهم الأرضَ أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً من السماء إن فى ذلك لآية لكل عبد مُنِيب[1] » ولو قدم تفسير المقَدَّم فى هذه الآية وأخر تفسير المؤخر لقيل إن نشأ نسقط عليهم كسفا من السماء أو نخسف بهم الأرض .

وكذلك ورد قوله تعالى : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وجوه وتَسْوَدُّ وجوه ، فأما الذين اسْوَدَّتْ وجوههم أكَفَرْتُمْ بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابْيَضَّتْ وجُوهُهم[2] » فقدم المؤخر وأخر المقدم .

والقسمان وردا جميعاً فى القرآن الكريم .

فما روعى فيه تقديم المقدم وتأخير المؤخّر قوله تعالى : «وما نُؤَخِّره إلا لأجل معدود ، يوم يأت لا تَكَلَّمُ نفسٌ إلا بإذنه فمنهم شَقِيٌّ وسَعِيد ، فأما الذين شقُوا ففى النار لهم فيها زفيرٌ وشهيق ، خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ماشاء ربك إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سُعِدُوا ففى الجنة خالدين

---

(١) سورة سبأ ٩ .
(٢) سورة آل عمران ١٠٦

فيها مادامت السماوات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مَجْذُوذ[١] » .

ومن ذلك قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمَحَوْنا آية الليل وجعلنا آية النهار مُبْصِرة[٢] » .

وكذلك قوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مُبْصِرا[٣] » فلما قدم الليل فى الذكر على النهار قدم سبب الليل وهو السكون على سبب النهار وهو التعيش .

ومن ذلك ما كتبته فى كتاب تعزية وهو فصل منه فقلت : ولقد أوْحَشَتْ منه المعالى كما أوحشت المنازل ، وآمَتْ المكارم كما آمَتْ الحلائل ، وعَمَّتْ لوعةُ خَطْبه فما تشتكى ثكلى إلا إلى ثاكل ، وما أقول فيمن عدمت الأرض منه حَيَاها ، والحامد مُحْيَاها ، فلو نطق الجماد بلسان ، وتصور المعنى لعيان ، لأعْرَبَتْ تلك عن ظمأ صعيدها ، وبرزت هذه حاسرةً حول فقيدها .

ومن ذلك ما كتبته فى فصل من كتاب إلى بعض الإخوان فقلت « ومازالت أيادى سيدنا متنوعة فى زيادة جُودها وكتابها ، فهذه متطوِّلة بترقية وِرْدها ، وهذه آخذة بسنة أغبابها ، وأحسن ما فى الأولى أنها تأتى متحليةً بفواضل الإكثار ، وفى الثانية أنها تأتى متحلية بفضائل الاختصار ، فاختصار هذه فى فوائد أقلامها ، كتطويل تلك فى عوائد إنعامها ، وقد أصبحت خواطرى مستغرقة بإنشاء القول المبتكر فى شكر الفَضْل المطوَّل وجراب البيان المختصر ،

---

(١) سورة هود ١٠٥

(٢) سورة الإسراء ١٢

(٣) سورة يونس ٦٧ كان فى الأصل تحريف فى الآية .

وما جعل الله لها من سلطان البلاغة ما يَسْتَغِلُّ بأداء حقوق تُنقَلُ على الرقاب ، ومقابلة بلاغات تَثْقُلُ على الألباب » .

ومما جاء من ذلك شعرا قول إبراهيم بن العباس :

لنا إبلٌ كُومٌ يَضيق بها الفضا ... وَيفتَرُّ عنها أرضُها وسماؤُها

فمِنْ دونِها أن تُستَبَاحَ دماؤنا ... ومِنْ دوننا أن تُستَبَاحَ دماؤُها

حِمىً وقِرىً فالموتُ دونَ مَرامِها ... وأيسَرُ خَطْبٍ يَوْمَ حُقَّ فَناؤُها(١)

وهذه الأبيات من نادر ما يجيء فى هذا الباب معنىً وترتيبَ تفسيرٍ .

ومما جاء منه أيضا قول أبى تمام :

وما هو إلا الوَحْىُ أو حَدُّ مُرْهَفٍ ... تُمِيلُ ظُبَاهُ أخْدَعَىْ كلِّ مائِلِ

فهذا دواء الدّاء من كلِّ عالِمٍ ... وهذا دواء الداء مِنْ كل جاهل

وكذلك قوله أيضاً :

وكان لهم غَيْثاً وعِلْماً فمُعْدِمٌ ... فيَسْألُهُ أو باحثٌ فيُسائِلُه(٢)

وهذا من بديع ما يأتى فى هذا الباب .

ومما ورد منه قول علىٍّ بن جَبَلة :

فتى وقَفَ الأيامَ بالسُّخْط والرضا ... على بَذْلِ عُرْفٍ أو على حد مُنْصُلِ

ومن الحسن فى هذا الباب قول أبى نواس :

---

(١) ديوان إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول ١٦٣ كوم: جمع كوماء وهى الناقة الضخمة السنام

(٢) من قصيدته فى مدح المعتصم والأفشين التى مطلعها :

غدا الملك معمور الحمى والمنازل ... منور وحف الروض عذب المناهل

«الديوان ٣/٧٩

(٣) الديوان ٣٢٧ فى رثاء القاسم بن طوق

يَرْجُو ويَخشى حالتَيك الوَرى   كأنك الجنةُ والنارُ(١)

وكذلك ورد قول بعض المتأخرين ، وهو القاضى الأرَّجانى :

يَوْمُ المتَيَّم فيك حَوْلٌ كامل   يتعاقب الفصلان فيه إذا أتى
ما بين حَرِّ جَوًى وماء مدامع   إنْ حَنَّ صافَ وإن بكى وَجْداً شتا(٢)

ومما أخذ على الفرزدق فى هذا الباب قَوْلهُ :

لقد جئتَ قوماً لو لجأتَ إليهم   طَريدَ دمٍ أو حاملا ثِقْلَ مَغرم
لألفَيْتَ منهم مُعطِيا أو مُطا عِناً   وراءك شَزْراً بالوَشيج المقَوَّم(٣)

لأنه أصاب فى التفسير وأخطأ فى الترتيب ، وذاك أنه أتى بتفسير ما هو أول فى البيت الأول ثانيا فى البيت الثانى ، والأوْلَى أن كان أتى بتفسير ذلك مرتبا ، ففسر ما هو أوّل فى البيت الأول بما هو مكان فى البيت الثانى .

---

(١) من قصيدته التى مدح بها العباس بن الفضل بن الربيع ، التى مطلعها :

أمنك للمكتوم إظهار   أم منك تغبيب وإنكار

الديوان ٤٤٤ تغبيب : دفاع عنى

(٢) من مدحته للفقيه جمال الدين بن الحسن بن سليمان ، ومطلعها :

يا معرضا قد آن أن تتلفتا   تعذيب قلبى المستهام إلى متى

(٣) كان القعقاع بن عوف بن معبد بن زرارة قد أصاب دما فى بنى سعد بن زيد مناة وهرب ، فشكاه بنو سعد إلى والى البصرة حينئذ عبيد الله بن زياد ، فبعث وراءه رئيس شرطته هبيرة بن ضمضم المجاشعى ، وقال له : لئن لم تأتنى به قتلتك ، فظفر به هبيرة ، فامتنع عليه، فصوب إليه هبيرة الرمح ليستسلم وهو لا يريد قتله ، فأصابه الرمح فى جوفه فمات مكانه ، وعاد هبيرة خائبا ، فقال الفرزدق أبياتا يعرض فيها بضمضم ، مطلعها .

وقائلة والدمع يحدر كحلها   لبئس المدى أجرى إليه ابن ضمضم

والبيتان فى الديوان هكذا :

لقد خنت قوما لو لجأت إليهم   طريد دم أو حاملا ثقل مغرم
لألفيت منهم مطعما ومطاعنـــا   وراءك شزرا بالوشيج المقوم

(الديوان ٢/٧٤٩ شزرا : المراد فى غضب . الوشيج المقوم : الرمح .

واعلم أن الناظم لا ينكر عليه الذى ينكر على الناثر ، لأن الناظم يَضطره الوزن والقافية إلى ترك الأولى .

وأما فساد التفسير فإنه أقبح من فساد ترتيبه ، وذلك أن يؤتى بكلام ثم يفسر تفسيراً لا يناسبه ، وهو عيب لا تسامح فيه بحال . وذلك كقول بعضهم :

فيا أيها الحَيرانُ فى ظُلمة الدُّجَى ... ومَنْ خاف أن يلقاه بَغْى منْ العِدا
تعالَ إليه تَلقَ من نور وجهه ... ضياء ومن كفّيْه بَحراً من النّدَى

وكان يجب على هذا الشاعر أن يقول بإزاء بغى العدا ما يناسبه من النصرة والإعانة أو ما جرى مجراهما ليكون ذلك تفسيراً له ، كما جعل بإزاء الظلمة الضياء ، وفسرها به ، فأما أن جعل بإزاء ما يَتخَوّفُ منه بحرا من الندى ، فإن ذلك غير لائق .

النوع الخامس والعشرون

فى الاقتصاد والتفريط والإفراط

اعلم أن هذه المعانى الثلاثة من الاقتصاد والتفريط والإفراط توجد فى كل شىء من علم وصناعة وخُلق ، ولابد لنا من ذكر حقيقتها فى أصل اللغة ، حتى تتبين نقلها إلى هذا النوع من الكلام .

فأما الاقتصاد فى الشىء فهو من القصْد الذى هو الوقوف على الوسط الذى لا يميل إلى أحد الطرفين ، قال الله تعالى : «فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مُقتَصدٌ ومنهم سابق بالخيرات [١]» فظلم النفس والسَّبْقُ بالخيرات طرفان ، والاقتصاد وسط بينهما .

(١) سورة فاطر ٣٢

وقال تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقتُرُوا وكان بين ذلك قَوَاما[١] » فالإسراف والإقتار طرفان، والقَوَام وسطٌ بينهما .

وقال الشاعر[٢] .

عليك بالقَصْد فيما أنت فاعله إن التَّخَلُّق يأتى دُونَهُ الخُلُقُ

وأما التفريط فهو التقصير والتضييع ، ولهذا قال الله تعالى : « ما فرَّطنا فى الـكتاب من شىء »[٣] أى ما أهملنا ولا ضيعنا .

وأما الإفراط فهو الإسراف وتجاوز الحد ، فيقال أفرط فى الشىء إذا أسرف وتجاوز الحد ، والتفريط والإفراط هما الطرفان البعيدان ، والاقتصاد هو الوسط المعتدل .

وقد نُقِلَتْ هذه المعـانى الثلاثة إلى هذا النوع من علم البيان .

أما الاقتصاد فهو أن يكون المعنى للضمر فى العبارة على حسب ما يقتضيه المعَبَّر عنه فى منزلته .

وأما التفريط والإفراط فهما ضدان ، أحدهما أن يكون المعنى المضمر فى العبارة دون ما يقتضيه منزلة المعَبَّر عنه ، والآخر أن يكون المعنى فوق منزلته .

[التفريط]

والتفريط فى إيراد المعانى الخطابيّةقبيح لا يجوز استعماله بوجه من الوجوه ، والإفراطُ يجوز استعماله ؛ فنه الحسن ، ومنه دون ذلك ،

---

(١) سورة الفرقان ٦٧ .
(٢) هو سالم بن وابصة . شرح الحماسة للتبريزى ٢/٢٣٦ والمرزوقى ٧١٥ .
(٣) سورة الأنعام ٣٨

فما جاء من التفريط قول قول الأعشى :

وما مُزْبِدٌ من خليج الفرا ت جَوْنٌ غَوارُبه تَلْتَطِمْ
بأجْوَدَ منه بماعُونِه إذا ما سماؤُهُم لم تَغِمْ[١]

فإنه مدح ملكا بالجود بماعونه ، والماعون كل ما يستعار من قَدوم أو قَصْعة أو قِدرٍ أو ما أشبه ذلك ، وليس للملوك فى بذله مدح ، ولا لأوساط الناس أيضا ، وفى مدح السوقة به قولان ، ومدح الملوك به عيب وذم فاحش ، وهذا من أقبح التفريط .

ومما يجرى هذا المجرى قول الفرزدق :

ألا ليتنا كنا بَعِيرَيْن لا نَرِدْ على حاضِرٍ إلا نُشَلُّ ونُقْذَفُ
كلانا به عُرٌّ يُخافُ قِرافُه على الناسِ مَطْلِيُّ المَشاعِرِ أخْشَفُ[٢]

(١) من قصيدته فى مدح قيس بن معد يكرب ، التى مطلعها :

أتهجر غانيـــة أم تلم أم الحبل واه بها منجذم

الديوان ٣٥ .

(٢) من إحدى نقائضه (الديوان ٢ / ٥٥١) والبيتان فى الديوان هـكذا :

فياليتنـــا كنا بعيرين لا نرد على منهل إلا نشل ونقـذف
كلانا به عر يخاف قرافه على الناس مطلى المساعر أخشف

وكان بالأصل (قرانه) و (المشاعر) .

المنهل : الماء . نشل : نطرد . العر بفتح العين : الجرب وبضمها قرح ليست بالجرب. القراف : المخالطة وداء يقتل البعير . المساعر : أصول الفخذين والإبطين ، لأنها أول مايشتد فيها الجرب . ويروى الأشاعر . الأخشف: الجلد اليابس من الجرب .

ولكثير عزة أمنية مثل هذه فى قوله :

ألا ليتنا ياعز من غير ريبة بعيران نرعى فى الخلاء ونعزب
كلانا به عر فمن يرنا يقل على حسنها جرباء تعدى وأجرب
نكون لذى مال كثير مغفل فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب
إذا ما وردنا منهلا صاح أهله علينا فلا ننفك نرمى ونضرب

(للوشح ١٥٠)

هـذا رجل ذهب عقله حين نظم هذين البيتين ، فإن مراده منهما التغزل بمحبوبه ، وقد قصر تمنيه على أن يكون هو ومحبوبه كبعيرين أجربين ، لا يقربهما أحد ولا يقربان أحداً إلا طردها ، وهذا من الأماني السخيفة ، وله في غير هذه الأمنية مندوحات كثيرة .

وما أشبه هذا بقول القائل :

يارَبِّ إن قَدَّرته لمُقَبِّل   غيرى فللأقداح أو للأكْؤُسِ
وإذا حَكَمْتَ لنا بعَيْن مُراقِبٍ
في الدهر فَلْتَكُ من عُيون النَّرْجِسِ

فانظر كم بين هاتين الأمنيتين .

ومما أخذ على أبي نواس في قصيدته الميمية الموصوفة التي مدح بها الأمين محمد بن الرشيد وهو قوله :

أصبحت ياابن زُبَيْدَةَ ابنةِ جَعْفرٍ
أمَــــلاً لعَقْدِ حِباله اسْتِحْكامُ[1]

فإن ذكر أم الخليفة في مثل هذا للوضع قبيح .

وكذلك قوله في موضع آخر :

وليس كجَدَّتيهِ أمّ موسى   إذا نُسِبَتْ ولا كالخَيْزُرانِ[2]

(١) من قصيدته في مدح الأمين التي مطلعها :
ياداد ما فعلت بك الأيام   ضامتك والأيام ليس تضام
(الديوان ٤٠٧)
(٢) من مدحته للأمين ، التي أولها :
رضينا بالأمين عن الزمان   فأضحى الملك معمور المغاني
الديوان ٤١٦

وهذا لغو من الحديث لا فائدة فيه ، فإن شرف الأنساب إنما هو إلى الرجال لا إلى النساء . وياليت شِعرى أما سمع أبو نواس قول قُتَيْلَةَ بنت النَّضْر فى النبى صلى الله عليه وسلم :

أمحمّد ولأنتَ نَجْلُ كريمةٍ   من قومها والفحلُ فحلٌ مُعْرِقُ
ما كان ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ وربَّما   مَنَّ الفتَى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ (١)

فإنها ذكرت الأم بغير اسم الأم ، وأبرزت هذا الكلام فى هذا اللباس الأنيق . وكذلك فليكن المادح إذا مدح ، وأبو نواس مع لطافة طبعه وذكائه وما كان يوصف به من الفطنة قد ذهب عليه مثل هذا الموضع مع ظهوره .

وليس لقائل أن يعترض على ما ذكرته بقوله تعالى حكاية عن موسى وأخيه هارون عليهما السلام « قال يا ابن أمَّ لا تأخُذْ بلحيتى ولا برأسى (٢) » فإن الفرق بين الموضعين ظاهر ، لأن المنكر على أبى نواس إنما هو التلفظ باسم الأم وهى زبيدة ، وكذلك اسم الجدّة وهى الخيزران ، وليس كذلك ما ورد فى الآية . فإن قيل قد ورد فى القرآن الكريم ما يسوغ لأبى نواس مقالته وهو قوله تعالى :

---

(١) وفدت قتيلة بنت النضر بن الحارث على النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أمر بقتله عقب غزوة بدر، فأنشدته أبياتا أولها:

يا راكبا إن الأثيل مظنة   من صبح خامسة وأنت موفق
بلغ به ميتا فإن تحية   ما إن تزال بها الركائب تخفق .

سيرة ابن هشام (٣٠٩/١) والإصابة ٨٠٨٤ قسم النساء ومعجم البلدان (الأثيل) والعمدة ٣٠/١ وذكر ابن إسحاق فى السيرة وأبو الفرج فى الأغانى ٩/١ والحصرى فى زهر الآداب ٢٢/١ أنها بنت الحارث ، وتكون إذاً أخت النضر لابنته

الأثيل : موضع كان فيه قبر النضر . المظنة : المنزل المعلم : من صبح خامسة : تريد من من صبح ليلة خامسة لليلة التى تبدأ فيها السير إلى الأثيل وأنت على الطريق غير عادل عنه تخفق : تضرب وتتحرك .

(٢) سورة طه ٩٤

« وإذ قال الله يا عيسى بنَ مريمَ أأنتَ قلتَ للناس اتخذُونى وأمّى إلَهَيْن من دُون الله[1] » فناداه باسم أمه ، فقلت الجواب عن ذلك من وجهين .

أحدها أن عيسى عليه السلام لم يكن له أب فنودى باسم أمه ضرورة ، إذ لو كان له أب لنودى باسم أبيه .

الوجه الآخر أن هذا النداء إنما هو من الأعلى إلى الأدنى ، إذ الله سبحانه وتعالى هو الرب وعيسى عليه السلام عبده ، وهذا لا يكون تفريطاً ، لأنه لم يعبر عنه بما هو دون منزلته .

على أن أبا نواس لم يوقعه فى هذه المعرة إلا ما سمعه عن جرير فى مدح عمر بن عبد العزيز كقوله :

وَتَبنِى المجدَ يا عُمَرَ بنَ لَيْلَى   وَتَكْفِى المُمْحِلَ السَّنَةَ الجَمَادا[2]

وكذلك قال فيه كُثَيِّرُ عزة أيضاً .

وليس للعيب من هذا مخاف ، فإن العرب قد كان يعبِّر بعضها بعضا بنسبته إلى أمه دون أبيه ، ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقال له ابن حَنْتَمة ، وإنما كان يقول ذلك من يغض منه ، وإنما قول النبى صلى الله عليه وسلم للزبير بن صفية « بشِّر قاتل ابن صفية بالنار » فإن صفية كانت عمة النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما نسبه إليها رفعا لقدره فى قرب نسبه منه وانه ابن عمته ، وليس هذا كالأول فى الغض من عمر رضى الله عنه فى نسبه إلى أمه[3] .

---

(١) سورة المائدة ١١٦

(٢) من قصيدته التى مطلعها :

أبت عيناك بالحسن الرقادا   وأنكرت الأصادق والبلادا

(الديوان ١٣٤)

(٣) لم يكن النسب إلى الأم تحقيرا ، كما توهم ابن الأثير .

فقد كانت له بواعث شتى ، منها تكريم الأم المنجبة وتمجيدها ، ومنها الفخر بها لعراقتها ، ومنها مدح أبنائها بنسبهم إليها ، ومنها أن تكون الأم أعظم شهرة من الأب وعراقة .

وكان فى قليل من الأحيان للتحقير (المرأة فى الشعر الجاهلى للدكتور أحمد الحوفى ٨٠)

وقد عاب بعض من يتهم نفسه بالمعرفة قول أبي نواس في قصيدته السينية التي أولها « تَبْهُ ندِ يمك قد تَعَسْ » . فقال من جملتها :

ورِثَ الخلافة خامسا ... وبخير سادسهم سَدَسْ[1]

قال وفي ذكر السادس نظر ، ويا عجبا له مع معرفته بالشعر ، كيف ذهب عليه هذا الموضع ، أما قرأ سورة الكهف ؟ يريد قوله تعالى : « ويقولون خمسة سادسهم كلبهم[2] » وهذا ليس بشيء ، لأنه قد ورد في القرآن الكريم ما ينقضه وهو قوله تعالى « ألم تَرَ أن الله يَعْلَمُ ما في السموات وما في الأرض ما يكونُ من نجْوَى ثلاثة إلا هورابِعُهُمْ ولا خَمْسَةٍ إلا هو سادِسهم[3] » .

ومما عبته على البحتري قوله في مدح الفتح بن خاقان في قصيدته المشهورة عند لقائه الأسد التي مطلعها « أجِدَّكَ ما ينفكُّ يَسْرِي لزينبا » . فقال :

شهدتُ لقد أنصَفْتَه حين تنبَرى ... له مُصلِتاً عَضْبا من البيض مِقْضَبا

فلم أرَضِرْغامَيْنِ أصدقَ منكما ... عِراكاإذا الهَيَّابةُ النِّكسُ كَذَّبا[4]

قوله إذا الهيابة النكس تفريط في المدح ، بل كان الأولى أن يقول إذا البطل كذب ؛ وإلا فأي مدح في إقدام المقدم في الموضع الذي يفرّ منه الجبان .

---

(١) من قصيدته في مدح الأمين (الديوان ٤١٧)
والمعروف أنه سادس خلفاء بني العباس ، والخمسة هم عبد الله السفاح والمنصور والهادي والمهدي والرشيد . وسدسهم صار لهم سادسا

(٢) سورة الكهف ٢٣

(٣) سورة المجادلة ٧

(٤) مطلع القصيدة :

أجدك ماينفك يسرى لزينبا ... خيال إذا آب الظلام تأوبا

وفي الأصل تبترى بدلا من تنبرى (الديوان ٥٦/١)

ألا قال كما قال أبو تمام :

فتىً كلما ارتاد الشجاعُ من الرَّدَى مَفرًّا غداةَ المأزِقِ ارتادَ مَصْرعا[١]

وعلى أسلوب البحترى ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة :

وإنى لقوَّالٌ لعافٍ مَرْحَبا وللطالب المعروف إنك وَاجِدُهْ

وإنى لممَّنْ أبسُط الكفَّ بالنَّدَى إذا شَنِجَتْ كَفُّ البخيلِ وساعِدُه[٢]

وهذا معيب من جهة أنه لا فضل فى بَسْط يده عند قَبْضِ يد البخيل ، وإنما الفضيلة فى بسطها عند قبض الكرام أيديهم .

ومن هذا الباب قول أبى تمام .

يَقِظٌ وهْو أكثر الناس إغضا ء على نائِلٍ له مَسْروق[٣]

فإنه أراد أن يمدح فذمّ

ومما هو أقبح من ذلك قوله أيضا :

تُثَنِّى الحربُ منه حين تَغلِى مراجلُها بشيطان رجيمِ[٤]

وقد استعمل هذا فى شعره حتى أفحش كقوله :

---

(١) من رثائه لمحمد بن حميد ، ومطلع القصيدة :

أصم بك الناعى وإن كان أسمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

وقد تقدمت القصيدة .

(٢) القائل هو إياس بن الأرت (شرح الحماسة للتبريزى ٤/٢١٨) والمرزوقى ٤/١٦٨٥ العافى : طالب المعروف أو الطعام . شنجت كفه وساعده : كناية عن ظهور الجدب والبخل .

(٣) من قصيدته فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف ؛ ومطلعها :

ماعهدنا كذا بكاء المشوق كيف والدمع آية المعشوق

الديوان ٢/ ٤٣٠ .

(٤) من مدحته لبعض بنى عبد الكريم الطائيين (الديوان ٢١٧) ومطلعها :

أرامة كنت مألف كل ريم لو استمتعت بالأنس المقيم

تثنى : تجعل لها أثافى وهى الحجارة التى ينصب عليها القدر . المراجل : القدور . وفى الأصل (ينقى الحرب) . ليست القصيدة بالديوان .

أنتَ دَلوٌ وذُو السَّماحِ أبومو   سى قَلِيبٌ وأنتَ دَلوُ القَلِيبِ (١)

ومراده من ذلك أنه جعله سببا لعطاء المشار إليه ، كما أن الدَّلوَ سبب فى امتياح الماء من القَلِيب ، ولم يبلغ هذا المعنى من الإغراب إلى حدٍّ يُدَنْدِن أبو تمام حوله هذه الدندنة ويلقيه فى هذا المثال السخيف ، على أنه لم يقنع بهذه السقطة القبيحة فى شعره ، بل أوردها فى مواضع أخرى منه فمن ذلك قوله :

ما زال يَهْذِى بالمكارم والعلا   حتى ظننا أنه محموم (٢)

فإنه أراد أن يبالغ فى ذكر الممدوح باللهج بالمكارم والعلا ، فقال مازال يهذى ، وما أعلم ما كانت حاله عند نظم هذا البيت .

وعلى نحو منه جاء قول بعض المتأخرِين :

ويلحقه عند المكارمِ هزة   كما انتقض المجهود من أم مِلدَمِ (٣)

وهذا وأمثاله لا يجوز استعماله ، وإن كان المعنى المقصود به حسنا، وكم ممن يتأول معنى كريما فأساء فى التعبير عنه حتى صار مذموما كهذا وأمثاله .

---

(١) القليب : البئر . ليست القصيدة بالديوان . البيت بالصناعتين ٣٥٦

(٢) من مدحته لأبى الحسين محمد بن شبابة بن الهيثم التى مطلعها :

أسقى طلولهم أجش هزيم   وغدت عليهم نضرة ونعيم

(الديوان ٣/٢٨٩) والبيت فى الديوان هكذا :

مازال يهذى بالمواهب دائبا   حتى ظننا أنه محموم

ويروى بالمواهب والندى .

أجش : يوصف به الرعد كأن به جشة وقوة . هزيم : رعد ذوصوت ، أو رعد ممطر .

(٣) أم ملدم : الحمى .

ومن أحسن ما قيل فى مثل هذا الموضع قول ابن الرومى :

ذهب الذين تَهزُّهم مُدّاحهم   هزَّ الكُماةِ عَوالِيَ المرّان
كانوا إذا مُدِحُوا رأوا ما فيهم   فالأَرْيحيَّة منهمُ بمكان(١)

ومن شاء أن يمدح فليمدح هكذا وإلا فليسكت .

ووجدت أبا بكر محمد بن يحيي المعروف بالصُّولى قد عاب على حسان بن ثابت رضى الله عنه قوله :

لنا الجَفناتُ الغُرُّ يلْمَعْنَ فى الضُّحى   وأسيافُنا يقْطُرْن من نَجْدةٍ دَما(٢)

وقال إنه جمع الجفنات والأسياف جمع قِلَّةٍ وهو فى مقام فخر ، وهذا مما يحط من المعنى ويضع منه ، وقد ذهب إلى هـذا غيره أيضا ، وليس بشيء لأن الغرض إنما هو الجمع ، سواء أكان جمع قلة أم جمع كثرة .

---

(١) الديوان ٤٧٤ من قصيدة مطلعها :

للمادحون اليوم أهل زماننا   أولى من الهاجين بالحرمان

(٢) كان النابغة الذبيانى تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ ، يجتمع إليه فيها الشعراء ، فدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى وقد أنشده شعره ، وأنشدته الخنساء إحدى مراثيها ، فقال النابغة : لولا أن أبا بصير أنشدنى قبلك ، لقلت إنك أشعر الناس ، أنت والله أشعر من كل ذات مثانة ، فقالت والله ومن كل ذى خصيتين . فقال حسان : أنا والله أشعر منك ومنها قال النابغة : حيث تقول ماذا ، قال حيث أقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحا   وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق   فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال النابغة : إنك لشاعر ، لولا أنك قللت عدد جفانك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك . وفى رواية أخرى أنه قال له : قلت الجفنات فقللت العدد ، ولو قلت الجفان لكان أكثر ، وقلت يلمعن فى الضحا ، ولو قلت يبرقن بالدجا لكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا ، وقلت يقطرن من نجدة دما ، فدللت على قلة القتلى ، ولو قلت يجرين لكان أكثر ، لانصباب الدم ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك . فقام حسان منكسرا منقطعا.

(الأغانى ٨/ ١٨٨ والموشح للمرزبانى ٦٠)

ويدل على ذلك قوله تعالى « إن إبراهيم كان أُمَّةً قانتاً لله حنيفاً ولم يَكُ من المشركين ، شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم »[١] أفترى نعم الله كانت قليلة على إبراهيم صلوات الله عليه ؟

وكذلك ورد قوله عز وجل فى سورة النمل « وأَدْخِلْ يدَكَ فى جَيْبِك تَخْرُجْ بيضاء من غير سوء فى تسع آياتٍ إلى فرعونَ وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين ، فلما جاءتهم آياتنا مُبصِرةً قالوا هذا سحر مبين. وجَحَدُوا بها واسْتَيْقَنَتْها أنفسهمُ ظُلْماً وعُلُوًّا فانظر كيف كانَ عاقبة المفسدين[٢] » فقال واستيقنتها أنفسهم لجمع النفس جمع قلة ، وما كان قوم فرعون بالقليل حتى تجمع نفوسهم جمع قلة ، بل كانوا مئين ألوفا ، وهذا أيضا مما يبطل قول الصولى وغيره فى مثل هذا الموضوع ،

وكذلك ورد قوله عز وجل « الله يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حين مَوْتِها والتى لم تَمُتْ فى منامها[٣] » والنفوس المتوفاة والنائمة لاينتهى إلى كثرتها كثرة لأنها نفوس كل من فى العالم .

واعلم أن للمدح ألفاظا تخصه وللذم ألفاظا تخصه ، وقد تعمق قوم فى ذلك حتى قالوا من الأدب ألا تخاطب الملوك ومن يقاربهم بكاف الخطاب ، وهذا غلطٌ بارد ، فإن الله الذى هو مَلِكُ الملوك قد خوطب بالكاف فى أول كتابه العزيز فقيل « إياكَ نَعْبُدُ وإياكَ نستعين » .

وقد ورد أمثال هذا فى مواضع من القرآن غير محصورة ، إلا أنى قد راجعت نظرى فى ذلك فرأيت الناس بزمانهم أشبَهَ منهم بآبائهم[٤] والعوائد لا حكم لها ،

---

(١) سورة النحل ١٢٠ — ١٢١
(٢) سورة النمل ١٢ — ١٤
(٣) سورة الزمر ٤٢
(٤) كانت فى الأصل (بأيامهم)

ولا شك أن العادة أوجبت للناس مثل هذا التعمق فى ترك الخطاب بالكاف ، لكنى تأملت أدب الشعراء والكتاب فى هذا الموضع فوجدت الخطاب لا يعاب فى الشعر ، ويعاب فى الكتابة إذا كان المخاطب دون المخاطَب درجة ، وأما إن كان فوقه فلا عيب فى خطابه إياه بالكاف ، لأنه ليس من التفريط فى شىء ، فمن خطاب الكاف قول النابغه :

وإنك كالليل الذى هو مدركى   وإن خلتُ أن المُنتأى عنك واسع(١)

وكذلك ورد قوله أيضاً :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً   وليس وراء الله للمرء مَذْهَبُ(٢)

وعليه جاء قول بعض المتأخرين أيضا فقال أبو نواس :

إليك أبا المنصورَ عذبتُ ناقتى   زيارةَ خِلٍّ وامتحانَ كريم
لأعلَمَ ما تأتى وإن كنتُ عالما   بأنك مهما تأتِ غيرُ مَلُوم(٣)

وكذلك ورد قول السَّلاَمِى(٤) :

إليك طوَى عُرضَ البسيطةِ جاعلٌ   قُصارَى المطايا أن يَلُوحَ لها القَصْر
وبشَّرت آمالى بملْكٍ هو الورَى   ودارٍ هى الدنيا ويومٍ هو الدَّهرُ(٥)

---

(١) من قصيدته فى الاعتذار إلى النعمان بن المنذر (الديوان ٧١)

(٢) من اعتذاره للنعمان بن المنذر (الديوان ١٧)

(٣) من قصيدة فى مدح الفضل بن الربيع ، مطلعها :

لمن دمن تزداد حسن رسوم   على طولما أقوت وطيب نسيم

(الديوان ٤٤٧)

(٤) من أشهر شعراء العراق ولد بكرخ بغداد ٣٣٦ هـ وينتسب الى بنى مخزوم (يتيمة الدهر ٢/٣٩٥)

(٥) قصارى المطايا : هدفها وغايتها . وكانت بالأصل قصار المطايا (يتيمة الدهر ٢/٤٠١)

وعليه ورد قوله البحترى :

ولقد أتيتُكَ طالباً فبسَطتَ مِنْ
أملى وأطلَبَ جُودُ كفك مَطلَبِى(١)

وجُلّ خطاب الشعراء للممدوحين إنما هو بالكاف .

وذلك محظور على الكتاب ، فإنه ليس من الأدب عندهم أن يخاطب الأدنى الأعلى بالكاف ، وإنما يخاطبه مخاطبة الغائب لا مخاطبة الحاضر .

على أن هذا الباب بجملته يُوكَلُ النظر فيه إلى فطانة الخطيب والشاعر ، وليس مما يُوقَفُ فيه على المسموع خاصة .

ومن ألطف ما وجدته أنك إذا خاطبت الممدوح أن تترك الخطاب بالأمر بأن تقول افعل كذا وكذا وتخرجه مخرج الاستفهام ، وهذا الأسلوب حسن جدّا ، وعليه مسحة من جمال ، بل عليه الجمال كله .

فما جاء منه قول البحترى فى قصيدة أوّلها . « بوُدّىَ لو يَهوَى العذول ويَعشَقُ » فقال فيها :

فهل أنتَ يا ابن الراشدين مُختّمِى بياقوتةٍ تَبهَى علىّ وتُشرِقُ؟(٢)

وهذا من الأدب الحسن فى خطاب الخليفة ، فإنه لم يخاطبه بأن قال خَتّمنى بياقوته على سبيل الأمر ، بل خاطبه على سبيل الاستفهام ، وقد أعجبنى هذا المذهب وحسن عندى .

---

(١) الديوان ١/٢٠)
وفيه (إنى أتيتك) . أطلب جود كفك مطلبي : أعطانى ماطلبت
(٢) من قصيدته فى مدح المعتز بالله ، والشطر الثانى من البيت هو :
فيعلم أسباب الهوى كيف تعلق
(الديوان ٢/١٢٤)
تبهى : تحسن وتجمل . ويصح أن تكون تبهى على وزن تعطى والمعنى واحد .

وقد حذا حذو البحترى شاعر من شعراء عصرنا ، فقال فى مدح الخليفة الناصر لدين الله أبى العباس أحمد من قصيدة له على قافية الدال ، فقال من أبيات يصف بها قصيدته :

أَمَقْبولةٌ يا ابنَ الخلائفِ من فَمِى   لَدَيْكَ بوَصْفِى غادَةُ الشِّعرِ رُؤْدُه(١)

فقوله أمقبولة من الأدب الحسن الذى نسج فيه على منوال البحترى .

وهذا باب مفرد ، وهو باب الاستفهام فى الخطاب ، وإذا كان الشاعر فطنا عالما بما يضعه من الألفاظ والمعانى تَصَرَّفَ فى هذا الباب بضروب التصرفات ، واستخرج من ذات نفسه شيأ لم يسبقه إليه أحد .

واعلم أن من المعانى ما يُعَبَّرُ عنه بألفاظ متعدّدة ، ويكون المعنى المندرج تحتها واحدا ، فمن تلك الألفاظ ما يليق استعماله بالمدح ، ومنها ما يليق استعماله بالذم ، ولو كان هذا الأمر يرجع إلى المعنى فقط لكانت جميع الألفاظ الداله عليه سواء فى الاستعمال ، وإنما يُرْجَعُ فى ذلك إلى العرف دون الأصل .

ولنضرب له مثالا ، فنقول : هل يجوز أن يخاطب الملك فيقال له وحق دماغك قياساً على وحق رأسك ؟ وهذا يرجع إلى أدب النفس دون أدب الدرس ، فإذا أراد مؤلف الكلام أن يمدح ذكَرَ الرأس والهامَةَ والكاهِلَ وما جرى هذا المجرى ، فإذا أراد أن يَهْجُوَ ذكَرَ الدماغ والقَفا والقَذَال(٢) وما جرى هذا المجرى ، وإن كانت معانى الجميع متقاربة . ومن أجل ذلك حَسُنَتْ الكناية فى الموضع الذى يقبح فيه التصريح .

---

(١) الرؤد والرأد والرئد : الشابة الحسنة . المعنى هل تقبل فى مدحى لك غادة من شعرى
(٢) القذال : مجتمع مؤخر الرأس

ومن أحسن ما بلغنى من أدب النفس فى الخطاب أن عثمان بن عفان رضى الله عنه سأل قَبَاثَ بن أشْيَمَ فقال له : أنت أكْبَرُ أمْ رسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر منى ، وأنا أقدم منه فى الميلاد .

فانظر إلى أدب هذا العربى الذى من شأنه وشأن أمثاله جفاء الأخلاق ، والبعد عن فطانة الآداب .

الإفراط :

وأما الإفراط فقد ذمه قوم من أهل هذه الصناعة وحمده آخرون ، والمذهب عندى استعماله ، فإن أحْسَنَ الشعر أكْذَبُه ، بل أصدقه أكذبه ، لكنه تتفاوت درجاته ، فمنه المستحسن الذى عليه مدار الاستعمال ، ، ولا يطلق على الله سبحانه وتعالى ، لأنه مهما ذكر به من المغالاة[1] فى صفاته فإنه دون ما يستحقه .

ومما ورد من ذلك فى الشعر قول عنترة :

وأنا المنِيَّةُ فى المواطِنِ كلِّها والطَّعْنُ منى سابِقُ الآجال[2]

وقد يروى[3] بالياء وكلا المعنيين حسن إلا أن الياء أكثر غلوا .

ومما جاء على نحو ذلك قول بشار :

إذا ما غضِبْنا غضْبَةً مُضرِيَّةً هتكنا حِجابَ الشمسِ أو قطَرَتْ دَما[4]

---

(١) كانت الكلمة بالأصل (المعاملات)

(٢) ديوان عنترة ١٢٩ والبيت بالديوان هكذا :

وأنا المنيه حين تشتجر القنا والطعن منى سابق الآجال

(٣) يروى سابق الآجال ، أى يسوقها .

(٤) روى البيت هكذا بالشعر والشعراء لابن قتيبة ١٧٨ والبيت بالأغانى ٣/٣١هكذا

إذا ماغضبنا غضبة مضربة هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما

ومنه ما يستهجن ، كقول النابغة الذبياني :

إذا ارْتَعَشَتْ خاف الجبانُ رِعاثَها ومن يَتَعَلَّقْ حيث عُلِّقَ يَفْرَقِ (١)

وهذا يصف طول قامتها(٢) لـكنه من الأوصاف المُنْكَرَةِ التي خَرَجَتْ بها المغالاة عن حيز الاستحسان .

وكذلك ورد قول أبي نواس :

وأخَفْتَ أهلَ الشركِ حتى إنه لَتخافُكَ النُّطَفُ التي لم تُخْلَقِ (٣)

وهذا أشد إفراطاً من قول النابغة .

ويروى أن العَتَّابي لقي أبا نواس فقال له أما استحيت الله حيث تقول ، وأنشده البيت ، فقال له : وأنت ماراقبت الله حيث قلت :

ما زلتُ في غَمَرات الموت مُطَّرَحًا يَضِيقُ عني وَسِيعُ الرأي من حِيَلِي

فلم تَزَلْ دائبًا تَسْعَى بلُطْفك لي حتى اخْتَلَسْتَ حياتي من يَدَيْ أَجَلِي

فقال له العَتَّابي : قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل قولك ، ولـكنك قد أعددت لـكل ناصح جوابًا :

---

(١) من أبيات له في الغزل ، وبعده :

وإن ضحكت للعصم ظلت روانيا إليها وإن تبسم إلى المزن يبرق

رتعشت : تقرطت ، الرعثة : القرط

الديوان من مجموعة دواوين طبعة المطبعة الأهلية ببيروت ص ٥٦

(٢) لعله يريد طول عنقها ، لأن البيت كناية عن طول الرقبة لاطول القامة

(٣) من مدحة للرشيد ، مطلعها :

خلق الشباب وشرتي لم تخلق ورميت في غرض الزمان بأفوق

الديوان ٣٩٨ خلق على وزن سمع وكرم ونصر : بلي . الشرة : الحدة والنشاط . غرض : هدف . أفوق : سهم كسر فوقه أي موضع الوتر من السهم .

وقد أورد أبو نواس هذا المعنى فى قالب آخر فقال :

كَدَّتْ منادمَةُ الدِّماء سُيوفَه فَلَقَلَّما تَحتازُها الأجفانُ
حتى الذى فى الرَّحْم لم يَكُ صورةً لفؤاده من خَوْفِه خفقَانُ(١)

وما يجىء فى هذا الباب مايجرى هذا المجرى .

وقد استعمل أبو الطيب المتنبى هذا القسم فى شعره كثيراً فأحسن فى مواضع منه ، فمن ذلك قوله :

عَجاجاً تَعثُرُ العِقْبانُ فيه كأن الجوَّ وَعْثٌ أو خَبارُ(٢)

ثم أعاد هذا المعنى فى موضع آخر فقال :

عَقَدَتْ سنابكُها عليها عِثْيَرًا لو تَبتَغِى عَنَقاً عليه لأمْكَنا(٣)

---

(١) من مدحه للرشيد ، مطلعها :

حى الديار إذ الزمان زمان وإذ الشباك لنا حرى ومعان

الديوان ٤٠٤

الرحم : بكسر الراء وسكون الحاء ، وبكسرهما معا مقر الجنين فى بطن أمه . الشباك : جمع شبكة . حرى : خليق بنا . معان : عون . يريد أن شباك الهوى فيما مضى كانت تصيب .

(٢) من مدحة لسيف الدولة ، مطلعها :

طوال قنا تطاعنها قصار وقطرك فى ندى ووغى بحار

الديوان ٢٤٣

عجاجا : منصوبة على التبعية لما قبلها فى بيت سابق . والعجاج : الغبار .

العقبان : جمع عقاب وهو طير جارح . الوعث : المكان السهل اللين الذى تغوص فيه الأقدام . الخبار : مالان من الأرض واسترخى . يريد أن العقبان التى تسير فوق الجيش تعثر فى ذلك الغبار الكثيف ، فكأن الجو أرض لينة تغوص فيها أرجلها .

(٣) من قصيدة فى مدح بدر بن عمار (الديوان ٤/٢٠ ٤) السنابك : جمع سنبك وهو طرف مقدم الحافر . العثير : الغبار . العنق : سير شديد .

وهذا أكثر مغالاة من الأول .

ومن ذلك قوله أيضاً :

كأنما تَتَلَقّاهم لَتَسلُكَهُمْ فالطعنُ يَفْتَحُ في الأجْواف مايَسَع[١]

وعلى هذا ورد قول قيس بن الخطيم :

مَلَكْتُ بها كَفِّي فأنْهَرْتُ فَتْقَها يَرَى قائِمٌ مِنْ دُونِها ماوَراءها[٢]

لكنْ أبو الطيب أكثر غلوّا في هذا المعنى ، وقيس بن الخطيم أحسن ، لأنه قريب من الممكن ، فإن الطعنة تنفذ حتى يتبين فيها الضوء ، وأما أن يجعل للطعون مَسْلكا يُسْلك كما قال أبو الطيب فإن ذلك مستحيل ، ولا يقال فيه بعيد .

الاقتصاد :

وأما الاقتصاد فهو وسط بين المنزلتين ، والأمثلة له كثيرة لا تحصى ، إذ كل ماخرج عن الطرفين من الإفراط والتفريط فهو اقتصاد .

ومن أحسنه أن يجعل الإفراط مثــــلا ، ثم يستثنى فيه بلو أو يكاد وماجرى مجراها .

فمن ذلك قوله تعالى « يكاد البرق يَخْطَفُ أبصارهم[٣] » وكذلك قوله عز وجل : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَدًا[٤] » وقدورد هذا في القرآن الكريم كثيراً .

---

(١) من مدح سيف الدولة ، مطلع القصيدة :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

الديوان ٢/٣٩٢

(٢) شرح الحماسة للمرزوقى (١٨٤/١) يصف طعنته لابن عبد القيس :

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذ لولا الشعاع أضاءها

الشعاع : بفتح الشين الدم المتفرق ، يريد أن الطعنة كانت تظهر الضوء لولا الدم المنبثق من الجرح .

(٣) سورة البقرة ٢٠ (٤) سورة الجن ١٩

ومما ورد منه شعرا قول الفرزدق :

يكاد يُمسِكُهُ عرفانَ راحته ... رُكْنُ الحَطيمِ إذا ما جاء يَستَلِمُ(١)

وكذلك ورد قول البحترى :

فلو أن مشتاقا تكلَّفَ فوق ما ... فى وُسْعه لسَعَى إليك المِنْبَرُ(٢)

وهذا هو المذهب المتوسط .

النوع السادس والعشرون

فى الاشتقاق

اعلم أن جماعة علماء البيان يَفصِلون الاشتقاق عن التجنيس ، وليس الأمر كذلك ، بل التجنيس أمر عام لهذين النوعين ومن الكلام ، وذاك أن التجنيس فى أصل الوضع من قولهم : جانس الشىء الشىء إذا ماثله وشابهه ، ولما كانت

---

(١) من قصيدة منسوبة للفرزدق ، وليست فى ديوانه مطلعها :

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا النقى التقى الطاهر العلم

وذلك أن هشام بن عبد الملك كان يطوف بالبيت ، فأراد استلام الحجر فلم يقدر ، فنصب له منبر ، فجلس عليه ، وبينما هو كذلك إذ أقبل على بن الحسين فطاف ، وأتى ليستلم الحجر ، فتنحى له الناس هيبة وإجلالا ، فغاظ ذلك هشاما ، فقال رجل من أهل الشام : من هذا الذى أكرمه الناس وأعظموه ؟ فقال هشام : لا أعرفه ، لئلا يعظم فى نفوس أهل الشام ، فقال الفرزدق — وكان حاضرا — هذه القصيدة .

(زهر الآداب ١/٦٥ والأغانى ١٩/٤٠) وتروى القصيدة للحزين الكنانى عمرو بن عبيد بن وهب فى مدح عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وتروى لداود بن سلم فى مدح قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس . وتروى للعين المنقرى فى على بن الحسين .

(٢) من قصيدته فى مدح المتوكل وتهنئته بعيد الفطر ، مطلعها :

أخفى هوى لك فى الضلوع وأظهر ... وألام فى كمد عليك وأعذر

(الديوان ١/٢١١) وبالأصل (لو أن)

الحال كذلك ووجدنا من الألفاظ ما يتماثل ويتشابه فى صيغته وبنائه علمنا أن ذلك يُطلَقُ عليه اسمُ التجنيس.

وكذلك لما وجدنا من المعانى مايتماثل ويتشابه علمنا أن ذلك يُطلَق عليه اسم التجنيس أيضا.

فالتجنيس إذًا ينقسم قسمين: أحدهما تجنيس فى اللفظ، والآخر تجنيس فى المعنى.

فأما الذى يتعلق باللفظ فإنه لم يُنقَل عن بابه ولا غُيِّر اسمه، وقد تقدم ذكره فى باب الصناعة اللفظية.

وأما الذى يتعلق بالمعنى فإنه نُقِل عن بابه فى التجنيس، وسمى الاشتقاق، أى أحد المعنيين مُشْتَقٌّ من الآخر. وهو على ضربين: صغير وكبير، فالصغير أن تأخذ أصلا من الأصول فتجمع بين معانيه وإن اختلفت صيغته ومبانيه، كتركيب (س ل م) فإنك تأخذ منه معنى السلامة فى تصرفه، نحو سِلِمَ وسَالِم وسَلْمان وسَلْمَى والسَّليم اللديغ أطلِقَ عليه ذلك تفاؤلا بالسلامة.

والأصل فى ذلك أن يضع واضع اللغة اسما أول لمسمًّى أول، ثم يجد مسمى آخر أو مسميات شبيهة بالمسمى الأول، فيضع لها اسما كالاسم الأول، كقوله ضَرير اسم للأعمى، والضر ضد النفع، والضَّرّاء الشدة من الأمر، والضرّ بالضم الهزال وسوء الحال، والضرر الضِّيقُ والضَّرَّة إحدى الزوجتين، فإن هذه المسميات كلها تدل على الأذى والشرّ، وأسماؤها متشابهة لم تخرج عن الضاد والراء، إلا أنا الآن لانعلم ماهو الأوّل منها حتى نحكم على الثانى أنه مشتق منه، لكن نعلم فى السليم اللديغ أنه مشتق من السلامة، لأنه

خدّها ، قيل من أجل التفاؤل بالسلامة ، وعلى هـذا جاء غيره من الأصول ، كقولنا هشَمكَ هاشم ، وحاربك محارب ، وسالمك سالم ، وأصاب الأرضَ صَيِّب ، فهذه الألفاظ كلها لفظها واحد ومعناها واحد ، أما هاشم فإنه لم يسم بهذا الاسم إلا لأنه هَشَم الثريد فى عام مَحْلٍ فسمى بذلك ، وأما محارب فإنه اسم فاعل من حارب فهو محارب ، وأما سالم فمن السلام وهو اسم فاعل من سلم ، وأما الصَّيِّب فهو المطر الذى يشتد صَوْبه أى وقْعُه على الأرض .

ولايقاس على ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم «أَسْلَمُ سَالَمهـا الله ، وغِفَار غَفَر الله لها ، وعُصَيَّةُ عَصَتْ الله » فإن أسلم وغفار وعصية أسماء قبائل ، ولم تُسَمَّ أسلم من المسالمة، ولا غفار من المغفرة ،ولا عصية من تصغير عصا . وهذاهو التجنيس ، وليس بالاشتقاق ، والنظر فى مثل ذلك يحتاج إلى فكرة وتدبر ، كى لا يختلط التجنيس بالاشتقاق .

ومما جاء من ذلك شعرا قول البحترى :

أَتحيَّتىَ سَلمَى بكاظمةَ اسْلَما[١]

وكذلك قول الآخر :

ومازال مَعْقولا عِقَالٌ من النَّدَى ومازال محبوسا عن الخير حابس[٢]

وربما ظُنَّ أن هذا البيت وما يجرى مجراه تجنيس ، حيث قيل فيه معقول وعقال ومحبوس وحابس ، وليس الأمر كذلك .

وهذا الموضوع يقع فيه الاشتباه كثيرا على من لم يتقن معرفته . وقدتقدم القول

---

(١) مطلع قصيدته فى مدح أحمد وابراهيم ابنى المدبر . وعجزه : (وتعلما أن الهوى ماهجتما) الديوان ٢٣٩/٢ .

(٢) جرير فى هجاء الفرزدق . والبيت فى الديوان (٣٢٦) هكذا .
فما زال معقولا عقال عن العلا ومازال محبوساعن المجدحابس

أن حقيقة التجنيس هي اتفاق اللفظ واختلاف المعنى ، وعقال ومعقول وحابس ومحبوس اللفظ فيها واحد والمعنى أيضا واحد ، فهذا مشتق من هذا ،أي قد شق منه .

وكذلك ورد قول عنترة :

لقد عَلِمَ القبائلُ أن قومي   لهم حَدٌّ إذا لُبِسَ الحَدِيدُ[1]

فإن حدا وحديدا لفظها واحد ومعناهما واحد .

وأما الاشتقاق الكبير فهو أن تأخذ أصلا من الأصول فتعقد عليه وعلى تراكيبه معنى واحدا يجمع تلك التركيب وما تصرف منها ،وإن تباعد شيء من ذلك عنها رُدَّ بلطف الصنْعة والتأويل إليها ، ولنَضْربْ لذلك مثالا فنقول إن لفظة (ق م ر) من الثلاثي لها ست تراكيب وهي ق ر م ، ق م ر ، ر ق م ، ر م ق ، م ق ر ، م ر ق فهذه التراكيب الستة يجمعها معنى واحد وهو القوة والشدّة ، فالقَرَم شدة شهوة اللحم ، وقَمَرَ الرجلُ إذا غلب من يقامره والرَّقم الداهية وهي الشدّة التي تلحق الإنسان من دهره ، وعيش مُرَمَّق أي ضيق ، وذلك نوع من الشدّة أيضا ، والمَقْرُ شبه الصبر يقال أمْقر الشيء أمرّ ، وفي ذلك شدة على الذائق وكراهة ، ومَرَق السهم إذا نفذ من الرمية ، وذلك لشدة مضائه وقوته . واعلم أنه إذا سقط من تراكيب الكلمة شيء فجائز ذلك في الاشتقاق ، لأن الاشتقاق ليس من شرطه كمالُ تركيبِ الكلمة ، بل من شرطه أن الكلمة كيف تقلبت بها تراكيبها من تقديم حروفها وتأخيرها أدت إلى معنى واحد يجمعها .

فمثال ما سقط من تركيب الثلاثي لفظة (و س ق) فإن لها خمس تراكيب وهي و س ق ، و ق س ، س و ق ، ق س و ، ق و س ، وسقط من جملة التراكيب

---

(١) في شرح الحماسة للمرزوقي ١/٢٨٨ نسبة البيت إلى حيان بن ربيعة. وروايته هكذا:

لقد علم القبائل أن قومي   ذوو جد إذا لبس الحديد

قسم واحد وهو س ق و ، وجميع الخمسة المذكورة تدل على القوة والشدة أيضا ، فالوَسْق من قولهم استوسق الأمر أى اجتمع وقوى ، والوَقْس ابتداء الجرب ، وفى ذلك شدّة على من يُصيبه وبَلاء ، والسَّوْق متابعة السير ، وفى هـذا عَنَاء وشدّة على السائق والمَسُوق ، والقَسْوة شدّة القلب وغلظه ، والقَوْس معروفة ، وفيها نوع من الشدة والقوّة لنزعها السهم وإخراجه إلى ذلك المرمى المتباعد .

واعلم أنا لا ندّعى أن هذا يطرد فى جميع اللغة ، بل قد جاء شىء منها كذلك ، وهذا مما يدل على شرفها وحكمتها ، لأن الـكلمة الواحدة تنقلب على ضروب من التقاليب ، وهى مع ذلك دالة على معنى واحد ، وهذا من أعجب الأسرار التى توجد فى لغة العرب وأغربها ، فاعرفه .

إلا أن الاستعمال فى النظم والنثر إنما يقع فى الاشتقاق الصغير دون الـكبير ، وسبب ذلك أن الاشتقاق الصغير تـكثر الألفاظ الواردة عليه ، والاشتقاق الـكبير لا يكاد يوجد فى اللغة إلا قليلا ، وأيضا فإن الحُسْنَ اللفظى الذى هو الفصاحة إنما يقع فى الاشتقاق الصغير ولا يقع فى الاشتقاق الـكبير ، ألا ترى إلى هذين الأصلين الواردين هاهنا وهما (ق ر م) و (و س ق) إذا نظرنا إلى تراكيبهما ، وأردنا أن نَسْبُكَهما فى الاستعمال لم يأتِ منهما مِثْلُ ما يأتى فى الاشتقاق الصغير حُسْنا ورَوْنقا ، لأن ذاك لفظه لفظ تجنيس ، ومعناه معنى اشتقاق ، والاشتقاقُ الـكبيرُ ليس كذلك .

النوع السابع والعشرون

في التضمين

هذا النوع فيه نظر بين حَسَنٍ يكتسب به الكلام طلاوة ، وبين مَعِيبٍ عند قوم ، وهو عندهم معدود من عيوب الشعر ، ولكل من هذين القسمين مقام.

التضمين الحسن

فأما الحسن الذي يكتسب به الكلام طلاوة فهو أن يُضَمَّن الآيات والأخبار النبوية ، وذلك يَرِدُ على وجهين: أحدهما تضمين كلىّ ، والآخر تضمين جزئى .

فأما التضمين الكلى فهو أن تُذْكر الآيةُ والخبر بجملتهما ، وأما التضمين الجزئى فهو أن تُدْرج بعض الآية والخبر فى ضمن كلام ، فيكون جزءا منه ، كالذى أوردتُه فى حلّ الآيات والأخبار فى الفصل العاشر من مقدمة الكتاب .

وقد قيل إنه لا يجوز دَرْج آيات القرآن الكريم فى غضون الكلام من غير تبيين ، كى لا يشتبه ، وهذا القول لا أقول به ، فإن القرآن الكريم أبين من أن يحتاج إلى بيان ، وكيف يَخْفَى وهو للمعجز الّذى لو اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثله لايأتون بمثله ، فإن كانت المفاوضة فى التفرقة بينه وبين غيره من الكلام إذا أُدْرج فيه مع جاهل لايعرف الفرق فذاك لا كلامَ معه ، وإن كان الكلامُ مع عالم بذلك فذاك لايَخْفَى عنه القرآن الكريم من غيره. ومذهبى فى هذا هو ماتقدم ذكره فى الفصل العاشر من مقدمة الكتاب ، وهو أحسن الوجهين عندى ، وذاك أنه لا تؤخذ الآية بكمالها ، بلَ يؤخذ جزء منها ويجعل أولاً لكلام أو آخرا ، هذا إذا لم يُقْصَدْ به التضمين ، فأما إذا

قَصِدَ التضمين فتُؤخذُ الآيةُ بكاملها ، وتُدرج دَرْجا ، وهذا ينكره من لم يذق ماذقته من طعم البلاغة ، ولا رأى مارأيته .

التضمين المعيب

وأما المعيب عند قوم فهو تضمين الإسناد ، وذلك يقع فى بيتين من الشعر أو فصلين من الكلام المنثور ، على أن يكون الأول منهما مُسْنَدا إلى الثانى ، فلايقوم الأول بنفسه ، ولايتم معناه إلابالثانى ، وهذا هو المعدود من عيوب الشعر .

وهو عندى غير معيب ، لأنه إن كان سبب عيبه أن يُعَلَّق البيتُ الأول على الثانى فليس ذلك بسبب يوجب عيبا ، إذ لا فرق بين البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما بالآخر وبين الفقرتين من الكلام المنثور فى تَعلّقُ إحداهما بالأخرى ، لأن الشعر هو كل لفظ مَوْزون مُقفّى دَلّ على معنى ، والكلام المسجوع هو كل لفظ مقفى دل على معنى ، فالفرق بينهما يقع فى الوزن لا غير .

والفِقَرُ المسجوعة التى يرتبط بعضها ببعض قد وردت فى القرآن الكريم فى مواضع منه ، فمن ذلك قوله عز وجل فى سورة الصافات « فأقبلَ بعضُهم على بَعْضٍ يتساءلون ، قال قائلٌ منهم إنى كان لى قَرِينٌ يَقول أئنَّك لمن المصَدّقين ، أئذامِتنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لَمَدِينُون[1] » .

فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبط بعضها ببعض ، فلا تفهم كل واحدة منهن إلا بالتى تليها ، وهذا كالأبيات الشعرية فى ارتباط بعضها ببعض ، ولو كان عيبا لما ورد فى كتاب الله عز وجل .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة الصافات أيضا « فإنكم وما تَعْبُدون ما أنتم عليه بفَاتِنين إلا من هو صَالِ الجحيم[2] » فالآيتان الأوليان لاتفهم إحداهما إلا بالأخرى .

---

(١) سورة الصافات ٥١ — ٥٣

(٢) سورة الصافات ١٦١ — ١٦٣

وهكذا ورد قوله عز وجل فى سورة الشعراء: « أفرأيت إن متّعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يُوعَدون ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتّعون(١) » فهذه ثلاث آيات لا تفهم الأولى ولا الثانية إلا بالثالثة ، ألا ترى أن الأولى والثانية فى معرض استفهام يفتقر إلى جواب ، والجواب هو فى الثالثة ؟ .

ومما ورد من ذلك شعرا قول بعضهم :

ومن البَلْوَى التى ليـ ... س لها فى الناس كُنْهُ
أن من يعرف شيئاً ... يدّعى أكثر منه

ألا ترى أن البيت الأول لم يقم بنفسه ولا يتم معناه إلا بالبيت الثانى ؟

وقد استعملته العرب كثيراً ، وورد فى شعر فحول شعرائهم ، فمن ذلك قول امرىء القيس :

فقلتُ له لمـــا تمطّى بصُلْبه ... وأَرْدَفَ أعجازا وناء بكَلْكلِ
ألا أيها الليلُ الطويل ألا انجلى ... بصُبْحٍ وما الإصباحُ منك بأمْثلِ(٢)

وكذلك ورد قول الفرزدق :

وما أحـــد من الأقوام عَدّوا ... عُروقَ الأكرمين إلى التُّرابِ
بمحتفِظين إن فضّلتمونا ... عليهم فى القديم ولا غِضابِ(٣)

---

(١) سورة الشعراء ١٠٥ — ١٠٧

(٢) من معلقته ، فى وصف الليل (الديوان ١٨) وقبل البيتين :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلى

(٣) من فخر الفرزدق لما اجتمع هو وجرير وكثير وابن الرقاع عند سليمان بن عبدالملك وقال لهم : أنشدونا من فخركم شيئا حسنا ، فبدرهم الفرزدق فقال :

ولو رفع السحاب إليه قوما ... علونا فى السماء إلى السحاب

(الأغانى ١٩/٢٣ والديوان ٣٦/١

وكذلك ورد قول بعض شعراء الحماسة :

لَعَمْرِى لَرَهْطُ المرء خيرٌ بَقِيَّةً   عليه وإن عَالَوْا به كُلَّ مَرْكَبِ
من الجانب الأقصى وإن كان ذا غِنًى   جزيلٍ ولم يُخْبِرْكَ مِثْلُ مجرِّبِ[1]

الضرب الثانى من التضمين ، وهو أن يضمن الشاعر شعره والناثر نثره كلاما آخر لغيره ، قصدا للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود ، ولو لم يذكر ذلك التضمين لكان المعنى تاما .

وربما ضمن الشاعر البيت من شعره بنصف بيت أو أقل منه كما قال جحظة :

قم فاسقِنيها ياغلام وغَنِّنِى   ذهب الذين يُعاشُ فى أكنافهم[2]

ألا ترى أنه لو لم يقل فى هذا البيت ذهب الذين يعاش فى أكنافهم لكان المعنى تاماً لايحتاج إلى شىء آخر ، فإن قوله قم فاسقنيها ياغلام وغنى فيه كفاية ، إذ لا حاجة له إلى تعيين الغناء ، لأن فى ذلك زيادة على المعنى المفهوم لاعلى الغرض المقصود .

وقد ورد هذا فى عدّة مواضع من شعر أبى نواس فى الخمريات ، كقوله فى مخاطبة بعض خلطائه على مجلس الشراب :

فقلتُ هل لك فى الصَّهباء تأخُذُها   من كفِّ ذات هَنٍ فالعيشُ مُقْتَبِلُ
حِيرِيَّةٍ كشُعاع الشمس صافيةً   يُحيط بالكأس من لألائها شُعَلُ

= والرواية فى الديوان :

فما أحد من الأقوام عدوا   عروق الأكرمين على انتساب
بمحتفظين إن فضلتمونا   عليهم فى القديم ولا غضاب

محتفظين : غضاب من الحفيظة بمعنى الغضب

(١) شرح المرزوقى للحماسة ١/٣٥٨ والقائل هو خالد بن نضلة كما فى الحيوان ٣/١٠٣ والبيان والتبيين ٣/٢٥٠

(٢) الشطر الثانى صدر بيت للبيد بن ربيعة :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم   وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

فقال هاتِ وأسمِعْنا على طَرَبٍ … «وَدِّعْ هُرَيرةَ إنّ الركْبَ مُرتحِلُ»(١)

وكذلك قوله أيضاً :

وظَبْيٍ خَلُوبِ اللفظ حُلْوٍ كلامُه … مُقَبَّلُهُ سهلٌ وجانبُه وَعْرُ

نَحَلْتُ له منها نَحْرٌ لوَجْهِه … وأمْكَنَ منه ما تحيط به الأُزْرُ

فقمتُ إليه والكَرَى كُحْلُ عَيْنِهِ … فقبّلْتُه والصبُّ ليس له صَبْرُ

إلى أن تجلّى نومُه عن جُفونه … وقال: كَسَبْتَ الذّنبَ قلتُ : لِيَ العُذْرُ

فأعرضَ مُزْوَرًّا كأنّ بوجهه … تَفَقُّؤَ رُمّانٍ وقد بَرَدَ الصَدْرُ

فما زلتُ أرقيه وألثِم خدَّه … إلى أن تغنَّى راضياً وبه سُكْرُ

ألا يا اسْلَمِي يا دارَمَيَّ على البِلَى … ولا زال مُنْهلاً بجَرْعائِكِ القَطْرُ(٢)

وقد استعمل هذا الضربَ كثيرا الخطيبُ عبد الرحمن بن نُباتة رحمه الله ، فمن ذلك قوله في بعض خطبه وهو : « فيا أيها الغفلةُ المطْرِقُون ، أمّا أنتم بهذا الحديث مُصَدِّقون ، فما لكم منه لا تُشفِقون ، فوربِّ السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون(٣) » .

عبد الرحيم بن محمد بن نباتة ٣٧٤ هـ

(١) الديوان ١١٦ كانت بالأصل (ذات حر) و (وتطير بالكاس) و (غنينا على طرب) ذات هن : ذات فرج . مقتبل : نضير . حيرية : منسوبة إلى الحيرة بالعراق . لألائها: بريقها والشطر الأخير من مطلع قصيدة الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل … وهل تطيق وداعا أيها الرجل

(الديوان ٥٥)

(٢) الديوان ١٠١

وفى الديوان (سكت له منها) و (راضياوله الشكر) . نحلت : أعطيت . تفقؤ رمان: رمان منكسر ، يريد حمرة الوجه من الخجل أو الآثار التى فيه من تلك الليلة . البيت الأخير لذى الرمة . الجرعاء : الرملة الطيبة للنبت لا وعوثة فيها أو الكثيب جانب منه رمل وجانب حجارة

(٣) (فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) سورة الذاريات ٢٣

وكذلك قوله فى ذكر يوم القيامة وهو: « فيومئذ تغدو الخلائق على الله بُهْماً، فيحاسبهم على ما أحاط به علما، وينفذ فى كل عامل بعمله حُكما، وعَنَت الوُجوهُ للحىّ القيوم وقد خاب من حَمَلَ ظلما(١) ».

ألا ترى إلى براعة هذا التضمين الذى كأنه قد رُصع فى هذا الوضع رَصْعا؟

وعلى نحو من ذلك جاء قوله فى ذكر يوم القيامة وهو: « هنالك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتاباً، وتكون الأعمال المشوبة بالنفاق سَرابا، يوم يقوم الروح والملائكة صفا، لا يتكلمون إلا من أذِنَ له الرحمن وقال صوابا(٢) »

ومما ينتظم بهذا السلك قوله فى خطبة أخرى وهو: « أسكنهم الله الذى أنطقهم، وأبادهم الذى خلقهم، وسيُجِدُّهم كما أخلقهم، ويجمعهم كما فرّقهم، يعيدُ الله العالمين خلقا جديدا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، ويوم تكونون شُهداء على الناس ويكونُ الرسول عليكم شهيداً، يوم تجد كلُّ نفس ما عملت من خير مُحْضَرا، وما عَمِلَتْ من سُوء تود لو أن بينها وبينه أمَدًا بعيدا(٣) ».

ومن هذا الباب قوله أيضا: « هنالك يُرْفعُ الحجاب، ويوضع الكتاب، ويُجْمَعُ مَنْ وَجَبَ له الثواب ومن حُقّ عليه العقاب، فيُضْرَبُ بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَلِهِ العذاب(٤) »

وأمثال هذه التضمينات فى خطبة كثيرة، وهى من محاسن ما يجىء فى هذا النوع.

---

(١) (وعنت الوجوه .. ظلما) سورة طه ١١١ بهم : ليس بهم شىء مما كان فى الدنيا نحو البرص والعرج، أو عراة (القاموس المحيط مادة بهم)

(٢) (إلا من أذن... صوابا) سورة النبأ ٣٨

(٣) (يكون الرسول عليكم شهيدا) سورة البقرة ١٤٣ (يوم تجد كل نفس ... أمداً بعيدا) سورة آل عمران ٣٠

(٤) « بسور ... العذاب » سورة الحديد ١٣

النوع الثامن والعشرون

الإرصاد

وحقيقته أن يبنى الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له ، أى أعدّها فى نفسه ، فإذا أنشد صَدْرَ البيت عَرَفَ مايأتى فى قافيته ، وذلك من محمود الصنعة ، فإن خير الكلام مادل بعضه على بعض .

وفى الافتخار بذلك يقول ابن نُباتة السعدى :

خُذْهاإذا أُنشِدَتْ فى القوم من طَربٍ صُدورُها عُرِفَتْ منها قَوافِيها
يَنْمِى لها الراكبُ العَجْلانُ حاجَتَه ويُصْبِح الحاسدُ الغضبانُ يُطْرِيها[(١)]

فمن هذا الباب قول النابغة :

فِداءٌ لامرىء سارَتْ إليه بِعذْرَةِ رَبِّها عَمِّى وخالى
ولو كفى اليمينُ بغتْك خَوْناً لأفْرَدْتُ اليمينَ عن الشِّمال[(٢)]

الا ترى أنه يُعْلَم إذا عرفت القافية فى البيت الأول أن فى البيت الثانى ذكرا الشمال ؟ .

وكذلك جاء قول البحترى :

أحَلَّتْ دمى من غير جُرْمٍ وحرَّمَتْ بلا سبب يَوْمَ اللقاء كلامى
فليس الذى حللته بمحلَّل وليس الذى حرمته بحرام[(٣)]

(١) يتيمة الدهر ٢/٢٧٩ وكان بالأصل يطويها .
(٢) من مدحه للنعمان بن المنذر والاعتذار له
وبالأصل « ولو كفى اليمين نفتك خوفا »
(٣) من قصيدته فى مدح المتوكل ، التى مطلعها .
ألاهل أتاها بالمغيب سلامى وهل خبرت وجدى بها وغرامى
(الديوان ٢/٢٢٢)

فليس يذهب على السامع — وقد عرف البيت الأول وصدر البيت الثانى — أن عجزه هو ما قاله البحترى .

وقد جاء الإرصاد فى الكلام المنثور كما جاء فى الشعر .

فمن ذلك قوله تعالى: « وما كان الناسُ إلاّ أمةً واحدة فاختلَفُوا ، ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ من ربِّك لقُضى بينهم فيما فيه يَخْتلفون[1] » .

فإذا وقف السامع على قوله تعالى (لقضى بينهم فيما فيه) عرف أن بعده يختلفون ، لِما تقدم من الدلالة عليه .

ومن ذلك أيضا قوله عز وجل : « فمنهم من أرسَلْنا عليه حاصِباً ، ومنهم من أخذته الصَّيْحةُ ، ومنهم من خَسَفْنا به الأرض ، ومنهم من أغْرَقْنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»[2] وعلى نحو منه جاء قوله تعالى : « مثَلُ الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمَثَل العنكبوت اتَّخَذَتْ بيتا ، وإن أوْهَنَ البُيوتِ لبَيْتُ العنكبوت[3] » فإذا وقع السامع على قوله عز وجل (وإن أوهن البيوت) يعلم أن بعده بيت العنكبوت .

ورأيت أبا هلال العسكرى قد سَمّى هذا النوع التَّوْشيح[4] ، وليس

(١) سوره يونس ١٩
(٢) سورة العنكبوت ٤٠
(٣) سورة العنكبوت ٤١
(٤) فى كتاب الصناعتين ٣٨٢ « سمى هذا النوع التوشيح، وهذه التسمية غير لازمة بهذا المعنى ، ولو سمى تبيينا لكان أقرب ، وهو أن يكون مبتدأ الكلام ينبئ عن مقطعه ، وأوله يخبر بآخره ، وصدره يشهد بعجزه ، حتى لو سمعت شعرا ، أو عرفت رواية ، ثم سمعت صدر بيت منه وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه ... » ومن هذا يبدو أن ابن الأثير قد وهم فى نسبة تسمية هذا الفن (التوشيح) إلى أبى هلال العسكرى ، والحقيقة أن الذى سماه بذلك قدامه بن جعفر ، لأنه جعل التوشيح من أنواع ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر معنى البيت ، وقال فى تعريفه : هو أن يكون أول البيت شاهدا بقافيته ومعناها متعلقا به ، حتى أن الذى يعرف قافية القصيدة إذا سمع أول البيت منها عرف آخره ، وبانت له قافيته (نقد الشعر)

كذلك ، بل تسميته بالإرصاد أولى ، وذلك حيث ناسب الاسم مُسَمَّاه ولاق به ، وأما التوشيح فإنه نوع آخر من علم البيان ، وسيأتى ذكره بعد هـذا النوع إن شاء الله تعالى .

وأعلم أنه قد اختلف جماعة من أرباب هـذه الصناعة فى تسمية أنواع علم البيان ، حتى إن أحدهم يضع لنوع واحد منه اسمين اعتقادا منه أن ذلك النوع نوعان مختلفان ، وليس الأمر كذلك ، بل هما نوع واحد .

فمن غلط فى ذلك الغانمى[1] ، فإنه ذكر بابا من أبواب علم البيان وسماه التبليغ ، وقال : هو أن يأتى الشاعر بالمعنى فى البيت تاما من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صنع ، ثم يأتى بها لحاجة الشعر إليها ، حتى يتم وزنه ، فيبلغ بذلك الغاية القصوى فى الجودة ، كقول امرىء القيس :

كأن عُيون الوَحْشِ حول خِبائنا ... وأرْحُلنا الجزْعُ الذى لم يُثقَّبِ[2]

فإنه أتى بالتشبيه تاما قبل القافية ، ولما جاء بها بلغ الأمد الأقصى فى المبالغة .

ثم إن الغانمى ذكر بعد هذا الباب بابا آخر وسماه الإشباع ، فقال : هو أن يأتى الشاعر بالبيت مُعَلَّقَ القافية على آخر أجزائه ، ولا يكاد يفعل ذلك إلا حُذَّاق الشعراء ، وذاك أن الشاعر إذا كان بارعا جَلبَ بقدرته وذكائه وفطنته إلى البيت — وقد تمت معانيه واستغنى عن الزيادة فيه — قافية متممة لأعاريضه ووزنه ، فجاءها نعتا للمذكور ، كقول ذى الرُّمة :

---

(١) أبو العلاء بن غانم المعروف بالغانمى كان من فضلاء عصره وشعرائه اللباب ١٦٦/٣)

(٢) الديوان ٥٣ الجزع الذى لم يثقب : شبه عيون الوحش لما فيها من سواد وبياض بجزع غير مثقب لأن ذلك أصفى له وأتم لحسنه .

قِفِ العِيسَ فى أطلال مَيَّةَ فاسألِ   رُسُوماً كأخلاق الرِّداء المُسَلْسَلِ (١)

هذا كلام القاضى بعينه ، والبابان المذكوران سواء ، لا فرق بينهما بحال .

والدليل على ذلك أن بيت امرىء القيس يتم معناه قبل أن يُؤْتَى بقافيته ، وكذلك بيت ذى الرمة ، ألا ترى أن امرأ القيس لما قال: «كأن عيون الوحش حول خبائنا ، وأرحلنا الجزع» أتى بالتشبيه قبل القافية ، ولما احتاج إليها جاء بزيادة حسنة ، وهى قوله لم «يثقب» .

وهكذا ذو الرمة فإنه لما قال :

قف العيس فى أطلال مية فاسأل   رسوما كأخــــلاق الرداء . . .

أتى بالتشبيه أيضاً قبل أن يأتى بالقافية ، ولما احتاج إليها جاء بزيادة حسنة وهى قوله :المسلسل .

واعلم أن أبا هلال العسكرى قد سمى هذين القسمين بعينهما الإيغال (٢) ، وقال هو أن يستوفى الشاعر معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ، ثم يأتى بالمقطع

---

(١) ديوان ذى الرمة ٧٢ العيس : النوق البيض . أخلاق الرداء : الرداء الذى صار خلقا وقطعا

(٢) الصناعتين ٣٨٠ » هو أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ، ثم يأتى بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحا وشرحا وتوكيدا وحسنا . وأصل الكلمة من قولهم وغل فى الأمر إذا أبعد الذهاب فيه .

وقد وهم ابن الأثير هنا أيضا فى نسبة تسمية هذا الفن (الإيغال) إلى أبى هلال العسكرى.

والحقيقة أن هذا الفن من مستخرجات قدامة ، وهو واضع لقبه ، وجعله من أنواع ائتلاف القافية مع سائر معنى البيت ، وروى قدامة أن محمد بن يزيد النحوى قال : حدثنى التوزى قال : قلت للأصمعى : من أشعر الناس ؟ فقال : من يأتى إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرا ، أو إلى الكبير فيجعله خسيسا ، أو ينقضى كلامه قبل القافية ؟ فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى . قال : قلت نحو من ؟ قال : نحو ذو الرمة ، وأورد البيت المذكور هنا . ثم قال : فتم كلامه قبل « المسلسل » ثم قال « المسلسل » فزاد شيئا . ثم قال ذو الرمة

أظن الذى يجدى عليك سؤالها   دموعا كتبديد الجمان المفصل

فتم كلامه ثم احتاج إلى القافية فقال « المفصل » فزاد شيئا

فيزيد فيـــه معنى آخر ، وأصل الإيغال من أوغل فى الأمر إذا أبعد الذهاب فيه ، ثم مثل أبو هلال ذلك بقول ذى الرمة (قف العيس فى أطلال مَيَّة فاسأل) وهذا أقرب أمداً من الغانمى ، لأنه ذكره فى باب واحد ، وسماه باسم واحد ، ولم يذكره فى باب آخر كما فعل الغانمى .

وليس الأخذ على الغانمى فى ذلك مناقشته على الأسماء ، وإنما المناقشة على أن ينتصب لإيراد علم البيان وتفصيل أبوابه ، ويكون أحد الأبواب التى ذكرها داخلا فى الآخر فيذهب عنه ويخفى عليه[1] ، وهو أشهر من فلَق الصباح .

وهاهنا ما هو أغرب من ذاك ، وذلك أنه قد سلك قوم فى منثور الكلام ومنظومه طرقا خارجة عن موضوع علم البيان ، وهى بنَجْوة عنه ، لأنها فى واد وعلم البيان فى واد .

فمن فعل ذلك الحريرى صاحب المقامات ، فإنه ذكر تلك الرسالة[2] التى هى

---

(١) فى الأصل (فيذهب عليه ويخفى عنه) فرجحنا هذا التصويب .

(٢) فى المقامة الحلبية (السادسة والأربعون) عشر مقطعات من الأبيات فى كل مقطعة تلاعب لفظى . فن ذلك الأخياف أى كلمة مهملة وأخرى معجمة مثل قوله :

اسمح فبث السماح زين ... ولا تخب آملا تضيف
ولا تظن الدهور تبقى ... مال ضنين ولو تلشف

ومن ذلك العواطل أى الخالية من الحروف المعجمة ، مثل :

أعدد لحسادك حد السلاح ... وأورد الآمل ورد السماح

ومن ذلك العرائس أى المعجمة كلها مثل :

شغفتنى بجفن ظبى غضيض ... غنج يقتضى تفيض جفنى

الخ الخ

وفى المقاومة السمر قندية (الثامنة والعشرون) خطبة مهملة الحروف مثل قوله :
أحمده حمد موحد مسلم ، وأدعوه دعاء مؤمل مسلم ، وهو الله لا إله إلا هو الواحد الأحد ، العادل الصمد ، لا والد له ولا ولد ، ولا دره معه ولا مساعد ، أرسل محمدا للاسلام ممهدا ، وللملة موطدا

وفى المقامة الرقطاء (السادسة والعشرون) رسالة مكونة من كلمات حرف مهمل وتاليه معجم ، مثل :

أخلاق سيدنا تحب ، وبعقوته يلب ، وقربه تحف ، ونأبه تلف ، وخلته نسب ، وقطيعته نصب ، وغربه ذلق ، وشهبه تألق الخ

كلة معجمة وكلة مهملة ، والرسالة التي حرف من حروف ألفاظها معجم والآخر غير معجم ، ونظم غيره شعراً آخر كل بيت منه أول البيت الذي يليه ، وكل هذا وإن تضمن مشقة من الصناعة فإنه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة ، لأن الفصاحة هي ظهور الألفاظ مع حسنها على ما أشرت إليه في مقدمة كتابي هذا ، وكذلك البلاغة فإنها الانتهاء في محاسن الألفاظ والمعاني ، من قولنا بلغت المكان إذا انتهيت إليه .

وهذا الكلام المصُوغ مما أتى به الحريري في رسالته وأورده ذلك الشاعر في شعره لا يتضمن فصاحة ولا بلاغة ، وإنما يأتي ومعانيه غَثّة باردة ، وسبب ذلك أنها تُسْتَكْرَهُ استكراها ، وتُوضَعُ في غير مواضعها ، وكذلك ألفاظه فإنها تجيء مُسْتَكْرَهَةً أيضاً غير ملائمة لأخواتها ، وعلم البيان إنما هو الفصاحة والبلاغة في الألفاظ والمعاني ، فإذا أخرج عنه شيء من هذه الأوضاع المشار إليها لا يكون معدوداً منه ولا داخلا في بابه .

ولو كان ذلك مما يوصف بحُسْن في ألفاظه ومعانيه لورد في كتاب الله عز وجل وهو معدن الفصاحة والبلاغة ، أو ورد في كلام العرب الفصحاء ، ولم نره في شيء من أشعارهم ولا خطبهم .

ولقد رأيت رجلا أديباً من أهل المغرب وقد تغلغل في شيء عجيب ، وذاك أنه شَجّر شجرة ونظمها شعرا ، وكل بيت من ذلك الشعر يقرأ على ضروب من الأساليب اتباعا لشعب تلك الشجرة وأغصانها ، فتارة تقرأ كذا وتارة يكون جزء منه هاهنا ، وتارة هاهنا ، وتارة يقرأ مقلوباً ، وكل ذلك الشعر وإن كان له معنى إلا أنه ضرب من الهذيان ، والأولى به وبأمثاله أن يُلْحَقَ بالشَّعْبَذة والمعالجة والمصارعة لا بدرجة الفصاحة والبلاغة .

ورأيت أبا محمد بن عبد الله بن سِنان الخفَاجِى قد ذكر بابا من الأبواب فى كتابه[1] فقال : ينبغى ألا تُسْتَعْمَلَ فى الكلام المنظوم والمنثور ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم ، ولا الألفاظ التى تَخْتَصُّ بها بعض المهن والعلوم، لأن الإنسان إذا خاض فى علم وتكلم فى صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة[2] ، ثم مثل ذلك بقول أبى تمام :

مَودَّةٌ ذَهَبٌ أثمارها شَبَهٌ وهِمَّةٌ جَوْهَرٌ معروفها عَرَضُ[3]

وبقوله أيضاً :

خَرْقاء يَلْعَبُ بالعقول حَبابُها كتَلَعُّبِ الأفعال بالأسماء[4]

وهذا الذى أنكره ابن سنان هو عين المعروف فى هذه الصناعة .

إن الذى تكرهون منه هو الذى يشتهيه قلبى

وسأبين فساد ما ذهب إليه فأقول : أما قوله إنه يجب على الإنسان إذا خاض فى علم أو تكلم فى صناعة أن يستعمل ألفاظ أهل العلم وأصحاب تلك الصناعة ،

---

(١) سر الفصاحة ١٥٩

(٢) تكملة كلام الخفاجى : وبهذا شرف كلام أبى عثمان الجاحظ ، وذلك أنه إذا كاتب لم يعدل عن ألفاظ الكتاب ، وإذا صنف فى الكلام لم يخرج عن عبارات المتكلمين ، فكأنه فى كل علم يخوض فيه لايعرف سواه ، ولايحسن غيره (١٥٩)

(٣) من قصيدته فى عتاب عياش بن لهيعة التى مطلعها :

ذل السؤال شجا فى الحلق معترض من دونه شرق من تحته جرض

الديوان ٤٠٠ طبعة محمد جمال .

الجوهر والعرض من اصطلاحات علماء الكلام . الجرض : الغصة .

(٤) الديوان ١/٣٣ من قصيدته فى مدح محمد بن حسان الضبى ، وهذا البيت من خمرياته فيها ، خرقاء : وصف الخمر بالخرق وهو فى الأصل العجز عن إحسان العمل ، يقال للمرأة خرقاء ، أى أن الخمر لاتحسن أن تعمل شيئا لكنها تلعب بالعقول ، وتغيرها من حال إلى حال ، كما تعمل الأفعال بالأسماء ، فترفعها تارة وتنصبها تارة . الحباب : طرائق الماء فيها إذا مزجت

فهذا مسلم إليه ، ولكنه شذ عنه أن صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم وكل صناعة ، لأنها موضوعة على الخوض فى كل معنى ، وهذا لا ضابط له يضبطه ولا حاصر يحصره ، فإذا أخذ مؤلف الشعر أو الكلام المنثور فى صوغ معنى من المعانى وأدّاه ذلك إلى استعمال معنى فقهى أو نحوىّ أو حسابىّ أو غير ذلك فليس له أن يتركه ويحيد عنه ، لأنه من مقتضيات ذلك المعنى الذى قصده .

ألا ترى إلى قول أبى تمام فى الاعتذار :

فإن يَكُ جُرْمٌ عَنّ أوْ تَكُ هَفْوَةٌ ... على خَطأ منى فعُذْرى على عَمْدِ[1]

فإن هذا من أحسن ما يجىء فى باب الاعتذار عن الذنب ، وكان ينبغى له على ماذكره ابن سنان أن يترُك ذلك ولا يَسْتَعْمِلَه حيثُ فيه لفظتا الخطأ والعمد اللتان هما من أخص ألفاظ الفقهاء .

وكذلك قول أبى الطيب المتنبى .

ولقيتُ كلَّ الفاضلين كأنما ... ردَّ الإله نُفُوسَهم والأعْصُرا

نُسِقُوا لنا نَسْقَ الحساب مُقَدَّما ... وأتى فذلك إذ أتيتَ مُؤخَّرا[2]

---

(١) الديوان ٢/١١٧ من مدحه لأبى المغيث الرافقى واعتذاره له

(٢) من قصيدته فى مدح أبى الفضل محمد بن العميد ، التى مطلعها :

باد هودك صبرت أم لم تصبرا ... وبكاك إن لم يجر دمعك أوجرى

وقوله لقيت كل الفاضلين ، معطوف على كلام سابق يتحدث فيه عن تمثل فلاسفة وعلماء وعظماء وكرماء فى شخص ابن العميد. (الديوان ٢/ ٣١٦) نسقوا : سردوا . فذلك : حكاية قول الحاسب إذا أجمل حسابه ، فهى فاعل أتى أى أن هؤلاء الفاضلين تتابعوا متقدمين عليك فى أزمانك ، فلما أتيت بعدهم جمعت ما كان فيهم من فضائل ، فكنت بمثابة إجمال الحساب الذى تذكر تفاصيله أولا ، ثم تجمل فيكتب فى آخرها فذلك كذا وكذا
(الديوان ٢/٣١٦)

وهذا من المعاني البديعة ، وما كان ينبغي لأبي الطيب أن يأتي في مثل هذا الموضع بلفظة فذلك التي هي من ألفاظ الحساب ، بل كان يترك هذا المعنى الشريف الذي لا يتمّ إلا بتلك اللفظة موافقة لابن سنان فيما رآه وذهب إليه ، وهذا محض الخطأ وعين الغلط .

وأما ما أنكره على أبي تمام في قوله :

مَوَدَّةٌ ذَهَبٌ أثمارها شَبَهٌ   وهِمَّةٌ جوهَرٌ معروفها عَرَضُ

فإن هذا البيت ليس منكرا لما استعمل فيه من لفظتي الجوهر والعَرَض اللتين هما من خصائص ألفاظ المتكلمين ، بل لأنه في نفسه ركيك ، لتضمنه لفظة الشَّبَهَ فإنها لفظة عامية ركيكة وهي التي أسخفت بالبيت بجملته ، ورب قليل أفسد كثيرا ، وأما لفظتا الجوهر والعرض فلا عيب فيهما ولا ركاكة عليهما.

وأما البيت الآخر وهو :

خَرقاء يَلعب بالعقول حَبابُها   كتَلَعُّبِ الأفعال بالأسماء .

فليس بمنكر ، وهل يُشَكُّ في أن التشبيه الذي تضمنه واقعٌ في موقعه ؟ ألا ترى أن الفعل ينقل الاسم من حال إلى حال ، وكذلك تفعل الخمر بالعقول في تنقل حالاتها ، فما الذي أنكره ابن سنان من ذلك ؟

وقد جاء لبعض المتأخرين من هذا الأسلوب ما لا يُدَافَعُ في حسنه ، وهو قوله :

عَواملُ رزْق أعْرَبتْ لغةَ الردَى   فجِسْمٌ له خَفضٌ ورأس له نصْبُ

فإنه لما حصل له المشابهة في الاسمية بين عوامل الرماح والعوامل النحوية حَسُن موقع ما ذكره من الخفض والنصب ، وعلى ما ذكرا بن سنان فإن ذلك غير جائز ، وهو من مستحسنات المعاني هذا من أعجب الأشياء

وعلى هذا الأسلوب ورد قول بعضهم :

وفتىً من مازنٍ ساق أهل البصره
أمه معرفــــةٌ وأبوه نكِرَه

وهل يشك فى حسن هذا المعنى ولطـافته ؟

وكذلك ورد من هذا النوع فى شعر بعض العراقيين يهجو طبيبا ، فقال :

قال حِمارُ الطبيب تُوما لوأ نصفونى لـكنت أركَبْ
لأننى جاهلٌ بسيط وراكبي جهلهُ مُركَّبْ

وهذا من المعنى الذى أغرب فى الملاحة ، وجمع بين خفة السخرية ووقار الفصاحة .

وقد تقدّم القول فى صدر كتابى هذا أنه يجب على صاحب هذه الصناعة أن يتعلق بكل علم وبكل صناعة ، ويخوض فى كل فن من الفنون ، لأنه مُكَلَّفٌ بأن يخوضَ فى كل معنى ، فاضمُمْ يدك على ما ذكرتُهُ ونصصتُ عليه ، واترك ماسواه ، فليس القائل بعلمه واجتهاده كالقائل بظنه وتقليده .

وهذا النوع إذا استعمل على الوجه المَرْضِىّ كان حَسَنا ، وإذا استعمل بخلاف ذلك كان قبيحا ، كما جاء فى كلام أبى العلاء بن سليمان المعرى وهو قوله فى رسالة كتبها إلى بعض إخوانه « حرَسَ الله سعادته ما أدغمت التاء فى الظاء ، وتلك سعادة بغير انتهاء » وهذا من الغث البارد ، لـكن قد جاء فى الشعر ما هو حسن فائق كقوله :

قدونكم خفْضَ الحياةِ فإننا نصبنا المطايا فى الفلاة على القَطْع(١)

---

(١) شرح التنوير على سقط الزند ٢/١٠٩ نصبنا المطايا : أجهدناها للسير . خفض الحياة : لينها ونعيمها .

والخفض والنصب من الإعراب النحوى ، والخفض رفاهة العيش ، والقطع من منصوبات النحو ، والقطع قطع الشيء يقال قطعته إذا بترته .

النوع التاسع والعشرون

فى التوشيح

وهو أن يبنى الشاعر أبيات قصيدته على بحرين مختلفين ، فإذا وقف من البيت على القافية الأولى كان شعرا مستقيما من بحر على عروض ، وإذا أضاف إلى ذلك ما بنى عليه شعره من القافية الأخرى كان أيضا شعرا مستقيما من بحر آخر على عروض ، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالوشاح، كذلك يجرى الأمر فى الفقرتين من الكلام المنثور، فإن كل فقرة منهما تصاغ من سجعتين ، وهذا لا يكاد يستعمل الا قليلا وليس من الحسن فى شىء ، واستعماله فى الشعر أحسن منه فى الكلام المنثور .

فن ذلك قول بعضهم :

اسلمْ ودُمتَ على الحوادث مارسًا ركنا ثَبِيرٍ أو هِضَابُ حِراء[1]
ونَلِ المرادَ مُمَكّناً منه على رَغْمِ الدهور وفُزْ بطُول بَقاء

وهذا الجيد الذى يأتى فى هذا النوع ، إلا أن أثر التكلف عليه بادظاهر ، وإذا نظر إلى هذين البيتين وُجِداوهما يذكران على قافية أخرى وبحر آخر ، وذاك أن يقال :

---

(١) ثبير : جبل بظاهر مكة . حراء : جبل بمكة به غار تحنث فيه رسول الله .

أسلم ودُمْتَ على الحوادث مارَسًا ركنا ثبير
ونل المراد ممكنـــا منه على رغم الدهور

وقد استعمل ذلك الحريرى فى مقامته نحو قوله :

ياخاطِبَ الدنيا الدَّنِيَّةِ إنهـا شَرَكُ الردى وقَرارةُ الأكدارِ
دار متى ما أضحكَتْ فى يومها أبكَتْ غداً بُعْداً لها مِن دار
وإذا أظَلَّ سحابها لم يَنْتَقِعْ منه صَدًى لجَهامِهِ الغَرار(١)

واعلم أن هذا النوع لا يستعمل إلا متكلفاً عند تعاطى التمكن من صناعة النظم ، وحسنه مَنُوطٌ بما فية من الصناعة لا بما فيه من البراعة .

ألا ترى أنه لو نُظِم عليه قصيد من أوله إلى آخره يتضمن غزلا ومديحًا على ما جرت إعادة القصائد أليس أنه كان يجىء باردا غثا لا يسلم منه على محك النظر عشره ؟ والعشر كثير ، وما كان على هذه الصورة من الكلام فإنما يستعمل أحيانا على الطبع لا على التكلف ، وهو وأمثاله لا يحسن إلا إذا كان يسيرا كالرقم فى الثوب أو الشية فى الجلد .

---

(١) من الممكن أن تقرأ الأبيات هكذا ، وقد وردت على الوجهين فى المقامة الشعرية (الثالثة والعشرون) ١٦٦

يا خاطب الدنيا الدنيـ ـة إنها شرك الردى
دار متى ما أضحكت فى يومها أبكت غدا
وإذا أظل سحابها لم ينتقع منه صدى

لم ينتقع منه صدى : لم يرتو منه عطش

النوع الثلاثون

فى السرقات الشعرية

ولربما أعترض معترض فى هذا الموضوع فقال قد تقدم نثر الشعر فى أول الكتاب ، وهو أخذ الناثر من الناظم ، ولا فرق بينه وبين أخذ الناظم من الناظم ، فلم يكن إلى ذكر السرقات الشعرية إذاً حاجة ، ولو أُنْعِمَ هذا المعترض نظره لظهر له الفرق ، وعلم أن نثر الشعر لم يُتَعَرَّض فيه إلى وجوه المأخذ وكيفية التوصل إلى مداخل السرقات ، وهذا النوع يتضمن ذكر ذلك مفصلا .

واعلم أن الفائدة من هذا النوع أنك تعلم أين تضع يدك فى أخذ المعانى ، إذ لا يستغنى الآخر عن الاستعارة من الأول[1] ، لكن لا ينبغى لك أن تَعجَل فى سبك اللفظ على المعنى المسروق فتنادى على نفسك بالسرقة ، فكثيراً ما رأينا من عَجِل فى ذلك فعثر وتعاطى فيه البديهة فعقر .

والأصل المعتمد عليه فى هذا الباب التورية والاختفاء[2] بحيث يكون ذلك أخفى من سفاد الغراب ، وأطرف من عَنْقاء مُغْرِبٍ فى الإغراب .

---

(١) قال أبو هلال العسكرى : ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم ، والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم ، ويبرزوها فى معارض من تأليفهم . (الصناعتين ١٩٦)

(٢) قال القاضى الجرجانى : فإن الشاعر الحاذق إذا علق المعنى المختلس عدل به عن نوعه وصنفه ، وعن وزنه ونظمه ، وعن رويه وقافيته . فاذا مر بالغبى الغفل وجدهما أجنبيين متباعدين ، وإذا تأملهما الفطن الذكى عرف قرابة ما بينهما ، والوصلة التى تجمعهما (الوساطة ١٩٩)

وقال أبو هلال : والحاذق يخفى دبيبه إلى المعنى يأخذه فى سترة فيحكم له بالسبق إليه أكثر من يمر به (الصناعتين ١٩٨)

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه ليس لقائل أن يقول إنَّ لأحد من المتأخرين معنى مبتدعا، فإن قول الشعر قديم منذ نطق باللغة العربية و إنه لم يَبْقَ معنىً من المعانى إلا وقد طرق مراراً .

وهذا القول و إن دَخَلَ فى حَيِّزِ الإمكان إلا أنه لا يُلْتَفَتُ إليه ، لأن الشعر من الأمور المتناقلة ، والذى تَنَاقَلَتْهُ الأخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يعن لها من الحاجات ، ولم يزل الحال على هذه الصورة إلى عهد امرىء القيس ، وهو قبل الإسلام بمائة سنة زائدا فناقصا ، فقصد القصائد ، وهو أول من قصد ؛ ولو لم يكن له معنى اخْتُصَّ به سوى أنه أول من قصد القصائد لكان فى ذلك كفاية. وأى فضيلة أكبر من هذه الفضيلة ؟ ثم تتابع المقَصِّدون واختير من القصائد تلك السبع التى علقت على البيت ، وانفتح للشعراء هذا الباب فى التقصيد. وكَثُرَتَ المعانى المقولةُ بسَببه ، ولم يزل الأمر ينمى ويزيد، ويؤتى بالمعانى الغريبة واستمر ذلك إلى عهد الدولة العباسية وما بعدها إلى الدولة الحمدانية ، فعظم الشعر وكثرت أساليبه ، وتشعبت طرقه ، وكان ختامه على الثلاثة المتأخرين وهم أبو تمام حبيب بن أوس وأبو عبادة الوليد بين عبَيْد البحترى وأبو الطيب المتنبى .

فإذا قيل إن المعانى المبتدعة سُبق إليها ولم يَبْقَ معنى مبتدع عورض ذلك بما ذكرتُه .

والصحيح أن باب الابتداع للمعانى مفتوح إلى يوم القيامة . ومن الذى يحجر على الخواطر، وهى قاذفة بما لانهاية له ؟ إلا أن من المعانى مايتساوى الشعراء فيه ، ولا يطلق عليه اسم الابتداع لأول قبل آخر ، لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلى تباع الآخر الأوّل ، كقولهم فى الغزل :

عَفَتِ الديارُ وما عَفَتْ آثارُهن من القلوبِ

وكقولهم إن الطيف يجود بما يَبْخَلُ به صاحبه ، وإن الواشى لو علم بمزار

الطيف لساهر ، وكقولهم فى المديح إن عطاءه كالبحر وكالسحاب ، وإنه لا يمنع عطاء اليوم عطاء غد ، وإنه يجود ابتداء من غير مسألة وأشباه ذلك ، وكقولهم فى المراثى إن هذا الرزء أول حادث ، وإنه استوى فيه الأباعد والأقارب ، وإن الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلة ، وإنه بعد هذا الذاهب لا يعدّ للمنية ذنب ، وأشباه ذلك .

وكذلك يجرى الأمر فى غير ما أشرت إليه من معان ظاهرة تتوارد الخواطر عليها من غير كلفة ، وتستوى فى إيرادها ، ومثل ذلك لا يُطلَقُ على الآخر فيه اسم السرقة من الأول ، وإنما يطلق اسم السرقة فى معنى الخصوص كقول أبى تمام :

لاتنكروا ضَرْبِى له مَنْ دُونَه ... مَثَلاً شَرُوداً فى النَّدى والباس

فالله قد ضَرَبَ الأقلَّ لنوره ... مَثَلاً من المِشْكاةِ والنِّبْراسِ

فإن هذا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام ، وكان لابتداعه سبب والحكاية فيه مشهورة ، وهى أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التى مطلعها « ما فى وقوفك ساعةً من باس »[1] انتهى إلى قوله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم ... فى حِلْمِ أحْنَفَ فى ذكاء إياس

فقال الحكيم الكِنْدِى : وأىُّ فَخْرٍ فى تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب ؟ فأطْرَقَ أبو تمام ، ثم أنْشَدَ هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه إياه بعمرو وحاتم وإياس ، وهذا معنى يشهد به الحال أنه ابتدعه ، فمَنْ أتى من بعده بهذا المعنى أو بجزء منه فإنه يكون سارقا له .

---

(١) من قصيدته فى مدح أحمد بن المعتصم (الديوان ٢/٢٤٢)

وكذلك ورد قول أبى الطيب المتنبى فى عضد الدولة وولديه :

وأنتَ الشمسُ تَبْهَرُ كلَّ عَيْنٍ ... فكيف وقد بَدَتْ معها اثنتان

فعاشا عيشةَ القمرينِ يُحْيَا ... بضوئهما ولا يتحاسدان

ولا مَلَكَا سِوَى مُلْكِ الأعادِي ... ولا وَرِثَا سِوَى من تَقْتُلان

وكان ابنَا عدوٍّ كاثراه ... له ياءَىْ حُروفِ أُنَيْسِيَان[1]

وهذا معنى لأبى الطيب ، وهو الذى ابتدعه أى أن زيادة أولاد عدوك كزيادة التصغير ، فإنها زيادة نقص .

وما ينبغى أن يقال إن ابن الرومى ابتدع هذا المعنى الذى هو :

تُشْكِي المحِبَّ وتُلْفَى الدهرَ شاكيةً[2]

كالقوسِ تُصْمِى الرَّمايا وهْى مِرْنَانُ

فإن علماء البيان يزعمون أن هذا المعنى مبتدَع لابن الرومى ، وليس كذلك ولكنه مأخوذ من المثل المضروب ، وهو قولهم (يَلْدَغُ ويَصِى)[3] . ويضرب ذلك لمن يبتدىء بالأذى ثم يشكو ، وإنما ابن الرومى قد ابتدع معانى

---

(١) الديوان ٤/٤٨٦ من قصيدته التى مطلعها :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى ... بمنزلة الربيع من الزمان

(٢) اشكى المحب : تزيده أذى وتفعل به مايوجب شكواه : تصمى الرمايا : تصيب الصيد فتقتله مكانه . وفى الأصل (يشكى ويلفى) ، لكن قبل البيت قوله :

يارب حسانة منهن قد فعلت ... سوءا وقد تفعل الأسواء حسان

وهذا يعين تأنيث الفعلين .

(٣) يصى : يصىء ، من صاءت العقرب تصىء إذا صاحت ، ومنه حديث على رضى الله عنه « أنت مثل العقرب تلدغ وتصىء » أى تلدغ وهى صائحة . تاج العروس مادة صأى

آخر غير ما ذكرته ، وليس الغرض أن يؤتى على جميع ما جاء به هو ولا غيره من المعانى المبتدعة ، بل الغرض أن يبيّن المعنى المبتدع من غيره . والذى عندى فى السرقات أنه متى أورد الآخر شيئاً من ألفاظ الأول فى معنى من المعانى ولو لفظة واحدة فإن ذلك من أدل الدليل على سرقته .

واعلم أن علماء البيان قد تكلموا فى السرقات الشعرية فأكثروا ،[١] وكنت ألفت فيها كتاباً ، وقسمته ثلاثة أقسام : نسْخاً وسَلْخاً ومَسْخاً .

أما النسخ فهو أخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة عليه ، مأخوذاً ذلك من نَسْخ الكتاب .

وأما السَّلخ فهو أخذ بعض المعنى ، مأخوذاً ذلك من سَلْخ الجلد الذى هو بعض الجسم المسلوخ.

وأما المسخ فهو إحالة المعنى إلى مادونه ، مأخوذا ذلك من مَسْخ الآدميين قردة

وها هنا قسمان آخران أغْفَلْتَ بذكرها فى الكتاب الذى ألفته ، فأحدهما أخذ المعنى مع الزيادة عليه ، والآخر عكس المعنى إلى ضده ، وهذان القسمان ليسا بنسخ ولا سلخ ولا مسخ :

---

(١) من العلماء والنقاد الذين درسوا السرقات القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى مؤلف الوساطة ، فقد قسم المعانى ثلاثة أقسام : المعانى المشتركة التى لا يجوز ادعاء السرقة فيها ، والمعانى المبتذلة التى كانت فى أصلها مخترعة ثم استفاضت وتنوقلت فليس أحد أولى بها من أحد ، والمعانى المختصة التى حازها المبتدىء فملكها ، فصار المعتدى مختلسا سارقا (الوساطة ١٧٩)

وكذلك أبو هلال العسكرى الذى أفاض فى الكلام فى السرقات وضروبها وتكلم فى الأخذ الحسن ووسائله والقبيح وضروبه (الصناعتين ١٩٦)

وكل قسم من هذه الأقسام يتنوع ويتفرع وتخرج به القسمة إلى مسالك دقيقة ، وقد استأنفت ما فاتني من ذلك في هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب .

ومن المعلوم أن السرقات الشعرية لايمكن الوقوف عليها إلا بحفظ الأشعار الكثيرة التي لايحصرها عدد ، فمن رام الأخذ بنواصيها والاشتمال على قواصيها بأن يتصفح الأشعار تصفحا ويقتنع بتأملها ناظرا ، فإنه لايظفر منها إلا بالحواشي والأطراف ،

وكنت سافرت إلى الشام في سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ودخلت مدينة دمشق فوجدت جماعة من أدبائها يَلهجون ببيت من شعر ابن الخَيّاط في قصيدة له أولها :

خذ من صَبا نجد أمانا لقلبه[1] .

ويزعمون أنه من المعاني الغريبة ، وهو .

أغارُ إذا آنَسْتُ في الحيِّ أنَّةً حِذارا عليه أن تكون لحُبِّه

(١) تكملة البيت : « فقد كاد رياها يطير بلبه »

وهو مطلع قصيدة لطيفة منها :

وإياكما ذاك النسيم فإنه	متى هب كان الوجد أيسر خطبه
خليلي لو أحببتما لعلمتما	محل الهوى من مغرم القلب صبه
تذكر والذكرى تشوق وذو الهوى	يتوق ، ومن يعلق به الحب يصبه
غرام على يأس الهوى ورجائه	وشوق على بعد المزاد وقربه
وفي الركب مطوى الضلوع على جوى	متى يدعه داعي الغرام يلبه
إذا خطرت من جانب الرمل نفحة	تضمن منها داؤه دون صحبه
ومحتجب بين الأسنة معرض	وفي القلب من إعراضه مثل حجبه
أغار إذا آنست في الحي أنه	حذارا وخوفا أن تكون لحبه

والأبيات لأحمد بن محمد بن علي بن صدقة التغلبي المعروف بابن الخياط الشاعر الدمشقي الكاتب المتوفى سنة ٤٩٧ هـ (الكامل لابن الأثير ١٢/١٩٣)

فقلت لهم : هذا البيت مأخوذ من شعر أبي الطيب المتنبي في قوله :

لو قُلْتَ للدنف المشوق فديتُهُ   مما به لأغرْتَه بفدائِهِ[1]

وقولُ أبي الطيب أدقُّ معنًى ، وإن كان قولُ ابن الخياط أرقّ لفظاً .
ثم إني وَقَفْتُهُمْ على مواضعَ كثيرةٍ من شعر ابن الخياط قد أخذها من شعر المتنبي .

وسافرت إلى الديار المصرية في سنة ست وتسعين فوجدت أهلها يُعْجبون ببيتٍ من الشعر يَعْزُونه إلى شاعر من أهل اليمن يقال له عُمارة[2] ، وكان حديث عهد بزماننا هذا في آخر الدولة العلوية بمصر ، وذلك البيت من جملة قصيدة له يمدح بها بعض خلفائها عند قدومه عليه من اليمن وهو :

فهل دَرَى البيتُ أني بعد فُرْقته   ما سِرْتُ من حَرَم إلا إلى حَرَمِ[3]

فقلت لهم : هذا البيت مأخوذ من شعر أبي تمام في قوله مادحا لبعض

---

(١) من قصيدته التي مطلعها :

القلب أعلم ياعذول بدائه   وأحق منك بجفنه وبمائه

الديوان ١ / ١ أي أن القلب أدرى منك أيها اللائم بدائه وما أدركه من ألم الهوى ، فهو يلتمس شفاءه في البكاء ويامر الجفن به .

الدنف : المريض من العشق . أغرته : بعثته على الغيرة . بفدائه : بفدائك إياه .

(٢) عمارة اليمني : شاعر سياسي كبير ولد سنة ٥١٥ هـ باليمن ، ثم رحل إلى مصر سنة ٥٥٠ هـ في عهد الخليفة الفائز ووزيره يومئذ طلائع بن رزيك ، ونال من الكرم ما ألهج لسانه بالشكر .

ولما سقطت الدولة الفاطمية حزن عليها حزنا شديدا ، لكنه اضطر إلى مدح صلاح الدين الأيوبي . ثم اتهم بالاشتراك في مؤامرة لخلع صلاح الدين ، فصلب فيمن صلبوا سنة ٥٦٩ هـ

(٣) من قصيدته في مدح الخليفة الفائز بن الظافر ووزيره الصالح ، التي مطلعها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم   حمدا يقوم بما أولت من النعم

(ديوان عمارة اليمني)

الخلفاء فى حَجَّة حَجَّها ، وذلك بيت من جملة أبيات خمسة :

يا من رأى حَرَماً يَسْرِى إلى حَرَم ... طُوبَى لمُستَلِم يَأْتِى ومُلْتَزِم(١)

ثم قلت فى نفسى ياللّه العجب ! ليس أبو تمام وأبو الطيب من الشعراء الذين دَرَسَتْ أشعارهم ، ولاهما ممن لم يُعرف ولا اشتهر أمره ، بل هما كما يقال أشهر من الشمس والقمر ، وشعرهما دائر فى أيدى الناس ، بخلاف غيرهما ، فكيف خَفِىَ على أهل مصر ودمشق بيتا ابن الخياط وعمارة المأخوذان من شعرهما ؟ وعلمت حينئذ أن سبب ذلك عدم الحفظ للأشعار والاقتناع بالنظر فى دواوينها .

ولما نصبت نفسى للخوض فى علم البيان ورمت أن أكون معدوداً من علمائه ، علمت أن هذه الدرجة لاتنال إلا بنقل ما فى الكتب إلى الصدور ، والاكتفاء بالمحفوظ عن المسطور .

ليس بعِلْمٍ ما حوَى القِمطْرُ ... ما العِلْمُ إلا ماحوَاه الصّدرُ

ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفذت شطرا من العمر فى المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحرا لا يُوقَفُ على ساحله ، وكيف يُنْتَهَى إلى إحصاء قَوْلٍ لم تُحصَ أسماء قائله ؟ فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده ، ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم فى اتباع من قَصَرَ نظره على الشعر القديم ، إذ المرادُ من الشعر إنما هو إيداعُ المعنى الشريف فى اللفظ الجزل واللطيف ، فمتى وُجِدَ ذلك فكلُّ مكان خَيَّمْتَ فهو بابل .

---

(١) ليس البيت بديوانه

وقد اكتفيت فى هذا بشعر أبى تمام حبيب بن أوس وأبى عبادة الوليد (البحترى) وأبى الطيب المتنبى ، وهؤلاء الثلاثة هم لاَتُ الشعر وعُزّاه وَمَنَاتُه(١) ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته ، وقد حَوَتْ أشعارهم غَرابة المحدَثين .

---

(١) يريد أنهم آلة الشعر .

اللات : صنم كان لأهل الطائف وكانت قريش وسائر العرب تعظمه ، وهو صخرة مربعة . وسموا به فقالوا : زيد اللات وتيم اللات (الأصنام لابن الكلبى ١٦) وقيل إنه بيت كان بنخلة فعبدته قريش (تفسير الطبرى ٢٧/٣٥) ويرى بروكلمان أن اللات هى الإلهة التى كانت تعرف فى الطائف بالربة أى السيدة ، وهى تقابل الأم الكبرى للالهة عشتر عند الساميين الشماليين (العرب والامبراطورية العربية ٢٧) وذكر الطبرى أن اللات مشتقة من الله ، ألحقت به التاء فأنث ، كما قيل عمرو للمذكر وللأنثى عمرة (تفسير الطبرى ٢٧/ ٣٤)

وظلت اللات إلى فجر الإسلام إذ بعث النبي أباسفيان والمغيرة بن شعبة لهدمها بالطائف (دحلان ٢/٣٧٩) بعد أن أسلمت ثقيف ، وعلاها المغيرة يضرب بالمعول ، وخرجت نساء ثقيف حسرا يبكين عليها ويتهمن بالجبن رجالهن لأنهم لم يدافعوا عنها (ابن هشام ٤/١٩٨)

العزى :

كانت العزى أعظم الأصنام عندهم . وكانت بواد من نخلة الشامية يقال له حراض ، فبنى عليها بيت ؛ وكانوا يسمعون فيه الصوت . وسموا بها فقالوا عبد العزى . وكانوا يزورونها ويهدون إليها ويتقربون بالذبح عندها (الأصنام ١٨) ويختلف المؤرخون فى عبادها ، فابن هشام يذكر أنهم قريش وبنو كنانة (السيرة ٤/٨٧) وغيره يذكر أنهم غطفان . وهى شجرة سمرة بعث إليها النبي خالد بن الوليد فقطعها . وزعموا أنها خرجت منها شيطانة مكشوفة الرأس ناشرة الشعر ، تضرب رأسها وتولول فضربها خالد بالسيف فقتلها وهو يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك … إنى رأيت الله قد أهانك

فلما رجع إلى النبي أخبره بما فعل ، فقال : تلك العزى ولن تعبد أبدا (أخبار مكة للازرقى ١/٧٤ والنيسابورى على هامش الطبرى ٢٧/٤١ والزينى دحلان على هامش السيرة الحلبية ٢/٣٤٠) . وتسمية العزى مشتقة من اسم الله تعالى العزيز أو هو مؤنث الأعز كما ذهب النيسابورى (الطبرى ٢٧/٣٤ والنيسابورى على هامشه)

مناة :

أقدم أصنامهم ؛ كانت تعظمه الأوس والخزرج ومن ينزل يثرب ومكة وماحولها ، ويذبحون له ويهلون ، وسموا به فقالوا عبد مناة وزيد مناة (الأصنام ١٣) . وهى صخرة سميت بذلك لأن دماء القرابين كانت تمنى عندها أى تراق وظلت قائمة إلى أن بعث النبي سعد بن زيد أو أبا سفيان بن حرب أو على بن أبى طالب فهدمها (الزينى دحلان ٢/٣٤٢)

ويرى بروكلمان أنها إلهة القضاء والقدر ، وكانت معروفة فى مكة ، ثم شاعت عبادتها على الخصوص بين قبائل هذيل البدوية المجاورة (العرب والإمبراطورية العربية ٧٧)

إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء .

أما أبو تمام فإنه رَبُّ معانٍ ، وصَيْقَلُ ألبابٍ وأذهان ، وقد شُهِد له بكل معنى مبتكر لم يَمْشِ فيه على أَثَر ، فهو غير مُدَافَعٍ عن مقام الإغراب الذى بَرّز فيه على الأضراب .

ولقد مارستُ من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير ، فمن حفظ شعر الرجل وكشَفَ عن غامضه ، وراض فِكْرَه برائضه ، أطاعته أعِنَّةُ الكلام ، وكان قوله فى البلاغة ما قالت حَذام ، فخذنى فى ذلك قول حكيم ، وتعلم ففوق كل ذى علم عليم .

وأما أبو عبادة البحترى فإنه أحسَنَ فى سَبْك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يَشْعُرَ فغَنّى ، ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الإطلاق ، فبينا يكون فى شظَفِ نَجْدٍ إذ تَشَبَّهت بريف العراق .

وسئل أبو الطيب المتنبى عنه وعن أبى تمام وعن نفسه فقال : أنا وأبو تمام حكيمان ، والشاعر البحترى . ولعمرى إنه أنصف فى حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المَقْدُودِ من الصخرة الصمّاء ، فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بُعْدَ المرام مع قربه إلى الأفهام . وما أقول إلا أنه أتى فى معانيه بأخلاط الغَالِية[1] ، ورَقِىَ فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية .

وأما أبو الطيب المتنبى فإنه أراد أن يسلك مسلك أبى تمام فقَصُرَتْ عنه خُطاه ، ولم يُعْطِه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظى فى شعره بالحِكَم

---

(١) الطيب .

والأمثال ، واختصّ بالإبداع فى وصف مواقف القتال .

وأنا أقول قولا لست فيه مُتأثّما ولا منه متلثّما ، وذاك أنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نِصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا ، فطريقه فى ذلك تضِلُّ بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه . ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة ابن حمدان فيصف لسانه ما أدى إليه عِيانه . ومع هذا فإنى رأيت الناس عادلين فيه عن سَنَن التوسط ، فإما مُفرِّطٌ فى وصفه وإما مُفْرِطٌ .

وهو وأن انفرد بطريق صار أبا عُذرِه ، فإن سعادة الرجل كانت أكبر من شعره ، وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء ، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الإطراء .

ولقد صدق فى قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تطلبَنَّ كريماً بعد رؤيته   إن الكرام بأسخاهم يَدًا خُتِمُوا
ولا تُبالِ بشعرٍ بعد شاعِرِه   قد أُفسِدَ القولُ حتى أُحمِدَ الصَّمَمُ[1]

ولما تأملت شعره بعين المَعْدَلَة البعيدة عن الهوى ، وعين المعرفة التى ما ضل صاحبها وما غَوَى ، وجدته أقساما خمسة : خُمسٌ فى الغاية التى انفرد بها دون غيره ، وخُمسٌ من الشعر الذى يساويه فيه غيره ، وخُمسٌ من متوسط الشعر ، وخُمسٌ دون ذلك ، وخُمسٌ فى الغاية المتقهقرة التى لا يُعبأ بها ، وعدمها خير من وجودها ،

---

(١) من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم   ماذا يزيدك فى إقدامك القسم

لما بلغه أن البطريق أقسم عند ملكه أن يهزم سيف الدولة ، فلما حاربه سيف الدولة هزمه (الديوان ٤/١٦٧) . شاعره : يريد نفسه .

ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها فإنها هي التي ألبسته لباس المَلاَم ، وجعلت عِرْضه شارةً لسهام الأقوام . ولسائل ها هنا أن يسأل ويقول : لم عَدَلْتَ إلى شعر هؤلاء الثلاثة دون غيرهم ؟ .

فأقول : إني لم أعدِلْ إليهم اتفاقاً ، وإنما عَدَلْتُ إليهم نظرا واجتهادا ، وذلك أني وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها ، حتى لم أترك ديوانا لشاعر مُفْلِق يَثْبُتُ شعره على المَحَكّ إلا وعرضته على نظرى ، فلم أجد أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة ، ولا أكثر استخراجا منهما للطيف الأغراض والمقاصد ، ولم أجد أحسن تهذيباً للألفاظ من أبي عُبادة ، ولا أنْقَش ديباجة ولا أبهج سَبْكا ، فاخترت حينئذ دواوينهم ، لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعاني والألفاظ . ولما حفظتها ألغَيْتُ ما سواها مع ما بقي على خاطرى من غيرها .

وقد أوردت في هذا الموضوع من السرقات الشعرية ما لم يورده غيرى ، ونبهت على غوامض منها ، وكنت قدمت القول أني قسمتها إلى خمسة أقسام ، منها الثلاثة الأُوَل ، وهي النسخ والسلخ والمسخ ، ومنها القسمان الآخران ، وها أنا أبين ما تنقسم إليه هذه الأقسام من تشعبها وتفريعها فأقول :

(النسخ)

أما النسخ فإنه لا يكون إلا فى أخذ المعنى واللفظ جميعاً ، أو فى أخذ المعنى وأكثر اللفظ ، لأنه مأخوذ من نسخ الكتاب ، وعلى ذلك فإنه ضربان :

الأول :

يسمى وقوع الحافر على الحافر[1] ، كقول امرئ القيس :

وُقوفاً بها صَحْبِي علىّ مَطِيَّهُمْ يقولون لا تَهْلِكْ أسًى وتَجَمَّلِ[2]

وكقول طرفة :

وقوفاً بها صحبي علىّ مطيّهم يقولون لا تَهْلِكْ أسًى وتَجَلَّدِ[3]

وقد أكثر الفرزدق وجرير من هذا فى شعرهما ، فمنه ماوردا فيه مورد امرىء القيس وطرفة فى تخالفهما فى لفظة واحدة كقول الفرزدق :

أتعدل أحسابا لِئاماً حُماتُها بأحسابنا إنى إلى الله راجعُ[4]

وكقول جرير :

أتعدل أحسابا كِراما حُماتها بأحسابكم إنى إلى الله راجع[5]

---

(١) ذكر أبو هلال البيتين الآتيين وغيرهما ، على أنه مما أخذ بلفظه ومعناه ، وادعى آخذه أو ادعى له أنه لم يأخذه ، ولكن وقع له كما وقع للأول ، ثم علق على ذلك بأنه معيب وإن ادعى الآخر أنه لم يسمع قول الأول ، بل وقع لهذا كما وقع لذاك ، فإن صحة ذلك لا يعلمها إلا الله عز وجل ، والعيب لازم للآخر (الصناعتين ٢٢٩) .

(٢) من معلقته — الديوان ٩

(٣) من معلقته . جمهرة أشعار العرب ١٣٠

(٤) البيت بديوان الفرزدق :

أتعدل أحسابا لئاما أدقة بأحسابنا إنى إلى الله راجع

(الديوان ٢/٥١٩)

(٥) البيت كذلك فى ديوانه ٣٧١

ومنه ما تساويا فيه لفظا بلفظ كقول الفرزدق :

وغر قد نَسقْتُ مُشَهَّراتٍ　　طوالعَ لا تُطيقُ لها جَوابا
بكل ثَنِيَّةٍ وبكل ثَغْرٍ　　غرائبُهن تَنْتسِبُ انْتِسابا
بَلَغْنَ الشمسَ حين تكون شرقا　　ومَسْقَط رأسِها من حيث غَابا[1]

وكذلك قال جرير من غير أن يزيد .

وقد حكى أن امرأة من عقيل يقال لها ليلى كان يتحدث إليها الشباب ، فدخل الفرزدق إليها وجعل يحادثها ، وأقبل فتى من قومها كانت تألفه ، فدخل إليها فأقبلت عليه ، وتركت الفرزدق ، فغاظه ذلك فقال للفتى : أتصارعني ؟ فقال : ذلك إليك ، فقام إليه فلم يلبث أن أخذ الفرزدق فصرعه وجلس على صدره ، فضرط فوثب الفتى عنه ، وقال يا أبا فراس ، هذا مقام العائذ بك والله ما أردتُ ما جُرى فقال : ويحك والله ما بى أنك صرعتنى ، ولكن كأنى بابن الأتان — يعنى جريرا — وقد بلغه خبرى فقال يهجونى :

جلستَ إلى ليلى لتَحْظى بقُرْبها　　فخانك دُبْرٌ لا يزال يَخُون
فلو كنت ذا حزم شددت وِكاءه　　كما شد جِرْبانَ الدِّلاصِ قُيون

قال فوالله مامضى إلا أيام حتى بلغ جريرا الخبر ، فقال فيه هذين البيتين[2] وهذا من أغرب ما يكون فى مثل هذا الموضع وأعجبه .

---

(١) الديوان ١/١٢٣ من هجائه لجرير . والبيت الأول فى الديوان هكذا :
وغر قد نسقت مشهرات　　طوالع لا تطيق لها جوابا
وفيه (غواربهن) . وفى الأصل (وسقت)
(٢) ليس البيتان فى ديوان جرير

ويقال إن الفرزدق وجريرا كانا ينطقان فى بعض الأحوال عن ضمير واحد ، وهذا عندى مستبعد ، فإن ظاهر الأمر يدل على خلافه ، والباطن لا يعلمه الا الله تعالى ، والا فإذا رأينا شاعرا متقدم الزمان قد قال قولا ، ثم سمعناه من شاعر أتى من بعده علمنا بشهادة الحال أنه أخذه منه . وَهَبْ أن الخواطر تتفق فى استخراج المعانى الظاهرة المتداولة ، فكيف تتفق الألسنة أيضا فى صوغها الألفاظ ؟

ومما كنت أستحسنه من شعر أبى نواس قوله من قصيدته التى أولها : (دع عنك لومى فإن اللوم إغراء[1]) .

دارَتْ على فِتْيةٍ ذَلَّ الزمانُ لهم   فما يُصيبهمُ إلا بما شاءوا

وهذا من عالى الشعر ، ثم وقفتُ فى كتاب الأغانى لأبى الفرج على هذا البيت فى أصوات مَعْبَد وهو :

لَهْفِى على فتيةٍ ذلَّ الزمان لهم   فما أصابهم إلا بما شاءو

وما أعلم كيف هذا[2] .

---

(١) ديوان أبى نواس ٦ والبيت بالديوان هكذا :

دارت على فتية دان الزمان لهم   فما يصيبهم إلا بما شاءوا

(٢) رواية الأغانى (٢٤/١) : قال الوليد بن يزيد يوما : لقد اشتقت إلى معبد ، فوجه البريد إلى المدينة ، فأتى بمعبد ، وأمر الوليد ببركة قد هيئت ، فملئت بالخمر والماء ، وأتى بمعبد فأجلس والبركة بينهما ، وبينهما ستر قد أرخى ، فقال له : غنى يامعبد ، فغناه هذه الأبيات

لهفى على فتية ذل الزمان لهم   فما أصابهم إلا بما شاءوا

ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم   حتى تفانوا وريب الدهر عداء

أبكى فراقهم عينى وأرقها   إن التفرق للأحباب بكاء

وفى الأغانى رواية أخرى ١٢٣/٦ تغاير هذه ، ملخصها أن الحسين بن الضحاك قال فى قصيدة له مطلعها :

بدلت من نفحات الورد باللاء   ومن صبوحك دار الإبل والشاة

الضرب الثانى من النسخ :

وهو الذى يؤخذ فيه المعنى وأكثر اللفظ ، كقول بعض المتقدمين يمدح مَعْبَداً صاحب الغناء :

أجاد طُوَيْسٌ والسُّرَيْجِىُّ بعده وما قَصَباتُ السَّبْقِ إلا لِمَعْبَد

ثم قال أبو تمام .

محاسِنُ أصنافِ المغنين جَمَّةٌ وما قَصَباتُ السَّبْقِ إلا لمعبد

وهذه قصيدة أولها :

غَدَتْ تستجيرُ الدَّمعَ خوفَ نوَى غَدِ

فقال :

وقائعُ أصْلُ النصرِ فيها وفَرْعُه إذا عُدِّدَ الإحسان أو لم يُعَدَّدِ
فمهما تكن من وقعةٍ بَعْدُ لا تكُنْ سِوَى حَسَنٍ مما فعلتَ مُرَدَّدِ(١)

محاسن أصناف المغنين جمة البيت .

= أبياتا ، أعجب بها ؛ فقال له سامعها : أنت تحوم حول أبى نواس فى قوله :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

وتغاضبا ، فاستدل سامعه بأبيات أبى نواس (دارت على فتية) . وفى رواية أخرى أن أبا نواس والحسين بن الضحاك تناشدا قصيدتيهما ، وحكما بينهما ابن مناذر .

(١) من قصيدته فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف الطائى ، ومطلعها فى الديوان ٢٢/٢ هكذا :

سرت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتادا عندها كل مرقد

السلخ

وأما السلخ فإنه ينقسم إلى اثنى عشر ضربا ، وهذا تقسيم أوْجَبَتْه القِسْمة ، وإذا تأملته علمت أنه لم يبق شيء خارج عنه .

فالأول : أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ولا يكون هو إياه ، وهذا من أدق السرقات مذهبا ، وأحسنها صورةً ، ولا يأتى إلا قليلا ، فمن ذلك قول بعض شعراء الحماسة :

لقد زادنى حُبًّا لنفسِيَ أننى بغيض إلى كل امرىءٍ غيرِ طائلِ (١)

أخذ المتنبي هذا المعنى ، واستخرج منه معنى آخر غيره ، إلا أنه شبيه به ، فقال :

وإذا أَتَتْك مذمتى من ناقِصٍ فهى الشهادةُ لى بأَنِّىَ فاضِلُ (٢)

والمعرفة بأن هذا المعنى أصله من ذاك المعنى عسر غامض ، وهو غير متبين الالمن أعرق فى ممارسة الأشعار ، وغاص فى استخراج المعانى ، و بيانُه أن الأول يقول إن بغض الذى هو غير طائل إياى مما زاد نفسى حبًّا إلىّ ، أى جَمَّلها فى عينى ، وحسنها عندى كَوْنُ الذى هو غير طائل مبْغضى ، والمتنبي يقول : إن ذم الناقص إياى شاهد بفضلى ، فذم الناقص إياه كبغض الذى هو غير طائل ذلك

---

(١) الشعر للطرماح بن حكيم الطائى (شرح الحماسة للمرزوقى ١/٢٢٧ والأغانى ١٠/١٥٠ غير طائل : غير فاضل ، دون خسيس .)

(٢) من قصيدته فى مدح القاضى أبى الفضل أحمد بن عبد الله الأنطاكى ، ومطلعها :

لك يامنازل فى القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهل

ورواية الديوان (بأنى كامل) وهى أولى من (فاضل) لتضاد كلمة ناقص الديوان ٣/٢٦٨

الرجلَ ، وشهادةُ ذمِّ الناقص إياه بفَضْله كتحسين بغض الذى هو غير طائل نفسَ ذلك الرجل عنده .

ومن هذا الضرب ما هو أظهر مما ذكرته وأبين ، كقول أبى تمام :

رَعَتْه الفيافى بَعْدَ ما كان حِقْبَةً رعاها وماءُ الروضِ يَنْهَلُّ ساكِبُهْ[1]

أخذ البحترى هذا المعنى واستخرج منه مايشابهه ، كقوله فى قصيدة يفخر فيها بقومه :

شَيْخان قد ثَقُلَ السلاحُ عليهما وعَدَاهما رأىُ السميع المُبْصِرِ

ركِبَا القَنَا من بَعْد ما حَمَلاَ القَنَا فى عَسْكَرٍ مُتَحامِلٍ فى عَسْكَرِ[2]

فأبو تمام ذكر أن الجمل رَعَى الأرضَ ثم سار فيها فرعته ، أى أهزلته ، فكأنها فعلت به مثل ما فعل بها . والبحترى نقل هذا إلى وصف الرجل بعُلُوِّ السن والهَرَم ، فقال : إنه كان يحمل الرمح فى القتال ، ثم صار يركب عليه ، أى يتوكأ منه على عصا ، كما يفعل الشيخ الكبير .

وكذلك ورد قول الرجلين أيضا فقال أبو تمام :

لاأظْلِمُ النَّأْى قد كانت خَلائِقُها

من قَبْلِ وَشْكِ النَّوَى عندى نَوًى قَذَفا[3]

---

(١) من قصيدته فى مدح أبى العباس عبد الله بن طاهر ، التى مطلعها :

هن عوادى يوسف وصواحبه فعزما فقدما أدرك السؤل طالبه

(الديوان ١ / ٢٣٠) الفيافى : الأماكن الخالية والقفار ، يريد أن مركوبه هزل من سيره فى القفار بعد ما كان سمينا ، فكأنها رعته بعد مارعى نبتها .

(٢) من رثائه لقومه (الديوان ٢ / ٤٥) وفى الديوان البيت الثانى قبل الأول .

(٣) من قصيدته فى مدح أبى دلف القاسم بن عيسى العجلى التى مطلعها :

أما الرسوم فقد أذكرن ماسلفا فلا تكفن عن شأنيك أو يكفا

(الديوان ٣ / ٣٥٩) قذف بضم القاف والذال وبفتحهما بعيدة ، أى لا أكذب على النأى فأقول إنه فرق بيننا ، فقد كانت أخلاقها لى قبل الفراق فرقا يمنعنى الوصول إليها .

أخذه البحترى فقال :

أعاتِكُ ما كان الشبابُ مُقرِّبِى
إليكِ فألحَى الشَّيْبَ إذْ هو مُبعِدِى[1]

وهذا أوضح من الذى تقدمه وأكثر بيانا .

الضرب الثانى من السلخ :

أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ ، وذلك مما يصعب جدا ، ولا يكاد يأتى إلا قليلا .

فمنه قول عروة بن الورد من شعراء الحماسه :

ومن يَكُ مِثْلِى ذا عِيالٍ ومُقْتِرًا
من المال يَطْرَحْ نَفْسَه كلَّ مَطْرَحِ
لِيَبْلُغَ عُذْراً أو ينالَ رَغيبَةً ومُبْلِغُ نفسٍ عُذْرَها مِثْلُ مُنْجِحِ[2]

أخذ أبو تمام هـذا المعنى فقال :

فتىً مات بين الضَّرْبِ والطعن مِيتَةً
تَقومُ مَقَامَ النَّصْرِ إذْ فَاتَه النَّصْرُ[3]

فعُرْوَةُ بنُ الورْدِ جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ،

(١) الديوان ١/١٩٦ من قصيدته فى مدح أحمد بن المدبر

(٢) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٤٦٥ وديوان عروة بن الورد ٨٨ وفيهما (أو يصيب رغيبة)

(٣) من رثائه لمحمد بن حميد الطوسى ، ومطلع القصيدة :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

الديوان ٣١٩ وفى الأغانى ١٥/٩٩ أبيات منها .

وأبو تمام جعل الموت فى الحرب الذى هو غاية اجتهاد المجتهد فى لقاء العدو قائماً مقام الانتصار ، وكلا المعنيين واحد ، غير أن اللفظ مختلف .

وهذا الضرب فى سرقات المعانى من أشكلها وأدقها وأغربها وأبعدها مذهبا ، ولا يتفطنُ له ويستخرِجُهُ من الأشعار إلا بعض الخواطر دون بعض . وقد يجيء منه ماهو ظاهر لا يبلغ فى الدقة مبلغ هذه الأبيات المشار إليها ، كقول ابن المقفع فى باب الرثاء من كتاب الحماسة :

فقد جَرّ نفعًا فقدُنا لكَ أننا
أمِنّا على كلِّ الرزايا من الجزَع(١)

وجاء بعده مَنْ أخذ هذا المعنى فقال :

وقد عَزّى ربيعةَ أن يَوْمًا عليها مثلَ يَوْمِكَ لا يَعُود

وهذا من البديع النادر .

وهاهنا ما هو أشد ظهورا من هذين البيتين فى هذا الضرب من السرقات الشعرية ، وذلك يأتى فى الألفاظ المترادفة التى يقوم بعضها مقام بعض ، وذاك لا اعتداد به لمكان وضوحه

---

(١) من رثاء عبد الله بن المقفع ليحيى بن زياد أو لابن أبى العوجاء عبد الكريم شرح الحماسة للمرزوقى ٢/٨٦٣ والتبريزى .

وابن المقفع هو أبو محمد عبد الله بن المقفع أحد البلغاء الأولين والمترجمين السابقين ، وهو من سلالة فارسية . كان أبوه المقفع مجوسيا ، وسبب تلقيبه بالمقفع أنه كان يعمل فى جباية الخراج لولاة العراق زمن بنى أمية فخان فى بعض المال فضربه الوالى حتى تقفعت يده أى تشنجت . ولد ابن المقفع حوالى ١٠٦ هـ وسماه أبوه روزبة ، ونشأ بالبصرة ، وتعلم على علماء عصره وعلى أبيه ، وأجاد العربية والفارسية ، ثم كتب لولاة من بنى أمية ومن بنى العباس ، وترجم كثيرا من كتب الفرس إلى العربية وقتل سنة ١٤٢ هـ لضغينة سياسية ولاتهامه بالزندقة

لكن قد يجيء منه ما هو صفة من صفات الترادف، لا الاسم نفسه، فيكون حسنا كقول جرير :

ولا تَمْنَعكَ من أرَبٍ لِحَاهُمْ سواء ذو العمامةِ والخِمَار [١]

أخذ أبو الطيب المتنبي هذا المعنى فقال :

وَمَنْ فى كفه منهُمْ قَناةٌ كمن فى كفه منهم خِضَابُ [٢]

الضرب الثالث من السلخ :

وهو أخذ المعنى ويسيرٍ من اللفظ ، وذلك من أقبح السرقات وأظهرها شناعة على السارق ، فمن ذلك قول البحترى فى غلام :

فَوْقَ ضَعفِ الصَّغير إنْ وُكِلَ الأمـــرُ
إليه ودُونَ كَيْدِ الكبارِ [٣]

سبقه أبو نواس فقال :

لم يَخْفَ من كِبَرٍ عما يُراد به من الأمور ولا أزرَى من الصِّغَرِ [٤]

وكذلك قوله (البحترى) أيضا :

كلُّ عِيدٍ له انقضاء وكُلٌّ كلّ يوم من جُودِه فى عِيدِ [٥]

---

(١) من قصيدته فى هجاء الفرزدق والبعيث (الديوان ١٩٢) وقيل البيت بيت فاحش . الأرب : الحاجة القبيحة التى ذكرها فى البيت السابق

(٢) من قصيدته فى مدح سيف الدولة بعد أن أوقع ببنى كلاب الخارجين عليه ، التى مطلعها

بغيرك راعياً عبث الذئاب وغيرك صارما ثلم الضراب

وهو يعير فى البيت إلى ما فعله سيف الدولة بهم ؛ إذ سبى نساءهم ، فصار الرجال كالنساء ذلا وخزيا .

(٣) من قصيدته فى مدح أبى جعفر بن حميد واستيهابه غلاما (الديوان ٢/ ٢٥) وفى الديوان (الصغار) بدلا من (الصغير) .

(٤) ليس البيت فى ديوانه

(٥) ليس البيت فى ديوانه .

أخذه من علي بن جَبَلة :

لِلعيدِ يومٌ من الأيام منتظَرٌ والناسُ في كلِّ يومٍ منك في عيد[1]

وكذلك قوله (البحتري) :

جادَ حتى أفنَى السؤالَ فلما بادَ منَّا السؤالُ جاد ابتداء[2]

أخذه من علي بن جبلة :

أعطيت حتى لم تدعْ لك سائلاً وبدأتَ إذْ قَطَعَ العُفاةُ سُؤالها

وقد افتضح البحتري في هذه المآخذ غاية الافتضاح ، هذا على بسطة باعه في الشعر وغناه عن مثلها .

وقد سلك هذا الطريق فحول الشعراء ، ولم يستنكفوا من سلوكها ، فمن ذلك أبو تمام فإنه قال :

قد قَلَّصَتْ شفتاه من حَفيظتِه فخِيلَ من شِدَّةِ التَّعبيس مُبْتسما[3]

سبقه عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن فقال :

وإذا شئت أنْ تَرَى الموتَ في صُو
رة ليث في لِبْدَتَي رِئْبالِ

فالقَهُ غير أنَّما لِبْدَتَاهُ أبيضٌ صارمٌ وأسمَرُ عالِ

تَلْقَ لَيثًا قد قَلَّصَتْ شفتاه فيُرَى ضاحكا لعَبْسِ الصِّيالِ

---

(١) شاعر مجيد المدح وبخاصة مدح أبي دلف العجلي وحميد الطوسي والمأمون (طبقات الشعراء لابن المعتز ١٧٠ والشعر والشعراء ٥٥٠)

(٢) من قصيدته في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف (الديوان ١/١٣)

(٣) من قصيدته في مدح إسحاق بن ابراهيم (الديوان ٣/١٦٥) قلصت : أبرزت أسنانه من شدة الغضب

وكذلك قال أبو تمام .

فلم أمْدَحْك تفخيما بشعرى ولـكنّى مدحت بك المديحا[1]

أخذه من حسان بن ثابت فى مدحه للنبى صلى الله عليه وسلم حيث قال :

ما إن مَدَحْت محمدا بمقالتى لـكن مَدَحْتُ مقالتى بمحمد[2]

ولاشك أن أبا بكر رضى الله عنه سمع قول حسان حيث استخلف عمر رضى الله عنه ، فقال له عمر : استخلف غيرى ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : ماحَبَوْناك بها ، وإنما حبوناها بك .

وهكذا فعل ابن الرومى ، فما جاء له قوله :

جرَحْته العيونُ فاقتَصَّ منها بجَوىً فى القلوب دامى النّدوبِ[3]

سبقه أبو تمام فقال :

أُدْمِيَتْ بالّلحَظاتِ وَجْنَتُهُ فاقْتَصَّ ناظرُه من القَلْبِ[4]

---

(١) من مدحه لإسحاق بن إبراهيم (الديوان ١/٣٤٥)

(٢) ليس البيت بديوان حسان .

وحسان هو حسان بن ثابت الأنصارى الخزرجى النجارى أشعر شعراء رسول الله . وقد عمر طويلا حتى كف بصره فى حياته ، ومات سنة ٦٤ هـ زمن معاوية عن عشرين ومائة سنة

كان حسان من بيت عريق فى الشعر ، إذ كان أبوه وجده شاعرين ، وكان ابنه عبد الرحمن وحفيده سعيد بن عبد الرحمن شاعرين .

واشتهر حسان بأنه شاعر الأنصار فى الجاهلية ، وشاعر النبى زمن النبوة ، وشاعر اليمن كلها فى الإسلام .

(٣) ديوان ابن الرومى ٢/١٧٣

الندوب : الجروح . الجوى : الألم والوجد .

(٤) لم نجد البيت فى ديوانه

وكذلك قول ابن الرومى :

وَكَّلْتُ مَجْدَكَ فى اقتضائك حاجتى   وكَفَى به مُتَقَاضيا ووَكِيلا[1]

سبقه أبو تمام فقال :

وإذا المَجْدُ كان عَوْنى على المَرْ   ءِ تقاضَيْتُهُ بتَرْكِ التَّقَاضِى[2]

وكذلك قال ابن الرومى :

ومالى عزاءٌ عن شبابى عَلِمْتُهُ   سِوَى أنى من بَعْدِهِ لا أُخَلَّدُ[3]

سبقه منصور النمرى فقال :

قد كِدْتُ أَقْضى على فَوْتِ الشباب أَسًى   لولا تَعَزِّىَّ أن العيشَ مُنْقَطِعُ[4]

وكذلك فعل أبو الطيب المتنبى ، فمما جاء منه قوله :

فَدَى نَفْسَه بضَمانِ النُّضَارِ   وأَعْطَى صُدورَ القَنَا الذَّابِلِ[5]

---

(١) ليست بديوانه المطبوع .

(٢) من قصيدته فى مدح ابن أبى دواد التى مطلعها :

بدلت عبرة من الإيماض   يوم شدوا الرحال بالأغراض

(الديوان ٢/ ٣١٦)

(٣) الديوان ٣٩٤ من قصيدته التى مطلعها :

أبين ضلوعى جمرة تتوقد   على ما مضى أم حسرة تتجدد

(٤) من قصيدته فى مدح الرشيد (الأغانى ١٢ / ١٨) ومنها فى الشباب :

ما تنقضى حسرة منى ولا جزع   إذا ذكرت شباباً ليس يرتجع

بان الشباب وفاتتنى بلذته   صروف دهر وأيام لها خدع

ما كنت أوفى شبابى كنه غرته   حتى انقضى فاذا الدنيا له تبع

ومنصور النمرى كان عند الرشيد مقدما ، وكان الرشيد يعطيه ويجزل له ، وكان يتظاهر بأنه عباسى المذهب وهو فى باطن نفسه شيعى .

(٥) من قصيدته فى مدح سيف الدولة لما استنقذ من أسر الخارجى أبا وائل تغلب بن داود ، ومطلعها :

إلام طماعية العاذل   ولا رأى فى الحب للعاقل =

أخذه من قول الفرزدق :

كأن الفِداء له صُدُورُ رِماحِنا   والخَيْلُ إذْ رَهَجُ الغُبار مُثَارُ(١)

وكذلك قوله (المتنبي) أيضاً :

أين أزْمَعْتَ أيُّهذا الهُمامُ   نحن نَبْتُ الرُّبا وأنت الغَمامُ(٢)

أخذه من بشار حيث قال :

كأن الناسَ حين تَغيبُ عنهم   نَبَاتُ الأرضِ أخطأه القِطارُ(٣)

وكذلك قوله (المتنبي) :

فلا زالَتْ ديارُك مُشْرِقاتٍ   ولا دَانَيْتَ ياشَمْسُ الغرُوبا

لأُصْبحَ آمنا فيك الرَّزايا   كما أنا آمَنٌ فيك العُيوبا(٤)

= (الديوان ٣ / ١٨٦) النضار : الذهب . القنا الذابل : الرماح . أى ضمن لهم الذهب ثم أعطاهم صدور الرماح . وذلك أن سيف الدولة استنقذه من أيديهم بغير فداء، إذ أتى الخارجي بجيشه وقتله وأنقذ أبا وائل .

(١) من قصيدة له فى مناقضة جرير (الديوان ٢ / ٤٦٩)

(٢) مطلع قصيدته فى مدح للتنبي حينما عزم على الرحيل عن أنطاكية . (الديوان ٤ / ٧٩) .

(٣) من قصيدته فى الفخر (الديوان ٣/٢٤٧) والبيت فى الديوان :

كأن الناس حين تغيب عنهم   نبات الأرض أخلفه القطار

القطار : بكسر القاف جمع قطر وقطرة والمراد المطر ، وبضم القاف المطر الغزير .

(٤) من قصيدته فى مدح على بن محمد بن سيار التميمى . (الديوان ١/١٦٠٧) التى مطلعها :

ضروب الناس عشاق ضروبا   فأعذرهم أشفهم حبيبا

أخذه من ابن الرومى حيث قال :

لسالمُ قد سَلِمتَ من العيوب ألا فاسْلَمْ كذاك من الخطوب[١]

والذى عندى فى الضرب المشار إليه أنه لابد من مخالفة المتأخر المتقدم ، إما بأن يأخذ المعنى فيزيده معنى آخر ، أو يوجز فى لفظه ، أو يكسوه عبارة أحسن من عبارته .

ومن هذا الضرب ما يستعمل على وجه يزداد قبحه ، وتكثر البشاعة به ، وهو أن يأخذ أحد الشاعرين معنى من قصيدة لصاحبه على وزن وقافية ، فيودعه قصيدة له على ذلك الوزن وتلك القافية ، ومثاله فى ذلك كمن سرق جوهرة من طوق أو نطاق ، ثم صاغها فى مثل ما سرقها منه ، والأولى به أن كان نظم تلك الجوهرة فى عقد أوصاغها فى سوار أو خلخال ليكون أكتم لأمرها .

وممن فعل ذلك من الشعراء فافتضح أبو الطيب المتنبى حيث قال فى قصيدته التى أولها : (غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع[٢]) .

لم يُسْلِم الكرُّ فى الأعقاب مُهْجَتَهُ إن كان أسْلَمَها الأصحابُ والشِّيَعُ

وهذه القصيدة مصوغة على قصيدة لأبى تمام فى وزنها وقافيتها أولها :
« أىُّ القلوب عليكم ليس ينصدع[٣] » .

---

(١) من قصيدته فى مدح سالم بن عبد الله بن عمر الأخبارى (الديوان ١/٢٩٥)

(٢) من قصيدته فى مدح سيف الدولة ؛ التى مطلعها :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

(الديوان ٣/٣٩٣) يقول إن هذه الوقعة التى هزم فيها المسلمون قد خذل فيها الجند سيف الدولة لكنه كر على الأعداء بنفسه ، فدافعت نفسه عن نفسه

(٣) الديوان ٣٢٢ فى رثاء بنى حميد

وهذا المعنى الذى أورده أبو الطيب مأخوذ من بيت مها وهو :

ما غابَ عنكم من الإقدام أكرمُهُ   فى الرَّوْع إذْ غابت الأنصارُ والشِّيَمُ

وليس فى السرقات الشعرية أقبح من هذه السرقة ، فإنه لم يكتف الشاعر فيها بأن يسرق المعنى حتى ينادى على نفسه أنه قد سرقه .

الضرب الرابع منه السلخ :

وهو أن يؤخذ المعنى فيعكس ، وذلك حسن يكاد يخرجه حسنه عن حد السرقة ، فمن ذلك قول أبى نواس :

قالوا عَشِقْتَ صغيرةً فأجبتُهُمْ   أشهى المَطِىِّ إلىَّ مالم يُرْكَبِ

كم بَيْنَ حبة لؤلؤٍ مَثْقُوبَةٍ   لُبِسَتْ وحَبَّةِ لؤلؤٍ لم تُثْقَبِ (١)

فقال مسلم بن الوليد فى عكس ذلك :

إن للطِيَّةَ لا يَلَذُّ ركوبُها   حتى تُذَلَّلَ بالزِّمام وتُرْكَبَا

والحبُّ ليس بنافعٍ أربابَهُ   حتى يُفَصَّلَ فى النِّظام ويُثْقَبَا (٢)

ومن هذا الباب قول ابن جعفر :

ولما بَدَا لى أنها لاتُرِيدُنى   وأن هواها ليس عَنِّى بمُنْجَلِى

تَمَنَّيْتُ أن تَهْوَى سِواى لعلَّهـــا   تَذُوقُ صَباباتِ الهَوَى فترِقَّ لى (٣)

---

(١) الديوان ٢٩ (المطبعة العمومية)
(٢) الديوان ٣٠٥
(٣) هو علي بن عبد الله بن جعفر ينتهى نسبة إلى أبى طالب ، وهو قائل هذين البيتين (الأغانى ١٤٢/١٩) وفى الأغانى (لاتودنى)

وقال غيره :

ولقد سرّنى صدودكِ عنّى في طِلابيكِ وامتناعُكِ منّى
حَذَراً أن أكونَ مِفتاحَ غيرى وإذا ما خلوت كنتِ التمنّى[1]

أما ابن جعفر فإنه تذاءب[2] وألقى عن منكبيه رداء الغيرة ، وأما الآخر فجاء بالضد من ذلك وتناهى به غاية الغلو .

وكذلك ورد قول أبي الشّيص :

أجدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً شَغَفاً بذكركِ فلْيَلُمْني اللُّوّمَ[3]

أخذ أبو الطيب المتنبى هذا المعنى وعكسه فقال :

أأُحِبُّه وأحبُّ فيه مَلامةً إن الملامةَ فيه من أعدائِهِ[4]

وهذا من السرقات الخفية جدا ، ولأنْ يسمى ابتداعا أولى من أن يسمى سرقة ، وقد توخيته في شيء من شعرى فجاء حسنا ، فمن ذلك قولى :

---

(١) ورد في الأغاني ١٩/١٤٢ نسبة البيتين إلى ابن جعفر أيضا . وذلك أن المتوكل سأله عن تدينه في البيتين الأولين فقال له ابن جعفر : جعلت فداك ، اسمع بيتين قلتهما في الغيرة ، وأنشده البيتين .

(٢) تذاءب وتذأب : استخفى وتحايل ، من تذاءب للناقة إذا استخفى لها متشبها بالذئب ليعطفها على غير ولدها

(٣) في الأغاني أن على بن عبد الله أنشد لنفسه أبياتا ، منها هذا البيت (الأغاني ١٩/١٤٢) وفي العقد الفريد ٥/٣٧٤ نسبتها إلى أبي الشيص ، وكذلك في شرح المرزوقي للحماسة ٣/١٢٧٣ . أما الشاعر فاسمه محمد بن عبد الله بن رزين ، وهو ابن عم دعبل الشاعر وكان في زمن الرشيد معاصرا لأبي نواس . والشيص معناه في الأصل التمر الردىء . والأبيات هى :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمنى اللوم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم إذ كان حظى منك حظى منهم
وأهنتنى فأهنت نفسى صاغرا ما من يهون عليك ممن يكرم

(٤) من أبيات أجازها باقتراح سيف الدولة (الديوان ١/٢)

لولا الكرامُ وما سَنّوه من كَرَمٍ ... لم يَدْرِ قائلُ شِعْرٍ كيف يَمْتَدِحُ

أخذته من قول أبي تمام :

ولولا خــــلالٌ سَنّها الشعر ما دَرَى
بُغاةُ العُلا من أين تُؤْتَى المكارِمُ(١)

الضرب الخامس من المسخ :

وهو أن يؤخذ بعض المعنى ، فمن ذلك قول أمية ابن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جُدْعان :

عطاؤكَ زَيْنٌ لامرىء إن حَبَوْتَهُ ... بِبَذْلٍ وما كلُّ العطاء يَزِينُ
وليس بشَيْنٍ لامرىء بَذْلُ وجهه ... إليك كما بَعْضُ السؤال يَشِينُ(٢)

أخذه أبو تمام فقال :

تُدْعَى عطاياه وَفْراً وهْيَ إن شُهِرَتْ ... كانت فَخاراً لمن يَعْفُوه مُؤْتَنَفَا
مازلتُ منتظراً أُعْجوبَةً زَمَنَاً ... حتى رأيتُ سؤالاً يَجْتَنِي شَرَفَا(٣)

فأمية بن أبي الصلت أتى بمعنيين اثنين ، أحدهما أن عطاءك زين ، والآخر أن

---

(١) من قصيدته فى مدح أحمد بن دواد (الديوان ١٨٣/٣) وفى الديوان (بغاة الندى)
(٢) الأغانى ٣/٨ والديوان ٦٣
أمية شاعر جاهلى حفل ديوانه بالتوحيد والكونيات والبعث والحساب الخ قال فيه الأصمعى ذهب أمية فى شعره بعامة ذكر الآخرة، وذهب عنترة بعامة ذكر الحرب، وذهب عمر بن أبى ربيعة بعامة ذكر الشباب (الأغانى ١٢٥/٤) وقد أدرك الإسلام وتوفى سنة ٩٠هـ وكان قد قرأ الكتب واتصل بالقديسين ولبس المسوح وتنسك وحرم الخمر والاوثان
وعبد الله بن جدعان جواد عربى مشهور ربما كان النبى يحضر طعامه ، وقد حضر فى داره قبل النبوة حلفا لرد المظالم
(٣) من مدحه لأبى دلف العجلى مطلعها .
أما الرسوم فقد أذكرن ماسلفا ... فلا تكفى عن شانيك أو يكفا
(الديوان ٣٦٥/٢)

عطاء غيرك شين ، وأما أبو تمام فإنه أتى بالمعنى الأول لاغير .

ومن هذا الضرب قول على بن جَبلة :

وآثَلَ مالم يَحْوِه مُتَقَدِّمٌ وإن نال منه آخِرٌ فهو تَابِعُ

فقال أبو الطيب المتنبى :

تَرَفَّعَ عن عُونِ المكارمِ قَدْرُه فما يَفْعَلُ الفَعْلاتِ إلا عَذَاريا[1]

فعلى بن جبلة اشتمل ما قاله على معنيين : أحدهما أنه فعل مالم يفعله أحد ممن تقدمه ، وإن نال منه الآخر شيئا فإنما هو مقتدبه وتابع له . وأما أبو الطيب فإنه لم يأت إلا بالمعنى الواحد ، وهو أنه يفعل مالا يفعله غيره ، غير أنه أبرزه فى صورة حسنة .

ومن ذلك قول ابى سام :

كلِفٌ برَبِّ المَجدِ يَعلَمُ أنه لم يُبْتَدأْ عُرْفٌ إذا لم يُتمَمِ[2]

فقال البحترى :

ومِثْلُك إن أبدَى الفَعَالَ أعاده وإن صَنَعَ المعروفَ زادَ وتَمَّما[3]

فأبو تمام قال إن للممدوح يَرُبُّ صنيعه ، أى يستديمه ، ويعلم أنه إذا لم

---

(١) من قصيدته فى مدح كافور التى مطلعها :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

(الديوان ٤/٤٢٨ العون : جمع عوان وهى التى فوق البكر دون القارض . العذارى : جمع عذراء وهى البكر ، أى أنه أجل قدرا من أن يفعل فى المكرمات فعلا قد سبقه إليه أحد ، وإنما يأتى بها ابتداءا

(٢) من مدحه لابن شبانه ٣/٢٤٨

(٣) من قصيدته فى مدح الفتح بن خاقان التى مطلعها :

يهون عليها أن أبيت متيما أعالج شوقا فى الضمير مكتما

(الديوان ٢/٢٢٧)

يستدمه فما ابتدأه ، والبحترى قال إنه يستديم صنيعه لا غير ، وذلك بعض ما ذكره أبو تمام .

وكذلك قال البحترى :

ادْفَعْ بأمثالِ أبي غالبٍ   عادِيَةَ العُدْمِ أو استَعْفِفِ[1]

أخذه ممن تقدمه ، حيث قال :

انتَجِعِ الفَضْلَ أو تخلَّ عن الدُّنـــيا   فهاتانِ غايةُ الهِمَمِ

فالبحترى أخذ بعض هذا المعنى ولم يستوفه .

وكذلك ورد قول ابن الرومى :

نَزلتُمْ على هام المعالى إذا ارْتَقَى   إليها أُناسٌ غيرُكُم بالسَّلالِمِ[2]

أخذه أبو الطيب المتنبى فقال :

فَوْقَ السماءِ وفوقَ ما طَلَبُوا   فإذا أرادُوا غايةً نَزَلُوا[3]

وهذا بعض المعنى الذى تضمنه قول ابن الرومى ، لأنه قال إنكم نزلتم على هام المعالى وإن غيركم يرقى إليها رقيا ، وأما المتنبى فانه قال إنكم إذا أردتم غاية نزلتم ، وأما قوله (فوق السماء) فإنه يغنى عنه قول ابن الرومى (نزلتم على هام المعالى) إذ للمعالى فوق كل شيء ، لأنها مختصة بالعلو مطلقا .

---

(١) من قصيدته فى مدح أبى غالب أحمد بن المدبر التى مطلعها :

لم تبلغ الحق ولم تنصف   عين رأت بيناً فلم تذرف

(الديوان ٢/١٠٢)

(٢) ليست بديوانه المطبوع

(٣) من مدحه لعضد الدولة بقصيدة مطلعها :

اثلث فإننا أيها الطلل   نبكى وترزم تحتنا الإبل

الديوان ٤/٣٢)

الضرب السادس من السلخ :

وهو أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى آخر ، فمما جاء منه قول الأخنس بن شهاب :

إذا قَصُرَتْ أسيافنا كان وَصْلُها خُطانا إلى أعدائنا فَنُضارِبُ[1]

أخذه مسلم بن الوليد فزاد عليه ، وهو قوله :

إنْ قَصَّرَ الرُّمحُ لم يَمْشِ الخُطا عَدَداً
أو عَرَّدَ السيفُ لم يَهْمُمْ بتَعْرِيدِ[2]

وكذلك ورد قول جرير فى وصف أبيات من شعره :

غَرائبُ ألاَّفٌ إذا حان وِرْدُها أخَذْنَ طريقاً للقصائد مُعْلَماً[3]

أخذه أبو تمام فزاد عليه ، إذ قال فى وصف قصيد له ، وقرن ذلك بالممدوح :

غرائبُ لاقَتْ فى فنـــائك أُنْسَها
من المَجْدِ فهْىَ الآنَ غيرُ غرائبِ[4]

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقى ٢/٧٢٧ وفيه (وإن قصرت)
وهو الأخنس بن شهاب بن شريق ينتهى نسبه إلى تغلب ، شاعر جاهلى قديم قبل الإسلام بدهر . وهو غير الاخنس بن شريق الثقفى الصحابى

(٢) من قصيدته فى مدح داود بن يزيد المهلبى (الديوان ١٥٩) تعريد : عدم قطع ، أى لم يهم بإبعاد السيف عن الضريبة

(٣) من قصيدته فى هجاء البعيث (الديوان ٥٤٢) والنص فى الديوان :
فإنى لها جيبهم بـكل غريبة شرود إذا السارى بليل ترنما
غرائب ألافا إذا حان وردها أخذن طريقا للقصائد معلما

(٤) من مدحه لأبى دلف بقصيدة مطلعها :
على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السوا كب
(الديوان ١/ ٢٢١)

وكذلك ورد قول ولد مَسْلَمة بن عبد الملك :

أذلُّ الحيــاةِ وكُرْهَ المماتِ وكُلًّا أراه طعاماً وَبيلاَ
فإن لم يكن غيرُ إحـــداهما فَسَيراً إلى الموت سَيْراً جميلا

أخذه أبو تمام فقال :

مَثَّلَ الموتَ بين عينيه والذُّ لَّ وكُلًّا رآه خَطْباً عظيما
ثم سارَتْ به الحَمِيَّةُ قُدْماً فأمات العِدَا ومات كريما[1]

فزاد عليه بقوله « فأمات العدا ومات كريما » .

ويروى أنه نظر عبد الله بن على رضى الله عنه عند قتال المروانية إلى فتى عليه أبهة الشرف ، وهو يبلى فى القتال بلاء حسنا ، فناداه : يا فتى لك الأمان ، ولو كنت مروان بن محمد . فقال : إلا أكُنْهُ فلستُ بدونه .

قال : فلك الأمان ، ولو كنت من كنت . فأطرق ثم تمثل بهذين البيتين المذكورين .

وكذلك ورد قول أبى تمام :

يَصُدُّ عن الدنيا إذا عَنَّ سُودَدٌ ولو بَرَزَتْ فى زِىِّ عَذْراء ناهِدِ[2]

أخذه من قول ابن المقذّل بن غَيْلان :

ولستُ بنظّارٍ إلى جانب العُلا إذا كانت العَلْياء فى جانب الفَقْرِ[3]

---

(١) الديوان ٣٣٤ فى رثاء جعفر الطائى

(٢) من مدحته لأبى الحسن محمد بن الهيثم بن شبانة التى مطلعها .

قفوا جددوا من عهدكم بالمعاهد وإن هى لم تسمع لنشدان ناشد
(الديوان ٢/٦٨)

(٣) تصويب اسمه من الأغانى ١٢ / ٥٤ وكان فى الاصل المعذل ، بغير ابن . =

إلا أنه زاده زيادة حسنة بقوله : « ولو برزت فى زى عذراء ناهد » .

ومما يجرى هذا المجرى قول البحترى :

خَلِّ عنَّـــــا فإنما أنت فينا　　　واو عَمْرٍو أو كالحديث المُعَادِ[1]

أخذه من قول أبى نواس :

قلْ لمن يَدَّعِى سُلَيْمَى سَفاهًا　　　لستَ منها ولا قُلامةَ ظُفرِ

إنما أنت مُلْصَقٌ مثلُ واوٍ　　　أُلحِقَتْ فى الهجاء ظُلْمًا بعَمْرِو[2]

إلا أن البحترى زاد على أبى نواس فى قوله : أو كالحديث المعاد .

وهكذا ورد قول البحترى أيضاً :

ركِبُوا الفُراتَ إلى الفراتِ وأمَّلُوا　　　جَذْلانَ يُبْدِعُ فى السَّماح ويُغرِبُ[3]

أخذه من مسلم بن الوليد فى قوله :

ركبتُ إليه البحرَ فى مُؤْخِراتِهِ　　　فأوْفَتْ بنا من بَعْد بحر إلى بَحْرِ[4]

= وهو عبد الصمد بن المعذل بن غيلان . وفى الأغانى :

ولست بميال إلى جانب الغنى　　　إذا كانت العلياء فى جانب الفقر

وانى لصبار على ماينوبنى　　　وحسبك أن الله أثنى على الصبر

(١) من هجائه لعلى بن الجهم (الديوان ١٩١/١)

(٢) فى هجاء أشجع السلمى (الديوان ٥٤٥) وكان فى الأصل (سليا) والبيت الثانى بالديوان :

إنما أنت من سليمى كواو　　　ألحقت فى الهجاء ظلما بعمرو

(٣) من مدحته لإسحاق بن إبراهيم بن مصعب (الديوان ٦٢/١) .

(٤) الديوان ١١١ ويروى ركبنا إليه البحر . مؤخراته : أواخر ركوبه . والضمير فى أوفت يعود على السفينة المذكورة قبل ذلك

إلا أن البحترى زاد عليه بقوله : « جذلان يبدع فى السماح ويغرب » .

وكذلك ورد قول أبى نواس :

وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد[1]

وهذا البيت قد لهج به الناس لهجا كثيرا ، ومنهم من ظنه مبتدعا لأبى نواس ، ويحكى عن أبى تمام أنه دخل على ابن أبى دواد[2] فقال له : أحسبك عاتبا يا أبا تمام ، فقال : إنما يُعتَبُ عَلَى واحد ، وأنت الناس جميعا ، قال : من أين هذه يا أبا تمام ؟ قال : من قول الحاذق أبى نواس ، وأنشده البيت ، وهذه الحكاية عندى موضوعة لأن أبا تمام كان عارفا بالشعر حتى إنه قال : لم أنظم شعرا حتى حفظت سبعة عشر ديوانا للنساء خاصة دون الرجال ، وما كان يخفى عليه أن هذا المعنى ليس لأبى نواس ، وإنما هو مأخوذ من قول جرير :

إذا غَضِبَتْ عليك بَنُو تميمٍ حَسِبْتَ الناسَ كُلَّهم غِضابا[3]

إلا أن أبا نواس زاد زيادة حسنة ، وذاك أن جريرا جعل الناس كلهم بنى تميم ، وأبا نواس جعل العالم كله فى واحد ، وذلك أبلغ .

ومما ينتظم فى هذا السلك قول الفرزدق :

---

(١) من مدحته لهارون الرشيد (الديوان ٤٥٤)

(٢) هو ابن أبى دواد الإيادى ، كان من جلة العلماء فى عصر المأمون ، وقد عرف فضله ، فأوصى أخاه المعتصم به ، وكتب فى كتاب الوصية له بالخلافة « وأبو عبد الله أحمد بن أبى دواد لايفارقك ، أشركه فى المشورة فى كل أمرك ، فإنه موضع ذلك » فكان المعتصم لايفعل فعلا باطنا ولاظاهراً إلابرأيه ، ثم حسنت حاله كذلك عند الواثق بعد المعتصم ، ثم فلج فى خلافة المتوكل ومات سنة ٢٤٠ هـ .

ويقول ابن خلكان « دواد » بضم الدال وفتح الواو .. وفى القاموس المحيط فى مادة « داود » : وأحمد بن أبى دواد معروف . ومن هذا يظهر لك خطأ من يهمز الواو ، وقد وقع فى ذلك كثير .

(٣) الديوان ٧٨ من قصيدته فى هجاء الراعى النميرى

علامَ تَلَفَّتِينَ وأنْتِ تحْتِي ... وخَيْرُ النَّاسِ كلّهمُ أمامى
مَتَى تأتِى الرُّصَافَةَ تستريحى ... من الأنْساعِ والدَّبَرِ الدَّوَامِى(١)

أخذه أبو نواس فصار أملك به ، وأحسن فيه غاية الإحسان ، فقال :

وإذا المطىُّ بنـــا بلَغْنَ محمداً ... فظُهورُهن على الرجال حَرام(٢)

فالفرزدق قال : (تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى) وليست استراحتها بمانعة من معاودة إتعابها مرة أخرى ، وأما أبو نواس فإنه حرم ظهورهن على الرجال ، أى أنها تُعفَى من السفر إعفاء مستمرا ، ولا شك أن أبا نواس لم يتنبه لهذه الزيادة إلا مِنْ فعل العرب فى السَّائبة والبَحِيرة(٣) .

وعلى هذا الأسلوب ورد قول المتنبى :

ومَلْمُومةٍ زَرَدٌ ثوبُهـــا ... ولـكنه بالقَنَا مُخْمَلُ(٤)

---

(١) من قصيدته فى مدح هشام بن عبد الملك (الديوان ٨٣٥) وفى الديوان (إلام تلفتين)

(٢) من قصيدته فى مدح الأمين (الديوان ٤٠٧)

(٣) السائبة : البعير يدرك نتاج نتاجه فيسيب أى يترك لايركب والناقة كانت تسيب فى الجاهلية لنذر ونحوه أو كانت إذا ولدت عشرة أبطن كلهن إناث سيبت أو كان الرجل إذا قدم من سفر بعيد أو نجت دابته من حرب أو مشقة قال هى سائبة ، وكانت لا تمنع من ماء ولا كلأ ولاتركب .

البحيرة : كانوا إذا نتجت الناقة أو الشاة عشرة أبطن بحروها وتركوها ترعى وحرموا لحمها إذا ماتت على نسائهم وأكلها الرجال ، أو التى خليت بلا راع ، أو هى ابنة السائبة ، وكانوا يحرمون لحمها وركوبها .

(٤) من قصيدته فى مدح سيف الدولة (الديوان ٣/٢٤١)

ململومة : كتيبة مجتمعة ، والـكامة معطوفة على كلة مرفوعة من قبل . زرد ثوبها . ثيابها دروع لها . والزرد حلق الدرع . أى حال بينهم وبين مايشتهون جيشك الذى اتخذ فرسانه الدروع لباسالهم ، إلا أن ذلك الثوب مخمل بالرماح كالخمل لتلك الثياب

أخذه من أبى نواس فى قوله :

أمامَ خَميسٍ أرجُوانٍ كأنه قَميصٌ مُحوكٌ من قَنا وجِيادِ(١)

فزاد أبو الطيب زيادة صار بها أحق من أبى نواس بهذا المعنى .

وكذلك قال أبو الطيب المتنبى :

وإن جادَ قَبلَكَ قومٌ مضَوْا فإنك فى الكَرَمِ الأوَّلُ(٢)

فأخذته أنا وزدت عليه فقلت :

أنتَ فى الجود أولٌ وقَضَى اللـه بألاَّ يُرَى لك الدهرَ ثانِ

وهذا النوع من السرقات قليل الوقوع بالنسبة إلى غيره .

الضرب السابع من السلخ :

وهو أن يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من العبارة الأولى ، وهذا هو المحمود الذى يخرج به حسنه عن باب السرقة .

فمن ذلك قول أبى تمام :

جَذْلانَ من ظَفَرٍ حَرّانَ أن رَجَعَتْ مَخضوبةً منكمُ أظفارُه بدمِ(٣)

---

(١) من قصيدته فى مدح الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى (الديوان ٤٧٣) الخميس : الجيش العظيم . أرجوان : أحمر

(٢) من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :

أينفع فى الخيمة العذل وتشمل من دهرها يشمل

(٣) من قصيدته فى مدح مالك بن طوق التغلبى (الديوان ٤/١٩١) وجذلان حال من الفاعل فى البيت السابق :

قد انثنى بالمنايا فى أسنته وقد أقام خياراكم على اللقم

اللقم : الطريق الواضح .

أخذه البحترى فقال :

إذا احْتَرَبَتْ يوما ففاضَتْ دِماؤُها
تَذَكّرتِ القُرْبى ففاضَتْ دُموعُها(١)

ومن هذا الأسلوب قولهما أيضا ، فقال أبو تمام :

إن الكرام كثيرٌ فى البلاد وإنْ قَلُّوا كما غيرُهُمْ قَلُّوا وإن كَثُرُوا(٢)

وقال البحترى :

قَلَّ الكرامُ فصار يَكْثُرُ فَذُّهُمْ ولقد يَقِلُّ الشىء حتى يَكْثُرا(٣)

وعلى هذا النحو ورد قول أبى نواس :

يَدُلُّ على ما فى الضمير من الفتى
تقلُّبُ عَيْنَيْه إلى شخصِ مَنْ يَهْوَى(٤)

أخذه أبو الطيب المتنبى فقال :

وإذا خامَرَ الهوَى قَلْبَ صَبٍّ فعليه لكلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ(٥)

---

(١) من قصيدته فى مدح المتوكل وذكر صلح بنى تغلب (الديوان ٢/٣١٦) والضمير عائد على الفرسان من الطرفين

(٢) من قصيدته فى مدح عمر بن عبد العزيز الطائى (الديوان ٢/١٨٦)

(٣) من قصيدته فى مدح إسحاق بن كنداج (الديوان ٢/٢١) فذهم : فريدهم ،

(٤) من قصيدة فى الغزل والخمر مطلعها :

شجانى وأبلانى تذكر من أهوى وألبسنى ثوبا من الضرر البلوى
(الديوان ١١٨)

(٥) من قصيدته فى مدح سيف الدولة (الديوان ٣/٣٣٤) التى مطلعها :

ليالى بعد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل

ومما ينتظم فى هذا السلك قول أبى الطيب المتنبى :

إذا ما ازْدَدْتُ من بَعدِ التَّناهِى   فقد وَقَعَ انْتِقاصِى فى ازْدِياد(١)

أخذه ابن نُباتة السَّعْدِى(٢) فقال .

إذ كان نُقصانُ الفتَى من تمامِه   فكلُّ صحيحٍ فى الأنامِ عليلُ

وكذلك ورد قول أبى العلاء بن سليمان فى مرثية :

وما كُلْفَةُ البَدْرِ المنيرِ قَدِيمَةٌ   ولكنها فى وَجْهِه أثَرُ اللَّطْمِ(٣)

أخذه الشاعر المعروف بالقَيْسَرانى فقال :

وأهْوَى التى أهْوَى لها البَدْرُ ساجداً   ألسْتَ تَرَى فى وجهه أثَرَ التُّرْبِ

وكذلك قول ابن الرومى :

إذا شَنِئَتْ عَيْنُ امرىء شَيْبَ نَفْسِه   فعَيْنُ سِواهُ بالشَّناءَةِ أجْدَرُ(٤)

(١) من مدحه لعلى بن إبراهيم التنوخى (الديوان ٢/٩١) والنص فى الديوان :

إذا ماازددت من بعد التناهى   فقد وقع انتقاصى فى ازديادى

يريد أنه إذا بلغ الشباب نهايته فزيادة العمر بعد ذلك زيادة فى النقصان ، لما يترتب على هذا من ضعف الشيخوخة ، كما قال عبد الله بن طاهر :

إذا مازاد عمرك كان نقصا   ونقصان الحياة مع التمام

وكما قال آخر :

إذا اتسق الهلال وصار بدرا   تبينت المحاق من الهلال

(٢) تقدم التعريف به . والاسم يروى بضم النون وبفتحها وهو أبو نصر عبد العزيز محمد بن نباتة السعدى التميمى أحد فحول الشعراء . توفى سنة ٤٠٥ فى بغداد .

(٣) من قصيدته فى رثاء أبى إبراهيم العلوى (سقط الزند ١/٢٩٢) وفى الديوان (اللاطم) يريد أن الكلفة التى ترى فيه ليست قديمة ولكنها من لطمه لما بلغه نعى المتوفى .

أخذه من تأخر زمانه عنه فقال :

إذا كانَ شَيْبِي بغيضاً إلىّ فكيف يكونُ إليها حَبِيبا[١] ؟

ومما ينخرط فى هذا السلك قول بعضهم :

مُخَصَّرةُ الأَوساطِ زَانَتْ عُقودَها بأحْسَنَ مِمَّا زَيَّنَتْها عُقودُها

أخذه أبو تمام فقال :

كأنْ عليها كلُّ عقـــدٍ ملاحة
وحُسْناً وإن أضحَتْ وأمْسَتْ بلا عِقْدِ[٢]

ثم أخذه البحترى فقال :

إذا أطفأ الياقوتَ إشراقُ وجهها فإن عناءً ما تَوخَّتْ عُقودُها[٣]

وأمثال هذا كثيرة ، وفيما أوردناه مقنع .

الضرب الثامن وهو السلخ :

وهو أن يُؤْخَذَ المعنى ويُسْبَك سبكا موجزا ، وذلك من أحسن السرقات ، لما فيه من الدلالة على بسطة الناظم فى القول ، وسعة باعه فى البلاغة .

---

(١) القائل هو أبو هلال العسكرى ، وقبل البيت قوله :
فلا تعجبا أن يعبن المشيب فما عبن من ذاك إلا معيبا
(الصناعتين ٤٨)

(٢) من قصيدته فى مدح أبى المغيث الرافقى (والديوان ٢/١١١) وبالديوان تقديم أمست على أضحت

(٣) من قصيدته فى مدح صاعد بن مخلد (الديوان ١/١٥٦) وبالديوان (حسنها) بدلا من (وجهها) .

فمن ذلك قول بشار :

من راقبَ الناسَ لم يَظفَرْ بحاجته
وفاز بالطّيّباتِ الفـــاتكُ اللَهِجُ(١)

أخذه سَلْم الخاسرَ — وكان تلميذه — فقال :

من راقب الناس مات غمّاً وفاز باللذة الجَسُورُ(٢)

فبين البيتين لفظتان فى التأليف .

ومن هذا الأسلوب قول أبى تمام :

بَرّزْتَ فى طَلَبِ المعالى واحدا فيها تَسِيرُ مُغَوِّراً أو مُنْجِدا
عجبًا بأنك سالمٌ فى وَحْشَةٍ فى غايةٍ مازلتَ فيها مُفرَدا(٣)

(١) الديوان ٢/٧٥ — الفاتك : القاتل واستعاره للجرىء والذى لايبالى إنـكار الناس . اللهج : المغرى بالشىء المثابر عليه المقدام .

(٢) ذكر أبو هلال فى الصناعتين ٢١٤ إن بشارا لما سمع بيت سلم قال : ذهب ابن الفاعلة يبيق . وفى شرح ديوان بشار ٢/٧٥ وطبقات الشعراء لابن المعتز ١٠٠ أنه قال : فهو أخف منه وأعذب ، والله لا أكلت ولاشربت اليوم . فلما بلغ ذلك سلما استشفع إلى بشار بجماعة ، فذهبوا به فقال بشار : أين هو الخبيث ؟ قالوا : هاهوذا ، فقام إليه وسلم ، وقبل سلم رأسه وقال له : ياأبا معاذ خريجك وتلميذك . قال بشار : ياسلم من الذى يقول ؟ من راقب الناس لم يظفر بحاجته... قال : أنت ياأبا معاذ . قال : فمن الذى يقول : من راقب الناس مات غما ... قال : خريجك ياأبا معاذ . قال : أفتأخذ معانى التى قد عنيت بها وتعبت فى استنباطها ، فتكسوها ألفاظا أخف من ألفاظى . حتى يروى ماتقول ويذهب شعرى؟ لاأرضى عنك أبدا . فمازال يضرع إليه والقوم يشفعون حتى رضى عنه .

وسلم الخاسر هو سلم بن عمرو شاعر بصرى قدم بغداد ومدح المهدى والهادى وهارون والبرامكة . وسمى بالخاسر لأنه ورث عن أبيه مصحفا فباعه واشترى طنبورا (الأغانى ٢١/٧٣)

(٣) من مدحته لأحمد بن عبد الكريم الطائى (الديوان ٢/١٠٤)

أخذه ابن الرومى فقال :

غَرَّبَتْهُ الخلائِقُ الزُّهرُ فى النا　　س وما أوحَشَتْه بالتَّغريبِ[١]

وكذلك ورد قول أبى نواس :

وَكلتَ بالدهر عَيْناً غـــيرَ غافلةٍ
من جُودِ كفِّك تأسُو كلَّ ماجرَحَا[٢]

أخذه ابن الرومى فقال :

الدَّهرُ يُفسِدُ ما استطاع وأحْمَدٌ　　يَتتَبَّعُ الإفسادَ بالإصلاحِ[٣]

وعلى هذا ورد قول ابن الرومى :

كأنىَ أستَدْنى بك ابنَ حَنِيَّةٍ
إذا النَّزْعُ أدْناه من الصَّدْر أبْعَدَا[٤]

أخذه بعض شعراء الشام وهو ابن قَسِيم الحَمَوِىّ[٥] فقال :

فهوَ كالسَّهمِ كلما زِدْتَهُ مِنْـــك دُنُوًّا بالنَّزْعِ زادك بُعْداً

---

(١) من قصيدتة فى مدح يحيى بن على المنجم (الديوان ١/١٠٦)

(٢) من قصيدته فى مدح أبى العباس (الديوان ٤٠٧)

(٣) من قصيدته فى مدح أحمد بن شيخ (الديوان ٢/١٠٤)

(٤) غير موجود بالديوان

(٥) هو أبو المجد مسلم بن الخضر بن مسلم بن قسيم الحموى التنوخى ، ذكره العماد فى الخريدة فى شعراء حماة بأسلوبه المسجوع المصنوع بقوله « أبو المجد مجيد الشعر ، وحيد الدهر فريد العصر ، ذورقة للقلوب مسترقة ، وللعقول مسترقة ... » إلى أن قال « كان ثالث القيسرانى وابن منير فى زمانهما ، وسبقهما فى ميدانهما ، نبغ فى عصر شيخوختهما ، وبلغ إلى درجتهما ، وراق سحرها سحره ، وفاق شعرهما شعره ، لكنه خانه عمره ، وفل شبا=

. ولقيت جماعة من الأدباء بالشام ، ووجدتهم يزعمون أن ابن قسيم هو الذي ابتدع هذا المعنى ، وليس كذلك ، وإنما هو لابن الرومي .

ومما يجرى هذا المجرى قول أبي العتاهية :

وإني لمعذورٌ على فَرْط حبِّها لأنَّ لها وَجْهاً يَدُلُّ على عُذْرِي[1]

أخذه أبو تمام فقال :

له وجـــهٌ إذا أَبصَرْ تَه ناجاكَ عن عُذْرِي[2]

فأوجز في هذا المعنى غاية الإيجاز .

ومما يجرى على هذا النهج قول أبي تمام :

كانَتْ مُساءلةُ الرُّكبانِ تخبرُني عن أحمدَ بنِ سَعِيدٍ أطيبَ الخَبَرِ

حـــتى التقَينا فلا واللهِ ما سَمِعَتْ أُذْنِي أَحْسَنَ مما قد رأى بَصَرِي

= شبابه ، وحل حبا آدابه ، وأمر جنى جنابه ، وحل شعوب بشبابه ، وذلك في سنة نيف وأربعين وخمسمائة » ومن العجيب أن يقول العماد بعد ذلك « ووجدت في ديوانه لحنا فاحشا ، ووهنا بالخطأ جائشا . ونظرت في ديوان شعره ، فالتقطت فرائد دره ، وقلائد سحره... »
وقال عنه ابن عساكر : شاب شاعر ، قدم دمشق ، ومدح أتابك زنكي . واختار له طائفة من الأبيات [وانظر خريدة القصر ، وجريدة العصر ١/٤٣١ قسم شعراء الشام ـ بتحقيق الدكتور شكري فيصل ـ دمشق ١٩٥٥]

(١) ليس بالديوان

(٢) الديوان ٣٧٤

أخذه أبو الطيب المتنبى فأوجز حيث قال :

وأستكبِرُ الأخبارَ قبلَ لِقائِهِ ‏ ‏ ‏ ‏ فلما التقينا صَغَّرَ الخَبَرَ الخُبْرُ (١)

وكذلك قولهما فى موضع آخر ، فقال أبو تمام :

كم صارمٍ عَضْبٍ أنافَ على فتىً ‏ ‏ ‏ ‏ منهم لأعباءِ الوغى حمَّالِ
سَبَقَ المشيبَ إليـــه حتى ابتزَّه ‏ ‏ ‏ ‏ وَطنَ النُّهى من مَفْرِقٍ وقَذالِ (٢)

أخذه أبو الطيب فزاد وأحسن حيث قال :

يسابِقُ القتلُ فيهم كلَّ حادثةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ فما يُصيبهمُ مَوْتٌ ولا هَرَمُ (٣)

ومن هذا الضرب قول بعض الشعراء .

أمِنْ خَوْفِ فَقْرٍ تَعَجَّلْتَهُ ‏ ‏ ‏ ‏ وأخَّرْتَ إنفاقَ ما تَجْمَعُ
فصرتَ الفقيرَ وأنت الغنيُّ ‏ ‏ ‏ ‏ وما كنتَ تَعْدُو الذى تَصْنَعُ

---

(١) من مدحه لعلى بن أحمد بن عامر الأنطاكى (الديوان ٢/٣١١)

(٢) من قصيدته فى مدح المعتصم بعد هزيمة الخرمية (الديوان ٣/١٤١)

فى الأصل كم صارم عضب أناف على قفا . يقول هذا الصارم سبق إلى هذا الفتى الشيب فسلبه رأسه وأم دماغه الذى هو وطن العقل .

(٣) من قصيدته فى مدح سيف الدولة وقد انتصر على الروم

مطلعها :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ‏ ‏ ‏ ‏ ماذا يزيدك فى إقدامك القسم

(الديوان ٤/١٨٣)

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال

ومن يُنفِقِ الساعاتِ في جَمعِ ماله مخافَةَ فقرٍ فالّذي فَعَلَ الفقرُ[1]

الضرب التاسع من السلخ :

وهو أن يكون المعنى عاما فيجعل خاصا، أو خاصا فيجعل عاما ، وهو من السرقات التي يسامَحُ صاحبها .

فمن ذلك قول الأخطل :

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتِيَ مِثْلَهُ عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ[2]

أخذه أبو تمام فقال .

أألوم من بَخِلَتْ يداه وأغتَدِي للبخل تِرْبًا ساء ذاك صَنيعا[3]

وهذا من العام الذي جعل خاصا ، ألا ترى أن الأول نهى عن الإتيان بما يَنْهَى عنه مطلقا ، وجاء بالخُلُق منكّرا فجعله شائعا في بابه ، وأما أبو تمام فإنه خصص ذلك بالبخل ، وهو خُلُق واحد من جملة الأخلاق .

---

(١) من مدحه لعلي بن أحمد بن عامر الأنطاكي ، ومطلع القصيدة :

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبر

(الديوان ٢/٣٠٥)

(٢) ويروى لأبي الأسود الدؤلي ويروى للمتوكل الليثي وقد أكد ذلك الآمدي في المؤتلف والمختلف ١٧٩ والمرزباني في معجم الأدباء ٤١٠

(٣) النص بالديوان صفحة ٢٨٦ هكذا :

أألوم من بخلت يداه وأغتدي في تالدي للسائلين مطيعا

آبى فأعصي العاذلين وأغتدي للبخل تربا ساء ذاك صنيعا

وأما جعل الخاص عاما فكقول أبى تمام :

ولو حارَدَتْ شَوْلٌ عَذَرْتُ لِقَاحَها
ولكنْ مُنِعْتُ الدَّرَّ والضَّرْعُ حَافِلُ(١)

أخذه أبو الطيب المتنبي فجعله عاما إذ يقول :

وما يُؤْلِمُ الحِرْمانُ من كَفِّ حَارِمٍ
كما يُؤْلِمُ الحرمانُ من كفِّ رازِقِ(٢)

الضرب العاشر من السلخ :

وهو زيادة البيان مع المساواة فى المعنى ، وذاك بأن يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه .

فما جاء منه قول أبى تمام :

هو الصُّنْعُ إن يَعْجَلْ فنَفْعٌ وإن يَرِثْ ... فللرَّيْثُ فى بعض المواطن أَنْفَعُ(٣)

---

(١) من قصيدة فى مدح محمد بن عبد الملك الزيات
(الديوان ٣/١٢٩)
أى أن مطالك دام وطال مع طول أملى فيك ، ولوكان ذلك لإعوازك لعذرتك ، ولكنك حرمتنى ومالك كثير ، وعطاؤك ممكن .
حاردت : قل لبنها . الشول : النوق القليلات اللبن، جمع شائلة . حافل : ممتلىء
(٢) من قصيدة فى مدح سيف الدولة بن حمدان مطلعها :
تذكرت مابين العذيب وبارق ... مجر عوالينا ومجرى السوابق
(الديوان ٣/٧٧)
(٣) من قصيدة فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى ، مطلعها :
أما إنه لولا الخليط المودع ... وربع عفا منه مصيف ومربع
(الديوان ٣/٣١٩)
والقافية بالديوان (أسرع) بدلا من (أنفع)

أخذه أبو الطيب فأوضحه بمثال ضربه له وذلك قوله :

ومن الخيرِ بُطء سَيْبِك عَنِّي   أسرَعُ السُّحْبِ في المَسِيرِ الجَهامُ (١)

وهذا من المبتدع لا من المسروق ، وما أحسن ما أتى بهذا المعنى في المثال المناسب له .

وكذلك قولهما في موضع آخر ، فقال أبو تمام :

قد قَلَّصَتْ شَفتاه من حَفِيظَتِهِ   فخِيلَ من شِدَّةِ التَّعبِيس مُبتَسِمَا (٢)

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال :

وجاهلٍ مَدَّهُ في جَهلِه ضَحِكِي   حتى أتتْهُ يدٌ فَرّاسةٌ وفَمُ

إذا رأيتَ نيوبَ اللّيثِ بارزةً   فلا تظنَّنَّ أن الليثَ مُبتَسِمُ (٣)

ومما ينخرط في هذا السلك قول أبي تمام :

وكذاك لم تُفرِط كآبةُ عاطلٍ   حتى يُجاوِرَها الزمانُ بحالِي (٤)

---

(١) من قصيدة في مدح أبي الحسين علي بن أحمد المري الخراساني مطلعها :

لا افتخار إلا لمن لا يضام   مدرك أو محارب لا ينام

(الديوان ٤/٢٨٦)

سيبك : عطائك . الجهام : السحاب الذي لا ماء فيه

(٢) من قصيدته في مدح إسحاق بن إبراهيم (الديوان ٣/١٧٠) أي قد أبرزت شفتاه أسنانه من شدة الغضب

(٣) من قصيدته في عتاب سيف الدولة التي مطلعها :

واحر قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمي وحالي عنده سقم

(الديوان ٤/١٠٤) شبم : بارد . والبيت الثاني بالديوان (إذا نظرت) يد فراسة : يد باطشة شديدة الافتراس .

(٤) من قصيدته في مدح المعتصم مطلعها :

آلت أمور الشرك شر مآل   وأقر بعد تخمط وصيال

(الديوان ٣/١٣٢)

أخذه أبو عبادة البحترى فقال :

وقد زادها إفراطَ حُسْنٍ جِوارُها ... لأخلاقِ أصْفارٍ عن المجدِ خُيَّبِ

وحُسْنُ دَرارِيِّ الكواكبِ أن تُرَى ... طوالعَ فى داجٍ من الليل غَيْهَبِ (١)

فإنه أتى بالمعنى مضروباً له هذا المثال الذى أوضحه وزاده حسناً

الضرب الحادى عشر من السلخ :

وهو اتحاد الطريق واختلاف المقصد ، ومثاله أن يسلك الشاعران طريقا واحدة فتخرج بهما إلى موردين أو روضتين، وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر .

فمما جاء من ذلك قول أبى تمام فى مرثية بولدين صغيرين :

مَجْدٌ تأوَّبَ طارقاً حتى إذا ... قُلْنا أقامَ الدهرَ أصبحَ راحِلا

نَجْمان شاء الله ألاّ يَطْلُعا ... إلا ارتدادَ الطَّرْف حتى يَأْفُلا

إن الفجيعةَ بالرياض نَواضِراً ... لأجَلُّ منها بالرياض ذَوابلا

لَهْفِى على تلك الشواهدِ فيهما ... لو أُخِّرَتْ حتى تكون شمائلا

إن الهلالَ إذا رأيتَ نُمُوَّه ... أيقنْتَ أنْ سيكون بَدْراً كاملا

قلْ للأمير وإن لقِيتَ مُوَقَّرا ... منه بِرَيْبِ الحادثاتِ حُلاً حِلا

إن تُرْزَ فى طرَفَىْ نهارٍ واحدٍ ... رُزْءَيْنِ هاجا لَوْعَةً وبَلابلا

فالثِّقْلُ ليس مُضاعفاً لِمطيَّةٍ ... إلا إذا ما كان وَهْماً بازلا

لا غَرْوَ إنْ فَنَنَان من عِيدانه ... لقِيا حِماماً للبَرِيَّة آكلا

---

(١) من قصيدته فى مدح الفتح بن خاقان (الديوان ١/٥٠)
وبالديوان (خلائق أصفار) داج غيهب : مظلم شديد الظلام .

إن الأشاء إذا أصاب مُشَذِّبٌ ... منه انمهلّ ذُرًا وأثّ أسافلا
شمخت خلالك ان يواسيك امرؤٌ ... أو أنْ تُذكَّرَ ناسياً أو غافلا
إلا مواعظُ قادها لك سَمْحةً ... إسجاحُ لُبِّك سامعاً أو قائلا
هل تَسكُفُ الأيدى بهزِّ مهنّدٍ ... إلا إذا كان الحسام القاصلا ؟(١)

وقال أبو الطيب فى مرثية بطفل صغير :

فإن تكُ فى قبرٍ فإنك فى الحشا
وإن تك طفلاً فالأسى ليس بالطفلِ
ومثلك لا يُبكَى على قدْرِ سنِّه
ولكنْ على قدْرِ الفِراسةِ والأصْلِ
ألستَ من القوم الذى من رماحِهمْ
نداهمْ ومِنْ قتلاهُمُ مُهجةُ البُخلِ ؟

بمولودِهم صمتُ اللسان كغيرهِ ... ولكنَّ فى أعطافهِ منطقَ الفَصْلِ
تُسَلِّيهِمُ عَلياؤُهُمْ عن مُصابِهِمْ ... ويَشغَلُهم كَسْبُ الثناء عن الشُّغْلِ
عزاءَكَ سيفَ الدولةِ المُقتدَى بهِ ... فإنك نَصْلٌ والشدائدُ للنَّصْلِ
تَخُونُ المنايا عَهْدَه فى سَليلِهِ ... وتَنصُرُه بين الفَوارِسِ والرَّجْلِ

---

(١) ليست القصيدة بديوانه بشرح التبريزى ولابطبعة محمد جمال

تأوب طارقا : رجع زائرا . شمائل : طباع . موقر : رزين . حلاحل : رزين أو سيد شجاع . وهم : جمل ضخم قوى ذلول . بازل : جمل بلغ التاسعة من عمره فاكتمل . فتنان : المراد ولدان . الأشاء : صغار النخل . انمهل . اعتدل وانتصب . أث : التف وكثر. إسجاح : سماحة . المهند : السيف . الحسام القاصل : السيف القاطع .

بنفسِي وليدٌ عاد مِنْ بَعْدِ حملِهِ   إلى بَطْنِ أمٍّ لا تُطَرِّقُ بالحَمْلِ

بَدَا وَله وَعْدُ السَّحابةِ بالرَّوَى   وصَدٌّ وفينا غُلَّةُ البَلدِ المَحْلِ

وقد مَدَّتِ الخيلُ العِتاقُ عُيونَها

إلى وَقْتِ تبديلِ الرِّكابِ من النَّعْلِ

وَريعَ له جَيْشُ العَدُوِّ وما مَشَى

وجاشَتْ له الحربُ الضَّروسُ وما تَغْلِي(١)

فتأمل أيها الناظم إلى ما صنع هذان الشاعران فى هذا المقصد الواحد ، وكيف هام كل واحد منهما فى واد منه ، مع اتفاقهما فى بعض معانيه ؟ .

وسأبين لك ما اتفقا فيه وما اختلفا ، وأذكر الفاضل من المفضول ، فأقول : أما الذى اتفقا فيه فإن أبا تمام قال :

لَهْفِى على تلك الشواهد فيهما   لو أُخِّرت حتى تكون شمائلا

وأما أبو الطيب فإنه قال :

ولدهم صَمْتُ اللسان كغيره   ولكنَّ فى أعطافه منطق الفَصْلِ

---

(١) من مرثيته لأبى الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة (الديوان ٤/٢٠٩) وبالديوان (المخيلة والأصل) و (الألى من رماحهم) . الفراسة : المخيلة . الأعطاف : جمع عطف وهو الجانب . منطق الفصل : القول الصائب الحاسم . مصابهم : إصابتهم . الشغل : الاهتمام بما عدا كسب الثناء والمحامد . عزاءك : تعز عزاءك ، أو الزم عزاءك . به : الضمير يعود على العزاء . نصل : سيف . الرجل : جمع راجل وهو الماشى . تطرق بالحمل : لا تخرج الولد من بطنها . الروى : الرواء والرى . غلة : عطش . المحل : الجديب . الخيل العتاق : الكرام . الركاب : ماتوضع فيه الرجل من السرج . ريع : أخيف . جاشت : غلت وهاجت . الضروس : الشديدة العض .

فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام ، وزاد عليه بالصناعة اللفظية ، وهى المطابقة فى قوله صمت اللسان ومنطق الفصل .

وقال أبو تمام :

نجمان شاء الله ألا يَطلعا إلا ارتداد الطرفِ حتى يَأفلا

وقال أبو الطيب :

بَدَا وله وَعد السحابة بالروى وصدٌ وفينا غلة البلد المحل

فوافقه فى المعنى وزاد عليه بقوله (وصدو فينا غلة البلد المحل) لأنه بين قدر حاجتهم إلى وجوده وانتفاعهم بحياته .

وأما ما اختلفا فيه فإن أبا الطيب أشعر فيه من أبى تمام أيضاً ، وذاك أن معناه أمتن من معناه ، ومبناه أحكم من مبناه .

وربما أكبر هذا القولَ جماعةٌ من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقدمه ، لا مع فضيلة القول وتقدمه ، وأبو تمام وإن كان أشعر عندى من أبى الطيب فإن أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع .

وبيان ذلك أنه قد تقدم القول على ما اتفقا فيه من المعنى .

وأما الذى اختلفا فيه فإن أبا الطيب قال :

عزاءك سيفَ الدولة المُقتَدى به فإنك نَصْلٌ "والشدائد للنَّصْل

وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام اللذين هما :

أن ترُزَفى طرفى نهار واحد رزأين هاجا لوعة وبلابلا

فالثِّقلُ ليس مُضاعفًا لِطيَّةٍ إلا إذا ما كان وَهْماً بازِلا

فإن قول أبى الطيب (والشدائد للنصل) أكرم لفظا ومعنى من قول أبى تمام (إن الثقل إنما يضاعف للبازل من المطايا) .

وقوله أيضا :

تخون المنايا عهده فى سليله وتنصره بين الفَوارِسِ والرَّجْلِ

وهذا أشرف من بيتى أبى تمام اللذين هما :

لاعَـزْوَ إنْ فننان من عِيدانه لقِيا حِماماً للبرِيَّةِ آ كلا

إن الأشاء إذا أصاب مُشَذِّبٌ منه انمَهَلَّ ذُراً وأثَّ أسافلا

وكذلك قال أبو الطيب :

ألستَ من القوم الذى من رماحهم
نداهم ومن قتـــلاهُمُ مُهجَةُ البُخْلِ
تُسَلِّيهمُ عَلياؤهمْ عن مصابِهمْ ويَشْغَلُهم كَسْبُ الثناء عن الشُّغْلِ

وهذان البيتان خير من بيتى أبى تمام اللذين هما :

شمَخَتْ خِلالك أن يُواسِيَكَ امرؤ
أو أن تُذَكَّرَ ناسياً أو غافـــلا
إلا مَواعظ قادها لك سَمْحَةً إسْجَاحُ لُبِّك سامعا أو قائلا

واعلم أن التفضيل بين المعنيين المتفقين أيسر خطبا من التفضيل بين المعنيين المختلفين .

وقد ذهب قوم إلى منع المفاضلة بين المعنيين المختلفين ، واحتجوا على ذلك بأن قالوا : المفاضلة بين الكلامين لاتكون إلا باشتراكهما فى المعنى ، فإن اعتبار التأليف فى نظام الألفاظ لايكون إلا باعتبار المعانى المندرجة تحتها ، فالم يكن بين الكلامين اشتراك فى المعنى فإنه لا يُعلَمُ مواقعُ النظم فى قوة ذلك المعنى أو ضعفه واتساق ذلك اللفظ أو اضطرابه ، وإلا فكلُّ كلامٍ له تأليفٌ يخصه بحسب المعنى المُنْدَرِجِ تحتَه ، وهذا مثل قولنا : العَسَلُ أَحْلَى من الخَلِّ ، فإنه ليس فى الخل حلاوة حتى تقاس حلاوة العسل عليها .

وهذا القول فاسد ، فإنه لو كان ما ذهب إليه هؤلاء من مَنْع المفاضلة حقا لوجَبَ أن تسقط التفرقة بين جيد الكلام ورديئه وحسنه وقبيحه ، وهذا محال .

وإنما خَفِىَ عليهم ذلك لأنهم لم ينظروا إلى الأصل الذى تقع المفاضلة فيه ، سواء اتفقت المعانى أو اختلفت ، ومن هنا وقع لهم الغلط .

وسأبين ذلك فأقول : من المعلوم أن الكلام لايختص بمزية من الحسن حتى تتصف ألفاظه ومعانيه بوصفين هما الفصاحة والبلاغة ، فثبت بهذا أن النظر إنما هو فى هذين الوصفين اللذين هما الأصل فى المفاضلة بين الألفاظ والمعانى على اتفاقهما واختلافهما ، فمتى وُجِدَا فى أحد الكلامين دون الآخر ، أو كانا أخص به من الآخر ، حُكِمَ له بالفضل .

وقرأت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج فى تفضيل الشعر أشياء تتضمن خَبْطا كثيرا ، وهو مَرْوِىّ عن علماء العربية ، لكن عَذَرْتُهم فى ذلك ، فإن معرفة الفصاحة والبلاغة شىء خلاف معرفة النحو والإعراب .

فمما وقفت عليه أنه سئل أبو عمرو بن العلاء عن الأخطل فقال : لو أدرك يوما واحدا من الجاهلية ما قدّمتُ عليه أحدا [١] .

وهذا تفضيل بالأعصار لا بالأشعار ، وفيه ما فيه ، ولولا أن أبا عمرو عندى بالمكان العَلِيّ لبسطتُ لسانى فى هذا الموضع .

وسئل جرير عن نفسه وعن الفرزدق والأخطل فقال : أما الفرزدق ففى يده نَبعة من الشعر وهو قابض عليها ، وأما الأخطل فأشدُّنا اجتراء ، وأرمانا للفرائص [٢] ، وأما أنا فمدينة الشعر .

وهذا القول فى التفضيل قول إقناعى [٣] لا يُحَصِّلُ منه على تحقيق ، لكنه أقرب حالا مما روى عن أبى عمرو بن العلاء .

وسئل الأخطل عن أشعر الناس فقال : الذى إذا مَدَحَ رفع ، وإذا هجا وَضَع ، فقيل فمن ذاك ؟ قال : الأعشى . قيل : ثم مَنْ ؟ قال طَرَفة .

وهذا قول فيه بعض التحقيق ، إذْ ليس كل من رفع بمدحه ووضع بهجائه كان أشعر الناس ، لأن المعانى الشعرية كثيرة والمدح والهجاء منها .

وسئل الشريف الرَّضِيُّ عن أبى تمام وعن البحترى وعن أبى الطيب ، فقال : أما أبو تمام فخطيب مِنْبَرِ ، وأما البحترى فواصف جُؤْذَرٍ [٤] ، وأما المتنبى فقائد عسكر .

---

(١) الأغانى ٧/١٦٣ وفيه تفضيل له على معاصريه

(٢) الفرائص : جمع فريصة وهى اللحمة بين الجنب والكتف ، والمراد المقاتل .وكانت بالأصل (القرائض) ولعلها الفرائص كما رجحنا ، أو القريض بمعنى الشعر

(٣) يريد أنه كلام خطابى لادليل عليه .

(٤) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية ، والمراد أنه صاحب غزل

وهذا كلام حسن واقع فى موقعه ، فإنه ، وصف كلا منهم بما فيه من غير تفضيل .

ويروى عن بشار أنه وصف نفسه بجودة الشعر والتقدم على غيره فقيل له : ولم ذاك ؟ فقال : لأنى نظمت اثنى عشر ألف قصيدة وما تخلو واحدة منهن من بيت واحد جيد ، فيكون لى حينئذ اثنا عشر ألف بيت .

وقد تأملت هذا القول فوجدته على بشار لاله ، لأن باقلا الذى يُضْرَبُ به المثل فى العِىّ لو نظم قصيدا لما خلا من بيت واحد جيد ، ومن الذى ينظم قصيدا واحدا من الشعر ولا يسلم له منه بيت واحد ؟

لكن كان الأولى ببشارأن قال : لى اثنا عشر ألف قصيدة ليس واحدة منهن إلا وجيدها أكثر من رديئها ، وليس فى واحدة منهن ما يَسْقُط ، فإنه لو قال ذلك وكان مُحِقا لاستحق التقدم على الشعراء ، ومع هذا فقد وصل إلىّ ما فى أيدى الناس من شعره مُقَصَّدا ومُقَطعا ، فما وجدُته بتلك الغاية التى ادعاها ، لكن وجدت جيده قليلا بالنسبة إلى رديئه ، وتندر(١) له الأبيات اليسيرة .

وبلغنى عن الأصمعى وأبى عبيدة وغيرهما أنهم قالوا : هو أشعر الشعراء المحدثين قاطبة ، وهم عندى معذورون ، لأنهم ما وقفوا على معانى أبى تمام ، ولا على معانى أبى الطيب ، ولا وقفوا على ديباجة أبى عبادة البحترى

وهذا الموضع لا يُسْتَفْتَى فيه علماء العربية وإنما يُسْتَفْتَى فيه كاتبٌ بليغ أوشاعر مُفْلِق ، فإن أهل كل علم أعلم به . وكما لا يُسْأل الفقيه عن مسألة حسابية فكذلك لا يُسْأل الحاسب عن مسألة فقهية ، وكما لا يسأل أيضاً النحوى عن مسألة طبية ،

---

(١) تندر : هنا بمعنى تظهر وتشتهر من الندور لا من الندرة

فكذلك لا يسأل الطبيب عن مسألة نحوية . ولا يعلم كُلّ علم إلا صاحبه الذى قلب ظهره لبطنه وبطنه لظهره .

على أن علم البيان من الفصاحة والبلاغة محبوب إلى الناس قاطبة ، وما من أحد إلا ويحب أن يتكلم فيه ، حتى إنى رأيت أجلاف العامة ممن لم يَخُطّ بيده ، ورأيت أغتَامَ[١] الأجناس ممن لا ينطق بالكلمة صحيحة ، كلهم يخوض فى فن الكتابة والشعر ، ويأتون فيه بكل مُضْحِكة ، وهم يظنون أنهم عالمون به ، ولا لوم عليهم ، فإنه بلغنى عن ابن الأعرابى[٢] — وكان من مشاهير العلماء — أنه عُرض عليه أرجوزة أبى تمام اللامية التى مطلعها :

(وعاذلٍ عذلتُه فى عذله)

وقيل له هذه لفلان من شعراء العرب ، فاستحسنها غاية الاستحسان ، وقال:

هذا هو الدّيباج الخُسْرُوانِى[٣] ، ثم استكتبها ، فلما أتمها قيل له : هذه لأبى تمام ، فقال :

من أجل ذلك أرَى عليها أثر الكُلفة . ثم ألقى الورقة من يده ، وقال : ياغلام خَرّقْ خَرّق[٤] .

---

(١) الأغتم : من لا يفصح شيئاً ، جمعه غتم على وزن قفل .

(٢) أبو عبد الله محمد بن زياد كان من أكابر أئمة اللغة بالكوفة ، وكان ربيبا المفضل الضبي وسمع عنه الدواوين وصححها ، وكان من أحفظ الناس للغة والأنساب ، توفى سنة ٢٣١هـ (الفهرست ٦٩ ووفيات الأعيان ١/ ٤٩٢)

(٣) الديباج الخسروانى . الحرير الفارسى الفاخر

(٤) فى الصناعتين ٥٤ أن ابن الأعرابى كان يأمر بكتابة جميع ما يجرى فى مجلسه . فأنشده رجل يوما أرجوزة أبى تمام فى وصف السحاب ، على أنها لبعض العرب .

سارية لم تكتحل بغمض كدراء ذات هطلان محض =

فإذا كان ابن الأعرابى مع علمه وفضله لايَدْرِى أىُّ طرفيه أطْوَلُ فى هذا الفن ، ولا يَعْلَمُ أين يَضَعُ يده فيه ، ويبلغ به الجهل إلى أن يقف مع التقليد الشنيع الذى هذا غايته ، فما الذى يقول غيره ؟ وما الذى يتكلم فيه سواه ؟

والمذهب عندى فى تفضيل الشعراء أن الفرزدق وجريرا والأخطل أشعر العرب أولا وآخرا ، ومن وقف على الأشعار ، ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة، علم ما أشرتُ إليه .

ولا ينبغى أن يُوقَفَ مع شعر امرىء القيس وزهير والنابغة والأعشى ، فإن كلا من أولئك أجاد فى معنى اختص به ، حتى قيل فى وصفهم : امرؤ القيس إذا ركِب ، والنابغة إذا رَهِب ، وزهير إذا رَغِب ، والأعشى إذا شَرِب .

وأما الفرزدق وجرير والأخطل فإنهم أجادوا فى كل ما أتوا به من المعانى المختلفة ، وأشعر منهم عندى الثلاثة المتأخرون ، وهم أبو تمام وأبو عبادة البحترى وأبو الطيب المتنبى[1] ؛ فإن هؤلاء الثلاثة لايدانيهم مُدانٍ فى طبقة الشعراء .

أما أبو تمام وأبو الطيب فرَبَّا المعانى ، وأما أبو عبادة فرَبُّ الألفاظ فى ديباجتها وسَبْكها . وبلغنى أن أبا عُبادة البحترى سأل ولده أبا الغَوْث عن الفرزدق وجرير أيهما أشعر ، فقال : جرير أشعر . قال : وبم ذلك ؟

= ....

فقال ابن الأعرابى . اكتبوها . فلما كتبوها قيل له : إنها لحبيب بن أوس ، قال : خرق خرق ، لاجرم أن أثر الصنعة فيها بين .

(١) لقد قال منذ بضعة أسطر إن الفرزدق وجريرا والأخطل هم أشعر العرب أولا وآخرا . وها هوذا يقول إن أباتمام والبحترى والمتنبى أشعر منهم ، فكيف ذلك .

قال : لأن حَوْكه شبيه بحَوْكك[1] . قال ثكلتك أمك ، أوَفي الحكم عصبية ؟ قال يا أبت فمن أشعر ؟ قال : الفرزدق . قال : وبم ذاك ؟ قال : لأن أهاجي جرير كلها تدور على أربعة أشياء هي : القَيْن ، والزِّنا ، وضرب الرومي بالسيف ، والنفي من المسجد ، ولا يهجو الفرزدقَ بسوى ذلك . وأما الفرزدق فإنه يهجو جريرا بأنحاء مختلفة ، ففي كل قصيد يرميه بسهام غير السهام التي يرميه بها في القصيد الآخر[2]. وأنا استكذب راوي هذه الحكاية ، ولا أصدقه ، فإن البحتري عندي ألَبُّ من ذلك ، وهو عارف بأسرار الكلام ، خبير بأوساطه وأطرافه وجيده ورديئه ، وكيف يَدَّعي على جرير أنه لم يهج الفرزدق إلا بتلك المعاني الأربعة التي ذكرها ، وهو القائل :

لما وضعتُ على الفرزدق ميسمي ... وعلى البَعيثِ جَدَعْتُ أنفَ الأخطلِ[3]

فجمع بين هجاء هؤلاء الثلاثة في بيت واحد .

ولقد تأملت كتاب النقائض فوجدت جريرا رب تَغَزُّل ومديح وهجاء وافتخار ، وقد كسا كل معنى من هذه المعاني ألفاظا لائقة به . ويكفيه من ذلك قوله :

وعاوٍ عوَى من غير شيء رَمَيْتُهُ ... بقارعة أنفاذها تَقْطُرُ الدَّمَا
وإني لقوَّالٌ لكل غريبةٍ ... وَرُودٍ إذا السَّاري بليل تَرَنَّما
خَرُوجٍ بأفواه الرُّواة كأنها ... شَبَا هُنْدُوانيٍّ إذا هُزَّ صَمَّما

---

(١) يربط أساليبه وتعبيره .
(٢) في الصناعتين ٢٤ ذكر لهذا التفضيل موجز
(٣) الديوان ٤٤٣ .

غرائب ألاَّف إذا حان وِرْدُها　　أَخَذْنَ طريقاً للقصائدِ مُعْلما(١)

ولو لم يكن لجرير سوى هذه الأبيات لتقدم بها الشعراء ، وسأذكر من هجائه للفرزدق ما ليس فيه شيء من تلك المعانى الأربعة التى أشار البحترى إليها ، فمن ذلك قوله :

وقد زعموا أن الفرزدقَ حَيَّةٌ　　وما قَتَلَ الحياتِ من أحدٍ قَبْلِى

ألم تَرَأنى لا تُبِلُّ رَمِيَّتِى　　فَمَنْ أرمِ لا تُخْطِىءْ مَقَاتِلَهُ نَبْلِى

رَأَيتُك لا تَحْمِى عِقالاً وَلَمْ تُرِدْ　　قِتالاً فما لاقيتَ شَرٌّ من القتلِ(٢)

وقوله :

أَبلِغْ هَدِيَّتِي الفَرَزدَقَ إنها　　عِبْءٌ يُزَادُ على حَسِيرٍ مُثْقَلِ

إنِّى انصَبَبْتُ من السماء عليكمُ

حتى اختطفتُك يافرزدقُ من عَلِ(٣)

(١) كان بالأصل (بقانية أنفاذها يقطر الدما) و (جروخ بأفواه الرواة) و (هز صمصما) . وبالديوان (قرأ . هندوانى) الديوان ٥٤٤ أنفاذها : أقطارها . ورود : كثيرة الورود يريد أن قصائده سريعة الذيوع . خروج بأفواه الرواة : دائمة على ألسنتهم لا يستطيعون كتمانها . شبا هندوانى : حد سيف . صمم : قطع وأصاب المفصل . معلم : معلوم معروف

(٢) من هجائه للبعيث والفرزدق (الديوان ٤٦٤) وترتيب الأبيات فى الديوان أن الثالث هو الثانى ، وبين الأول والثانى ثلاثة أبيات ، وبين الثانى والثالث ستة أبيات . وبالأصل (لا أنبل رميق) فأصلحناها من الديوان .

لاتبل رميتى : لا ينجو من رميى من أرميه ولا يشفى . المقاتل : القلوب الفتية والمراد المرأة

(٣) من هجائه للفرزدق (الديوان ٤٤٤ ، ٤٤٨) والبيت الثانى هنا قبل الأول فى الديوان . وفى الديوان (عبء يزاد) حسير : كليل مجهد

وقوله :

زعمَ الفرزدقُ أن سيقتلُ مِربعاً أبشر بطول سلامةٍ يامِربعُ
ورأيتُ نَبْلكَ يافرزدقُ قصَّرتْ ورأيتُ قوسك ليس فيها مَنزعُ
إن الفرزدقَ قد تبيَّنَ لؤمُهُ
حيث التقتْ حُشَشاؤه والأخدعُ(١)

وقوله :

أحارثُ خُذْ مَنْ شئتَ مِنَّا ومنهمُ ودَعنا نَقِسْ مجداً تُعَدُّ فواضِله
لبئستْ سِلاحى والفرزدقُ لُعْبَةٌ عليه وشاحا كُرَّجٍ وجَلاجِلُهْ
فلستَ بذِى عِزٍّ ولا ذِى أرومةٍ وماتُعْطِ من ضَيْمٍ فإنك قابِلُهْ(٢)

وقوله :

لا يخفَينَّ عليك أن مُجاشِعاً لو يُنْفَخُون من الخُؤُورة طارُوا

(١) من هجائه للفرزدق (الديوان ٣٤٨ ، ٣٥١) والبيت الثانى هنا موضعه بالديوان بعد أبيات من الثانى . مربع : لقب لراوية جرير ، وكان الفرزدق قد حلف ليقتلنه . الحششاء : العظم الناتىء خلف الأذن . الأخدع : عرق فى صفحة العنق . وبالديوان (ووجدت قوسك) منزع : مد .

(٢) من هجائه للفرزدق (الديوان ٤٨٥) بالأصل (فضائله) والأبيات بالديوان هكذا ، مع تباعد ما بينها :

ليست أداتى والفرزدق لعبة عليه وشاحا كرج وجلاجله
أحارث خذ . . . .
ولست بذى درء ولاذى أرومة وماتعط من ضيم فإنك قابله

كرج : الكرج المهر والكرجى المخنث . الجلاجل : جمع جلجل وهو الجرس الصغير .

قد يُؤسَرون فلا يُفكُّ أسيرُهم ويُقتَّلون فتَسْلَمُ الأوتار(١)

وقوله :

بَنى مالكٍ إن الفرزدقَ لم يَزَلْ
يُلقَّى المخازِى من لَدُنْ أنْ تَيَفَّعا
مَدَدْتُ له الغـاياتِ حتى تَرَكْتُه
قَعودَ القوافِى ذَا عُلوبٍ مُوَقَّعا(٢)

وقوله :

ألا إنمـا كان الفرزدقُ ثعلبـاً
ضَغَا وَهْوَ فى أشداقِ لَيثٍ ضُبارمِ(٣)

وقوله :

مهلاً فرزدقُ إن قومك فيهمُ خَوَرُ القلوبِ وخِفَّةُ الأحلامِ
الظاعِنُون على العَمَى بجَميعِهِمْ والنازلون بشرِّ دارِ مُقامِ(٤)

(١) من رثائه لزوجته (الديوان ٢٠٧) كان بالأصل (فتسلم الآثار) وبالديوان (فما يفك)

(٢) من هجائه للفرزدق (الديوان ٣٣٤) كان بالأصل (أن تيفعا) والبيتان بالديوان هكذا :

بنى مالك إن الفرزدق لم يزل فلو المخازى من لدن أن تيفعا
مددت له الغايات حتى نخسته جريع الدنابى فانى السن مقطعا

فلو المخازى : رضيعها . ذو علوب : المراد جروح . موقع : مرمى من قرب أو مكوى . الدنابى : العجز . مقطع : لاقدرة له على الضراب

(٣) (الديوان ٥٥٨) الضبارم : الأسد القوى الشديد . ضغا : صاح

(٤) هذان البيتان كما فى النقائض مما هجابه جرير غسان بن ذهل السليطى ، ورواية النقائض للبيت الأول : (أبنى أديرة إن فيكم فاعلموا) ولكنهما فى الديوان من هجاء جرير للفرزدق (الديوان ٥٥٢).

وقوله :

إذا سَفَرَت يوماً نساء مُجاشِعٍ بَدَتْ سَوْأةٌ مما تُجِنُّ البَرَاقِعُ
مَباشِيمُ عن غِبِّ الخَزِيرِ كأنما تُصَوِّتُ فى أغفاجهن الضَّفادع
رأتْ مالكٌ نَبْلَ الفرزدق قَصَّرَتْ
عن الغُـــلوِ لا يَأْبَى عن الغُلوِ بارع
أَتَعْدِلُ أحسابا كراماً حُماتُها بأحسابكم إنى إلى الله راجع
إذا قيل أىُّ الناسِ شرٌّ قبيلةً وأعظمُ عاراً قيل : تلك مُجاشِعُ(١)

وقوله :

عَلِقَ الأُخَيْطلُ فى حِبالى بَعْدَما عَثَرَ الفرزدَق ، لا لَعاً للعاثِرِ
لقِىَ الفرزدُق مالقِيتَ وقَبْلَهُ طاح البَعِيثُ بغير عِرضٍ وافر
وإذا رَجَوْا أن يَنْقُضُوا لِى مِرَّةً
مَرَسَتْ قُواى عليهمُ وَمَرائِرى(٢)

ولجرير مواضع كثيرة فى هجاء الفرزدق غير هذه ، ولولا خوف الإطالة

---

(١) من هجائه للفرزدق والبعيث (الديوان ٢٦٧) وترتيبها هنا يخالف ترتيبها فى الديوان . والبيت الأول بالديوان هكذا :

رأت مالك نبل الفرزدق قصرت عن المجد إذ لا يأتلى الغلو نازع

وكان بالأصل (رأت مللا مثل) و (غب الحرير)
نبل الفرزدق : شعره . لايأتلى : لايقصر . الغلو : رفع اليدين بالسهم الى أقصى غاية مباشيمَ : متخمات . الخزير : حساء من دسم . الأعناج : الأمعاء . مجاشع : قوم الفرزدق

(٢) من هجائه الاخطل (الديوان ٣٠٧)
كان بالأصل (التعيس) بدلا من البعيث . ورواية الديوان (لقى الأخيطل ما لقيت) و (أن ينقضوا منى قوى) لالدا له : لا انتعاش له من سقطته .

لاستقصيتها جميعا .

ولو سلمتُ إلى البحترى ما زعم من أن جريرا ليس له فى هجاء الفرزدق إلا تلك المعانى الأربعة لاعترضت عليه بأنه قد أقر لجرير بالفضيلة .

وذلك أن الشاعر المفلق أو الكاتب البليغ هو الذى إذا أخذ معنى واحدا تصرف فيه بوجوه التصرفات ، وأخرجه فى ضروب الأساليب ، وكذلك فعل جرير ، فإنه أبرز من هجاء الفرزدق بالقَيْنِ كل غريبة ، وتصرف فيه تصرفا مختلف الأنحاء ، فمن ذلك قوله :

أَلْهَى أَبَاكَ عن المكارمِ والعُلا

لَيُّ الكتائفِ وارتِفاعُ المِرْجَلِ(١)

وقوله :

وُجِدَ الكَتِيفُ ذخيرةً فى قَبْرِه　　والكَلْبتان جُمِعن والمِئْشارُ

يَبْكِي صَداهُ إذا تَصَدَّع مِرْجَلٌ　　أو إنْ تَفَلَّقَ بُرْمَةٌ أَعْشارُ

قال الفــرزدق رَقِّعِي أكيــارنا

قالت : وكيف تُرقِّعُ الأكيار(٢) ؟

وقوله :

إذا آباؤنا وأبوك عُدُّوا　　أبانَ المُقْرِفاتُ من العِرابِ

(١) من هجائه للفرزدق (الديوان ٤٤٧) ارتفاع المرجل : إصلاحه ، لى الكتائف : إصلاح الضباب لان الكتيفة الضبة ، أو الكتيفة كلبتا الحداد يعيره فى الحالين بالحدادة

(٢) من قصيدته فى رثاء زوجته (الديوان ٢٠٢) بالأصل (الكنيف . والمنشار) وبالديوان (تثلم برمة) الكتيف : الضبة وكلبتا الحداد . المنشار : هو المنشار . تفلق برمة أعشار : تتكسر قدر أجزاء عشرة . الأكيار : جمع كير .

فأورثك العَلاةَ وأورثُونى رِباطَ الخيلِ أفنيَةَ القِبابِ
وسَيْفُ أبى الفرزدقِ فاعلَمُوه قَدُومٌ غيرُ ثابتةِ النِّصاب(١)

فانظر أيها الواقف على كتابى هذا إلى هذه الأساليب التى تصرف فيها جرير وأدارها على هجاء الفرزدق بالقَيْنِ ، فقال أولا : إن أباه شغل عن المكارم بصناعة القيون ، ثم قال ثانيا : إنه يبكى عليه ويندبه بعد الموت المِرْجَلُ والبُرْمة الأعشار التى يصلحها ، ثم قال ثالثا : إن أباك أورثك آلة القيون ، وأورثنى أبى رباط الخيل .

وقد أورد جرير هذا المعنى على غير هذه الأساليب التى ذكرتها ، ولا حاجة إلى التطويل بذلك هاهنا ، وهذا القدر فيه كفاية .

وحيث انتهى بنا القول إلى هاهنا فلنرجع إلى النوع الذى نحن بصدد ذكره ، وهو اتحاد الطريق واختلاف المقصد ، فمما جاء منه قول النابغة :

إذا ما غزَا بالجيش حَلَّقَ فوْقَهُ عصائبُ طيرٍ تهْتَدِى بعَصَائب
جَوَانحُ قد أيْقَنَّ أن قَبِيـــلَهُ
إذا ما التَقَى الجمعان أوّلُ غالب(٢)

وهذا المعنى قد توارد عليه الشعراء قديما وحديثا ، وأوردوه بضروب العبارات .

---

(١) الديوان ٢٧ ، ٢٩ — كان بالأصل (جدوا بأن المقرفات من الغراب) وفى الديوان (الفرزدق قد علمتم) . المقرفات : المقرف والمقرفة من الفرس وغيره مايدانى الهجنة أى أمه عربية لا أبوه . أبان : استبان . العراب : الخالصة العروبة . العلاة : السندان . الرباط : الخيل أو الخمس منها أو المكان المعد للمرابطة

(٢) (الديوان ٤٣) من مدحه لعمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن أبى شمر الغسانى حين هرب إلى الشام ونزل عنده . جوانح : مائلات للوقوع والانقضاض .

فقال أبو نواس :

تَتَأَيَّى الطـــير غَدْوَتَه ثِقَةً بالشبع من جُزُرِه(١)

وقال مسلم بن الوليد :

قد عَوَّد الطيرَ عاداتٍ وثِقْنَ بها فهنَّ يَتْبَعْنَهُ فى كلِّ مُرْتَحَلِ(٢)

وقال أبو تمام :

وقد ظُلِّلَتْ أعناقُ أعلامِهِ ضُحىً بِعقْبانِ طَيْرٍ فى الدِّماء نَوَاهِلِ
أقامَتْ مع الرَّايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تُقَاتِلِ(٣)

وقد ذكر هذا المعنى غير هؤلاء ، إلا أنهم جاءوا بشىء واحد لا تَفَاضُلَ بينهم فيه ، إلا من جهة حسن السبك ، أو من جهة الإيجاز فى اللفظ . ولم أر أحدا أغرب فى هذا المعنى فسلك هذه الطريق مع اختلاف مقصده إليها إلا مُسلم بن الوليد فقال :

أَشْرَبْتَ أرواحَ العِدا وقُلُوبَها خَوْفاً فأَنْفُسُها إليك تَطِيرُ

---

(١) من قصيدته فى مدح العباس بن عبيد الله (الديوان ٤٣١) وزهر الآداب ٤/١٣٤ ورواية الديوان (تتأيى الطير غدوته) ومعنى تتأيى تقصد . الجزر : جمع جزور وهو البعير أو الناقة المجزورة ، والمراد قتلى الحرب .

(٢) من قصيدته فى مدح يزيد بن مزيد الشيبانى (الديوان ١٢) .

(٣) من قصيدته فى مدح المعتصم والأفشين (الديوان ٨٢) وفى الديوان (عقبان أعلامه) شبه الأعلام بالعقبان ، وجعل عقبان الطير آلفة لها لما اعتادت من أكل لحوم الأعداء . وفى أخبار أبى تمام للصولى حديث عن هذا المعنى قال فيه الذى سبق إليه مسلم وأبو نواس ، وسبقهم جميعا إليه النابغة ، ثم قال إن معنى النابغة من قول الأفوه الأودى الشاعر الجاهلى :

فترى الطير على آثارنا رأى عين ثقة أن ستمار

(أخبار أبى تمام ١٦٤) ومثل هذا بالصناعتين ٢٢٥

لو حَا كَمَتْكَ فطالَبتْكَ بِذَحْلِها   شَهِدَتْ عليك ثعالبٌ ونُسورُ(١)

فهذا من المليح البديع الذى فَضَلَ به مسلمٌ غيرَه فى هذا المعنى .

وكذلك فعل أبو الطيب المتنبى ، فإنه لما انتهى الأمر إليه سلك هذه الطريق التى سلكها من تقدمه ، إلا أنه خرج فيها إلى غير المقصد الذى قصدوه ، فأغرب، وأبدع ، وجاز الإحسان بجملته ، وصار كأنه مبتدع لهذا المعنى دون غيره .

فمما جاء منه قوله :

تُفَدّى أتمُّ الطيرِ عُمْراً سِلاحَهُ   نُسُورُ المَلاَ أحداثُها والقَشاعِمُ

وما ضَرَّها خَلْقٌ بغيرِ مخالبٍ   وقد خُلِقَتْ أسيافُهُ والقَوائِمُ(٢)

ثم أورد هذا المعنى فى موضع آخر من شعره فقال :

سَحَابٌ من العِقْبانِ ترْجُفُ تَحْتَهَا

سَحَابٌ إذا استَسْقَتْ سَقَتْها صَوارِمُه(٣)

وهذا معنى قد حوى طرفى الإغراب والإعجاب .

---

(١) من قصيدته فى مدح منصور بن يزيد (الديوان ٢٢٠) بالديوان (ملاحم ونسور)، ذحلها : ثأرها

(٢) من مدحه لسيف الدولة بقصيدته التى مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم   وتأتى على قدر الكرام المكارم

(الديوان ٤/١٢٢) أحداثها والقشاعم : صغارها وكبارها . القوائم : مقابض السيوف

(٣) من قصيدته فى مدح سيف الدولة (الديوان ٤/٥٥) ورواية الديوان (يزحف تحتها) .

وقال فى موضع آخر :

وِدِى لَجَبٍ لاذُو الجَناحِ أَمَامَهُ   بنَاجٍ ولا الوَحْشُ المُثَارُ بِسَالِمِ
تَمُرُّ عليه الشمسُ وهى ضعيفةٌ   تُطَالعُه من بَيْنِ رِيش القَشَاعِمِ
إذا ضَوْءُها لاقَى من الطير فُرْجَةً   تَدَوَّرَ فوقَ البَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ (١)

وهذا من إعجاز أبى الطيب المشهور ، ولولم يكن له من الإحسان فى شعره إلا هذه الأبيات لاستحق بها فضيلة التقدم .

ومما ينتظم بهذا النوع ماتوارد عليه أبو عبادة البحترى وأبوا الطيب المتنبى فى وصف الأسد ، وقصيدتاهما مشهورتان ، فأول إحداهما :

(أَجِدَّكَ مايَنْفَكُّ يَسْرِى لِزَينبا)
وأول الأخرى (فى الخَدِّ إن عَزَمَ الخليطُ رحيلا) .

أما البحترى فإنه ألم بطرف مما ذكر بشر بن عَوَانَةَ فى أبياته الرائية التى أولها :

أفاطمُ لو شَهِدْتِ بِبطْنِ خَبْتٍ   وقد لاَقَى الهِزَبْرُ أخاكِ بِشْرا (٢)

وهذه الأبيات من النمط العالى الذى لم يأت أحد بمثله ، وكل الشعراء لم تَسْمُ قرائحهم إلى استخراج مَعْنًى ليس بمذكور فيها ، ولولا خَوْفُ الإطالة لأوردتها بجملتها ، لكنَّ الغرضَ إنما هو المفاضلةُ بين البحترى وأبى الطيب

---

(١) من قصيدته فى مدح الأمير أبى محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج (الديوان ٤/ ٣٠٤)
ذو لجب : ذو جلبة ، يصف الجيش . القشاعم : النسور . البيض : جمع بيضة وهى الخوذة .
(٢) من مقامات بديع الزمان الهمذانى : وأغلب الظن أن بشرا هذا شخص اخترعه البديع وأجرى على لسانه الأبيات .

فيما أورداه من المعانى فى هذا القصد المشار إليه .

فما جاء للبحترى من قصيدته :

وَما تَنقِمُ الحسَّادُ إلا أصالةً ... لديك وعَزْما أرْيَحِيًّا مُهَذَّبا
وقد جرَّبُوا بالأمسِ منك عزيمةً ... فَضَلْتَ بها السيفَ الحُسامَ المجرَّبا
غَداةَ لِقيتَ الليثَ والليثُ مُخْدِرٌ ... يُحَدِّدُ نابا لِلِّقاءِ ومِخْلَبا
إذا شاء غادَى عانةً أوغدَا على ... عقائلِ سِربٍ أو تقنَّصَ رَبْرَبا
شَهِدْتُ لقد أنصَفْتَهُ حينَ تَنبَرِى ... له مُصْلِتًا عَضْبًا من البِيضِ مِقْضَبا
فلم أرَ ضِرْغامَيْنِ أصْدَقَ منكما ... عِراكًا إذا الهَيَّابةُ النِّكْسُ كذَّبا
هِزَبْرًا مشَى يَبْغِى هِزَبْرًا وأغْلبًا ... من القَوم يَغْشَى باسِلَ الوَجْهِ أغْلَبا
أدَلَّ بشَغْبٍ ثم هالَتْه صَوْلةٌ ... رآكَ لها أمْضَى جَنانًا وأشْغَبا
فَأحْجَمَ لمَّا لم يَجِد فيك مَطْمَعًا ... وأقدَمَ لما لم يَجِدْ عنك مَهْرَبا
فلم يُغْنِهِ أنْ كرَّ نحوك مُقْبِلًا ... ولم يُنْجِهِ أن حاد عنك مُنَكِّبا
حَمَلْتَ عليه السيفَ لا عَزْمُكَ انثَنَى ... ولا يَدُكَ ارتدَّتْ ولا حدُّه نَبا(١)

ومما جاء لأبى الطيب المتنبى فى قصيدته :

أمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الهِزَبْرِ بسَوْطِهِ ... لمن ادَّخَرْتَ الصَّارمَ المَصْقُولا ؟
وَرْدٌ إذا وَرَدَ البُحَيْرَةَ شاربًا ... وردَ الفراتَ زَئيرُه والنِّيلا

---

(١) من قصيدته فى مدح عبد الله بن دينار ووصف مبارزته للأسد (الديوان ٥٥) بالديوان (وماتنقم الحساد) و (يوم تنبرى) . أريحى : الأريحى الواسع الخلق . مخدر : ملازم للأجمة . غادى عانة : باكر قطيعا من حمر الوحش . عقائل سرب : ظباء نفيسة . تقنص ربربا : افترس قطيعا من بقر الوحش . مقضب : قاطع . ضرغامين : أسدين . النكس : الجبان . هزبر : أسد . أغلب : ضخم العنق والأسد يوصف بذلك . أدل بشغب : انبسط بالهياج . أمضى جنانا : أقوى قلبا .

مُتَخَضِّبٌ بدمِ الفوارسِ لابسٌ   في غِيلِهِ من لِبْدَتَيهِ غِيلا
ما قُوبِلَتْ عيناه الا ظُنَّتَا   تحتَ الدُّجى نارَ الفَرِيقِ حُلولا
في وحدة الرُّهبانِ الا أنه   لا يعرفُ التَّحريمَ والتحليلا
يَطأُ الثرى مُتَرَفِّقاً من تيهِهِ   فكأنه آسٍ يَجُسُّ عليلا
ويَرُدُّ عُفْرَتَهُ إلى يافُوخِهِ   حتى تصيرَ لرأسه إكليلا
قَصُرَتْ مخافَتُهُ الخُطا فكأنما   ركِبَ الكَمِيُّ جوادَهُ مَشْكولا
ألقى فريسَتَهُ وزمجرَ دُونها   وقَرُبْتَ قُرْباً خاله تطفيلا
فتشابَهَ القُرْبانِ في إقدامه   وتخالَفَا في بَذْلِكَ المأكولا
أسَدٌ يرى عُضْوَيْهِ فيكَ كِلَيْهِما   مَتْناً أزَلَّ وساعدا مَفْتولا
مازال يَجْمَعُ نَفْسه في زَوْرِهِ   حتى حَسِبْتَ العَرْضَ منه الطُّولا
وكأنما غَرَّتْهُ عينٌ فادَّنَى   لا يُبْصِرُ الخطبَ الجليلَ جليلا
أنفُ الكريم من الدَّنِيَّةِ تاركٌ   في عَيْنِهِ العَدَدَ الكثيرَ قليلا
والعارُ مَضَّاضٌ وليس بخائفٍ   من حَتْفِهِ من خافَ مما قيلا
خذَلَتْه قُوَّتُهُ وقد كافَحْتَهُ   فاستنصَرَ التَّسليمَ والتَّجْدِيلا
سَمِعَ ابنُ عَمَّتِهِ بِهِ وبحالِهِ   فمَضَى يُهَرْوِلُ أمسِ منك مَهُولا
وأمَرُّ مما فَرَّ منه فِرارُهُ   وكَقَتْلِهِ ألا يَمُوتَ قتيلا
تَلَفُ الذى اتخَذَ الجراءة خُلَّةً   وَعَظَ الذى اتخَذَ الفرارَ خَليلا[1]

---

(١) من قصيدته في مدح بدر بن عمار لما خرج الى أسد فهرب الأسد منه ، وكان قد خرج قبله الى أسد آخر فهاجه عن بقرة افترسها بعد أن شبع وثقل ، فوثب الى كفل فرسه، فأعجله عن سل سيفه، فضربه بالسوط فرغه في التراب، فأحاط به الجيش فقتله (الديوان ٣/٤٣٤) بالديوان (وبربر دونها) و (فتشابه الخلقان) =

وسأحكم بين هاتين القصيدتين ، والذى يشهد به الحق وتنفيه العصبية أذكره ، وهو أن معانى أبى الطيب أكثر عدداً ، وأسدّ مقصِدا ، ألا ترى أن البحترى قد قصَرَ مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح فى تشبيهه بالأسد مرة وتفضيله عليه أخرى ، ولم يأت بشىء سوى ذلك ، وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك فى بيت واحد وهو قوله :

أمعَفِّرَ الليث الهِزبْرَ بسَوطه لمن ادّخَرتَ الصّارم المصقولا ؟

ثم إنه تَفنَّنَ فى ذكر الأسد ، فوصف صورته وهيئته ، ووصف أحواله فى انفراده فى جنسه ، وفى هيئة مشيه واختياله ، ووصف خلق بخله مع شجاعته ، وشبه الممدوح به فى الشجاعة ، وفضله عليه بالسخاء ، ثم إنه عَطَفَ بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية التى بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح ، وأخرج ذلك فى أحسن مخرج ، وأبرزه فى أشرف معنى .

وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف ببديهة النظر ما أشرت إليه .

والبحترى وإن كان أفضل من المتنبى فى صوغ الألفاظ وطلاوة السبك ، فالمتنبى أفضل منه فى الغوص على المعانى .

= معفر: ممرغ فى التراب . الهزبر : الأسد الشديد . الصارم : السيف القاطع . ورد : لونه حمر . البحيرة : بحيرة طبرية . الفرات والنيل : نهران بالعراق ، والنيل أيضا نهر بمصر لكن المبالغة على هذا تكون قد جاوزت الغلو . الغيل : الأجمة . اللبدة : الشعر المجتمع على كتف الأسد . الفريق الحلول : الجماعة النازلة بمكان . النفرة : الشعر المجتمع على قفاه . اليافوخ : الرأس . الإكليل : التاج . الكمى : البطل المتستر فى سلاحه . مشكول : مقيد . زبجر : صاح ، وكذلك بربر . تطفيل : تطفل أى دخول على الآكل من غير دعوة . تشابه القرباذ أو الخلقان أى تشابهما فى الجرأة والإقدام ، وتخالفتما فى أن الاسد بخيل بطعامه وأنت جواد . متن : جانب الصلب . أزل : قليل لحم العجز والفخذين مفتول : مندمج شديد . زوره : وسط صدره . ادنى : قرب . مضاض : مؤلم . التجديل : الانطراح على الأرض . ابن عمته : الأسد الذى هرب من بدر بعد ذلك

ومما يدلك على ذلك أنه لم يعرض لما ذكره فى أبياته الرائية ، لعلمه أن بشراً قد ملك رقاب تلك المعانى واستحوذ عليها ، ولم يترك لغيره شيئاً يقوله فيها ، ولفطانة أبى الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر، لأنه قصر عنه تقصيراً كثيراً ، ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك الطريق ، وسلك غيرها فجاء فيما أورد مبرزا .

واعلم أن من أبين البيان فى المفاضلة بين أرباب النظم والنثر أن يتوارد اثنان منهما على مقصد من المقاصد يشتمل على عدة معان كتوارد البحترى والمتنبى ها هنا وعلى وصف الأسد ، وهذا أبين فى المفاضلة من التوارد على معنى واحد يصوغه هذا فى بيت من الشعر وفى بيتين ، ويصوغه الآخر فى مثل ذلك ، فإن بعد المدى يُظهِرُ ما فى السوابق من الجواهر(١) ، وعنده يتبين ربح الرابح وخُسْر الخاسر . فإذا شئت أن تَعْلَمْ فضل ما بين هذين الرجلين فانظر إلى قصيدتيها فى مراثى النساء التى مفتتح إحداها :

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب   كنايةً بهما عن أكرم العرب(٢)

وهى لأبى الطيب

ومفتتح الأخرى

غُروبُ دَمْعٍ من الأجفان يَنْهَمِلُ   وحُرْقَةُ بغليل الحزن تَشْتَعِلُ(٣)

وهى للبحترى ، فإن أبا الطيب انفرد بابتداع ما أتى به فى معانى قصيدته ، والبحترى أتى بما أكثره غثٌّ بارد ، والمتوسط منه لا فرق فيه بين رثاء امرأة ورجل .

ومن الواجب أنه إذ سلك الناظم أو الناثر مسلكا فى غرض من الأغراض

---

(١) السوابق : الخيل الجياد السباقة . يريد أن بعد الغاية يظهر ما فى الخيل المتسابقة من كرم ونفاسة

(٢) مطلع قصيدته فى رثاء أخت سيف الدولة (الديوان ٩٩/١)

(٣) ليست بديوانه

ألا يخرج عنه ، كالذى سلكه هذان الرجلان فى الرثاء بامرأة ، فإن من حذاقة الصنعة أن يَذْكرَ ما يَليُق بالمرأة دون الرجل .

وهذا الموضع لم يأت فيه أحد بما يثبت على المحك إلا أبو الطيب وحده ، وأما غيره من مُفْلِقى الشعراء قديماً وحديثاً فإنهم قَصَّروا عنه .

وله فى هذا المعنى قصيدة أخرى مفتحها :

نُعِدُّ المَشْرَفِيَّة والعَوالى وتَقتُلُنا المَنُونُ بلا قتال (١)

وكفى بها شاهدا على ما ذكرته من انفراده بالإبداع فيما أتى به .

والفتيا عندى بينه وبين البحترى أن أبا الطيب أنفذ فى المضيق ، وأعرف باستخراج للعنى الدقيق ، وأما البحترى فإنه أعرف بصوغ الألفاظ، وحوك ديباجتها.

وقد قدمت أن الحكم بين الشاعرين فى اتفاقهما فى المعنى أبين من الحكم بينهما فيما اختلفا فيه ، لأنهما مع الاتفاق فى المعنى يتبين قولاهما ويظهران ظهوراً يُعلَمُ ببديهة النظر ، ويتسارع إليه فهم من ليس بثاقب الفهم ، أما اختلافهما فى المعنى فإنه يحتاج فى الحكم بينهما فيه إلى كلام طويل يَعِزُّ فهمه ، ولا يتفطن له إلا بعض الناس دون بعض ، بل لا يتفطن له إلا الفذ الواحد من الناس .

ولى فى هذا مقالة مفردة ضمنتها الحكم بين للمنيين المختلفين ، وتكلمت عليه كلاما طويلا عريضا ، وأقمت الدليل على مانصصت عليه ، وما منعنى من إيرادها فى كتابى هذا إلا أنها سنحت لى بعد تصنيفه وشيوعه فى أيدى الناس وتناقل النُّسخ به .

وعلى هذا الأسلوب توارد البحترى والشريف الرضى على ذكر الذئب ، فى قصيدة البحترى دالية أولها .

---

(١) فى رثاء والدة سيف الدوله (الديوان ٣/١٧٠)
المشرفية : السيوف . العوالى : الرماح .

(سلامٌ عليكم لا وفاء ولا عهد)(١)

ومقطوعة الشريف الرضى أولها :

وعاري الشَّوَى وللمَنْكِبَيْنِ من الطَّوَى
أتيح له بالليـــل عاري الأشاجمِ(٢)

وقد أجاد البحترى فى وصف حاله مع الذئب ، والشريف أجاد فى وصف الذئب نفسه .

المسخ

وأما المسخ ، فهو قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة ، والقسمة تقتضى أن يُقرَنَ إليه ضِدُّه ، وهو قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة .

فالأول كقول أبى تمام :

وقول أبى الطيب المتنبى :

فتى لا يَرَى أن الفَرِيصَةَ مَقْتَلٌ ولـكنْ يرى أن العيوب مَقاتِلُ(٣)

---

(١) من قصيدته فى وصف الذئب حين لقيه (الديوان ١/١٨٥)

(٢) من قصيدته فى وصف الذئب (الديوان ٥٠٢)

الشوى : جمع شواة وهى جلدة الرأس أو اليدان أو الرجلان أو الأطراف . الطوى : الجوع الأشاجم : أصول الأصابع التى تتصل بعصب ظاهر الكف ، المفرد أشجم

(٣) من قصيدته فى مدح محمد بن عبد الملك الزيات

مطلعها :

متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل وقلبك منها مدة الدهر آهل

(الديوان ٣/١٢٦)

الفريصة : عرق فى العنق ، واللحمة التى بين الجنب والكتف لا تزال ترعد

وقول أبى الطيب المتنبى :

يَرَى أن مَامَابانَ منك لضاربٍ بأقتلَ مما بان منك لعائب[1]

فهو وإن لم يشوه المعنى فقد شوه الصورة ، ومثاله فى ذلك كن أودع الوَشْىَ شُمْلا وأعطى الورد جُعَلا[2] وهذا من أرذل السرقات .

وعلى نحو منه جاء قول عبد السلام بن رُغْبان :

نَحْنُ نُعَزِّيك ومنك الهُدَى مُسْتَخرجٌ والصبرُ مُسْتَقْبَلُ

نقولُ بالعَقْلِ وأنتَ الذى نأوِى إليـــه وبه نَعْقِلُ

إذا عفَا عنك وأودى بنا الدّ هر فذاك المُحْسِنُ المُجْمِلُ[3]

أخذه أبو الطيب فقلب أعلاه أسفله فقال :

إن يكنْ صبر ذى الرّزِيّةِ فَضْلا تكن الأفضَل الأعزَّ الأجَلاَّ

أنت يا فوْقَ أن تُعَزّى عن الأَحْبـــابِ فوق الذى يُعَزِّيك عَقْلا

وبألفاظك اهتدى فإذا عزّا ك قال الذى له قُلْتَ قَبْلا[4]

والبيت الأخير من هذه الأبيات هو الآخر قدرا ، وهو المخصوص بالمسخ .

وأما قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة فهذا لايسمى سرقة ، بل يسمى إصلاحا وتهذيبا

---

(١) من قصيدته فى مدح أبى القاسم طاهر بن الحسين مطلعها

أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب وردوا رقادى فهو لحظ الحبائب

(الديوان ١/١٨٣)

المعنى أنك ترى أن الذى ظهر من الإنسان لضاربه بالسيف كالعنق ليس بأقتل مماظهر للعائب ، فالعيب أشد من القتل .

(٢) الشمل : الشمال على وزن كتاب شىء مثل المخلاة يغطى به ضرع الشاة إذا ثقلت أو خاص بالعنز ، والجمع شمل . الجعل : دويبة تشبه الخنفساء .

(٣) الأغانى ١٤٢/١٢ من قصيدته فى تعزية جعفر بن على الهاشمى . وقبل البيت الأخير

نحن فدى لله من أمة والأرض والآخر والأول

(٤) من قصيدته فى تعزية سيف الدولة فى أخته الصغرى وتسليته عن أخته الكبرى مطلعها . =

فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي :

لو كان ما تعطيهمُ من قَبْلِ أن   تعطيهمُ لم يَعرفوا التأميلا[1]

وقول ابن نباتة السعدى :

لم يُبْقِ جُودُكَ لى شيئا أؤمله   تركْتَنى أَصْحَبُ الدنيا بلاأمل[2]

وعلى هذا النحو ورد قول أبي نواس فى أرجوزة يصف فيها اللعب بالكرة والصولجان ، فقال من جملتها .

جِنٌّ على جنّ وإن كانوا بَشَرْ   كأنما خِيطُوا عليها بالإِبَرْ[3]

ثم جاء المتنبى فقال :

فكأنها نُتِجَتْ قياماً تحتهم   وكأنهم وُلِدُوا على صَهَواتها[4]

وبين القولين كما بين السماء والأرض ، فإنه يقال ليس للأرض إلى السماء نسبة محسوسة ، وكذلك يقال هاهنا أيضاً ، فإنه بقدر مافى قول أبي نواس من النزول والضعف ، فكذلك فى قول أبي الطيب من العلو والقوة .

= إن يكن صبر ذى الرزية فضلا   تكن الأفضل الأعز الأجلا

(الديوان ٣/ ٣٠١) يريد أن المعزى لسيف الدولة يهتدى بألفاظه ، ويخاطبه بما تعلمه من قوله ، فقدره مرتفع عن التعزية .

(١) من مدحه لسيف الدولة (الديوان ٤/٤٤٩)

(٢) الديوان ٤١١ ويتيمه الدهر ٢/٣٨٨ من مدحه لسيف الدولة بن حمدن

(٣) ليست بالديوان . وهى أرجوزة مطلعها .

قد أشهد اللهو بفتيان غرر   من ولد العباس سادت البشر

(٤) من قصيدته فى مدح أبي أيوب أحمد بن عمران (الديوان ١/٢٥٥) نتجت : ولدت . الصهوات : المراد مقاعد الفرسان على ظهور الخيل .

القصيدة مطلعها :

سرب محاسنه حرمت ذواتها   دانى الصفات بعيد موصوفاتها

فهرس القسم الثالث من كتاب

المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

لضياء الدين بن الأثير

صفحة

النوع السابع عشر

في التكرار (٣ — ٤٠)

التكرير في اللفظ والمعنى

الصفحة

النوع الثامن عشر

فى الاعتراض (٤٠ — ٤٩)

الصفحة

النوع التاسع عشر

فى الكناية والتعريض (٤٩ — ٧٥)

النوع العشرون

فى المغالطات المعنوية (٧٦ — ٨٤)

الصفحة

النوع الحادى والعشرون

فى الأحاجى

الصفحة

النوع الثانى والعشرون

فى المبادىء والافتتاحات (٩٦— ١٢٠)

الصفحة

النوع الثالث والعشرون

فى التخلص والاقتضاب (١٢١ — ١٤٢)

الصفحة

النوع الرابع والعشرون

فى التناسب بين المعانى (١٤٣ - ١٧٧)

أقسام هذا النوع :

الصفحة

النوع الخامس والعشرون

فى الاقتصاد والتفريط والإفراط (١٧٧ — ١٩٥)

الصفحة

النوع السادس والعشرون

فى الاشتقاق (١٩٥ — ١٩٩)

النوع السابع والعشرون

فى التضمين (٢٠٠—٢٠٥)

النوع الثامن والعشرون

فى الإرصاد (٢٠٦—٢١٦)

الصفحة

النوع التاسع والعشرون

فى التوشيح

النوع الثلاثون

فى السرقات الشعرية

الصفحة

أقسام السرقات الشعرية

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

المسخ ٢٩٠

[تم القسم الثالث من كتاب المثل السائر لابن الأثير]

يليه القسم الرابع ، محتويا على :

١ – تكملة المثل السائر .

٢ – كتاب الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد .

٣ – فهارس الكتاب متنوعة ومفصلة .

مطبعة نهضة مصر